

فكر الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط

[محاضرات ألقاها عام ١٩٥٣ — ١٩٥٤]

الدكتور أحمد فؤاد الأهواني
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٥٤

دار الخيال للنشر والتوزيع
مبنى الباني الجليلي وشركاه

فخر الفلاسفة اليونانية قبل سقراط

[محاضرات ألقاها عام ١٩٥٣ — ١٩٥٤]

الدكتور أحمد فؤاد الأهواني
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٥٤

شبكة كتب الشيعة

دار الخيانة الكعبة الحربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

مقدمة

الفكر البشرى كلٌّ لا يتجزأ ، ترتبط حلقاته ، ويتطور من الماضى إلى الحاضر بحيث لا يتيسر منهم المذاهب الحديثة إلا حين ترد إلى أصولها التى نشأت عنها ، وكما رجعت إلى أصل رأيت أنك تحتاج فى فهمه إلى الرجوع إلى الأصل الذى سبقه ، ويتسلسل بك الأمر حتى تبلغ الأصل الأول الذى نبعت منه الفلسفة ؛ وهى كما تعلم لفظة يونانية استحدثها الإغريق للدلالة على هذا الضرب من التفكير . فالأصل الأول للفلسفة بمعناها الذى اصطلمحنا عليه ظهر فى اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد ، وظل ينمو حتى بلغ ذروته عند سقراط ثم أفلاطون وأرسطو .

وقد تجدد الاهتمام بدراسة الفلسفة اليونانية لما لها من أثر فى الفلسفة الحديثة منذ عصر النهضة ، حين اكتشفت كتب قدماء المؤرخين مثل فلوطارخس وستوبايوس وديوجين لايرتوس ، فعادت مذاهب اليونانيين إلى الحياة ، واحتذى فلاسفة عصر النهضة حذوها .

أما العناية بالفلسفة قبل سقراط ، ومحاولة الكشف عن حقيقة أمرها ، فلم تظهر إلا فى القرن التاسع حين سادت نظرية « هيجل » الخاصة بتطور التاريخ وانتقاله فى مراحل يرتبط بعضها ببعضها الآخر ، فاتجهت الدراسات نحو كشف آثار الفلاسفة السابقين على سقراط ، حتى يكتب تاريخ الفلسفة كلها على أساس

(ب)

صحيح . واضطلع « ديلز » بوجه خاص بهذا العبد ، كما اضطلع غيره على نطاق أضيق ، فجمع « النصوص » من شتات التواريخ القديمة ، ورتبها ، وطبعها كما وجدها في المخطوطات اليونانية ، وذلك في أواخر القرن التاسع عشر . وعندئذ تيسر لأمثال رنوفيه ، وجومبرز ، وأوبرفج ، وغيرهم كتابة تواريخ شاملة يحلون فيها تطور الفكر اليوناني .

ولكن اللغة اليونانية ليست من السهولة بحيث يتيسر لأي مؤرخ للفلسفة أن يفهمها ، وهو إذا فهم معناها إجمالاً فلا يستطيع نقلها^(١) ، اللهم إلا إذا كان من المتخصصين فيها العارفين بأسرارها . وآية ذلك هذا الاختلاف العظيم بين الترجمات التي ينقلها المختصون ، وهو اختلاف قد يغير المعنى المقصود تغييراً تاماً . ومن العلماء من يرى أن الترجمة مهما تكن دقيقة وأمينه لا تكفي في نقل المعنى نقلاً صحيحاً ، فيذكر النص باليونانية على طوله ، كما فعل الأستاذ « راثن » في كتابه « الفيثاغوريون والإيليون » مثلاً . ويعمد سائر المؤرخين إلى استعمال المصطلحات اليونانية ، مثل « لوجوس » و « نوس » و « فيليا » و « أبيرون » و « كاثارسيس » وغيرها ، لأن أي اصطلاح حديث مقابل لها لا يدل على المعنى المقصود دلالة صحيحة . ومن الطبيعي أن يظهر مثل هذا الاختلاف في الدراسات الأولى . ولما ظهرت المباحث التي طبعت في ألمانيا وفي إنجلترا وفي فرنسا منذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين ، رأى المعاصرون أن يرجعوا بالبحث إلى تلك الدراسات

(١) من المؤرخين للفلسفة الذين ظهرُوا في أواخر القرن التاسع عشر الفريد فيبر الأستاذ بجامعة ستراسبورج ، وقد ذكر في كتابه ص ٢١ ، من الطبعة العاشرة سنة ١٩٢٥ جزءاً من قصيدة بارمنيدس باللغة اليونانية دون ترجمة ، وذلك لصعوبة القصيدة .

يوسعونها ، ويهذبونها ، ويفسرون المذاهب تفسيراً جديداً يلائم ما وقع عليه نظرهم عند البحث في النصوص القديمة ذاتها .

ويعد كتاب « برنت » المسمى فجر الفلسفة اليونانية ، والذي أصدر طبعته الأولى عام ١٨٩٢ حجة في موضوع الفلاسفة السابقين على سقراط . وهو يمتاز بأمرين : الأول أنه قدم للكتاب بدراسة طريقة التاريخ لهؤلاء القدماء ، وعلى أى المصادر يمكن أن نستقى آراءهم ، وكيف نميز بين الغث منها والسمين ، وكيف أخذ المتأخر عن المتقدم ، حتى يبلغ أقدم مصدر وهو ثاوفراسطس . والثانى أنه نقل عن « ديلز » وغيره معظم نصوص الفلاسفة الذين يدرسه مثل هرقلطس وبارمنيدس وأنبادقليس . ذلك أن الدراسة الأكاديمية الصحيحة لا بد أن تعتمد أولاً وقبل كل شيء على النصوص ذاتها ، التى يؤولها باحث على نحو معين ، ويؤولها باحث آخر على نحو آخر ، كما رأينا فى أمر الخلاف على بارمنيدس أهو مادى أم مثالى ، وهما مذهبان على طرفي نقيض ؛ وإنما يرجع ذلك إلى طريقة فهم النص ؛ فالنظر فى النصوص والتعمق فى فهمها ومعرفة معناها الصحيح يصحح التاريخ للفلسفة . فهذا « برنت » نفسه حين أصدر طبعته الثالثة من كتابه عام ١٩٢٠ ، كتب يقول : إن موضوع الفلسفة اليونانية كان لا يزال يعالج فى انجلترا من وجهة نظر هيكل ، وكانت التأويلات التى سادت فى القرن التاسع عشر تقوم على بعض الفروض التى لم يؤيدها أى دليل ، بل أكبر الظن أنها بعيدة الاحتمال .

ثم برز الاهتمام مرة أخرى بالفلسفة قبل سقراط فى السنوات الأخيرة ، فأصدر ييجر كتابه عن « العلم الإلهى عند فلاسفة الإغريق الأولين » ، أصدره عام ١٩٤٧ ، وهو كتاب يعالج صلة الفلسفة بالدين واعتمادها عليه إلى حد كبير ، فكشف

النظام عن هذه الناحية الدقيقة العميقة الجذور في الطبائع البشرية منذ أقدم العصور . والأستاذ ييجر من المؤرخين الألمان ، وله كتاب عن أرسطو طلع فيه بنظرية جديدة ودرس العلم الأول من خلال تطور فكره ، ورتب كتبه على حسب هذا التطور . وله أيضا كتاب آخر عن « المثل العليا في الثقافة اليونانية » في ثلاثة أجزاء ، أصدره في أمريكا أيضا منذ حوالي عشرة أعوام حيث استقر به المقام أخيرا . وتتميز دراسات ييجر بالأصالة والوضوح والنفوذ مع البصر بمعرفة النصوص اليونانية وحسن تأويلها . ويبدو أنه هو نفسه يقرض الشعر ، لأنه حين ينقل نصوص الفلاسفة التي كتبت شعرا مثل قصيدة بارمنيدس أو أنبادقليس ينقلها إلى الإنجليزية شعرا أيضا . وهو كغيره من العلماء الأفذاذ لا يأخذ بترجمات برنت أو خلافه ويؤثر ترجمته الخاصة . وقد اعتمدت كثيرا على نظراته الصائبة وآثرتها على غيرها .

ومن أحدث الكتب التي ظهرت عام ١٩٤٦ ، ويعد من الدراسات العميقة المتخصصة في هذا الموضوع تخصصا شاملا مستوعبا ، كتاب كاثلين فريمان عن « الفلاسفة السابقين على سقراط » ، وقالت في العنوان إنه : « كتاب يصاحب ديلز في نصوصه » ، ذلك أنها وهي تُدرّس نصوص ديلز باليونانية لطلبة الجامعة رأت الحاجة ماسة إلى تأليف مثل هذا الكتاب ، كما ترجمت نصوص ديلز إلى الإنجليزية في كتاب مستقل . وهي كذلك تختلف في ترجمتها عن برنت وعن ييجر .

وآخر ما ظهر في هذا الباب ، كتاب « مبادئ الحكمة » وهو بحث

كما قال صاحبه فى أصول الفكر الفلسفى اليونانى ، صدر آخر عام ١٩٥٢ ، بعد وفاة مؤلفه الأستاذ كورنفورد ، الذى لم يكن قد أتمه ، فقام بنشره الأستاذ «جوتريه» إحياء لذكراه . وكورنفورد من الباحثين المشهورين فى الفلسفة اليونانية وبخاصة أفلاطون . وقد نقل كثيرا من محاوراته مثل بارمنيدس ، وطيماوس ، وغيرهما مع شرحها شرحا دقيقا . وله أيضا كتاب صغير ألفه فى شبابه اسمه « قبل سقراط وبعده » . ويدل آخر كتبه على سعة اطلاعه ، وثقافته الفلسفية المحيطة بالمفكرين الإغريق ؛ وهو يحاول بوجه خاص أن يرد آراء فلاسفة اليونانيين الأوائل إلى أصولها فى أشعار هوميروس وهزiod ، ويبين تطورها ، وتفاعل المدارس المختلفة وظهورها فى ثوب جديد . ويمتاز هذا الكتاب بالوضوح والإشراق ، وقد نشأ ذلك عن إحاطة صاحبه بعد أن طعن فى السن ، فشاء أن يتوج حياته بهذه الدرة التى تعد نظرة تركييبية للحياة العقلية خلال القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد فى بلاد اليونان . ومن الطبيعى أن يؤثر كورنفورد ترجمته الخاصة للنصوص ، إذا وجد حاجة إلى إيراد بعضها على سبيل الاستشهاد . وهنا نجد أيضا خلافا فى الترجمة عن برنت وييجر وفريمان ، مما يؤيد ما سبق أن ذكرناه .

ولم يكن فلاسفة الإغريق الأوائل فلاسفة فقط ، بل كانوا حكماء يجمعون فى تفكيرهم بين العلم والفلسفة والأخلاق والسياسة . وكان الأيونيون علماء قبل أن

يكونوا فلاسفة ، واتجهت الفيشاغورية وجهة رياضية . لذلك اهتم المؤرخون للعلم بالبحث في فلسفة هؤلاء الأوائل . وهناك مراجع كلاسيكية معروفة لا تزال لها قيمتها ظهرت في أول هذا القرن ، ويكفي أن نشير إلى أحدث ما كتب في هذا الموضوع ، الذي تتطور الكتابة فيه كلما اكتشف جديد . ونشير بالذات إلى كتابين : أولهما مجموعة من أربعة أجزاء أصدرها الأستاذ رِي ، الذي كان لي شرف طلب العلم عليه حين كان يلقى دروسه بالجامعة المصرية عام ١٩٢٨ . وقد سمي الأول شباب العلم اليوناني ، والثاني نضوج العلم اليوناني ، والثالث والرابع ذروة العلم اليوناني . وأصدر هذه المجموعة سنة ١٩٣٣ ، ١٩٣٩ ، ١٩٤٦ ، ١٩٤٨ على التوالي . ويمتاز الأستاذ رِي بالحديث عن منهج التفكير بوجه خاص لما لذلك من أثر بالغ في طريقة البحث العلمية . وقد لاحظت أنه يعتمد في نصوص القدماء على ترجمة برنت لها ، وكتاب برنت مترجم إلى الألمانية والفرنسية منذ زمن طويل . ولا ريب في أن رِي يعرف اللغة اليونانية ، ولكن مجرد معرفتها شيء ، والقيام بترجمة نصوص الفلاسفة عنها شيء آخر لا يقوى عليه إلا المختصون في اللغة ، العارفون بأسرارها ودقائقها .

أما الكتاب الثاني فهو الذي أصدره الأستاذ سارتون في أمريكا سنة ١٩٥٣ عن « العلم القديم في العصر الذهبي ليونان » وقد أهدى هذا الكتاب إلى زميله وصديقه « ييجر » . ولسنا في حاجة إلى تقديم سارتون والتعريف به ، فهو صاحب الكتاب المشهور الحجة « مدخل إلى تاريخ العلم » في ثلاثة أجزاء أصدره بين ١٩٢٧ و ١٩٤٨ . كتب ذلك الكتاب للمختصين ، أما الكتاب الأخير على ضخامته فيزعم أنه كتبه لغير المختصين ، أو للجمهور المثقفين تواضعا .

ولابد لمن يريد الإلمام بفلسفة القدماء أن يعرف رأيهم في العلم ، فلم تكن المعرفة منفصلة في ذلك الزمان ، واستمرت كذلك إلى عهد قريب ، فهذا أرسطو كان طبيبا وعالما وفيلسوبا وسياسيا ، وكان ابن سينا طبيبا في « قانونه » وفيلسوبا في « شفاؤه » .

وقد درج المؤرخون على قسمة الفلسفة اليونانية إلى ما قبل سقراط وبعده ، ذلك لأن سقراط كما يقال هو الذي أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، أى حوّلها من البحث في الطبيعة الخارجية للأشياء إلى البحث في النفس الإنسانية ، باعتبار أنها مصدر المعرفة . واعتمد أفلاطون ثم أرسطو على هذه النظرية ، وسلكا هذا السبيل ، واستمرت الفلسفة بعد ذلك إما أفلاطونية وإما أرسطية . ولكننا لا نستطيع أن نفهم سقراط وأفلاطون وأرسطو دون الرجوع إلى السابقين عليهم . وقد اعترف لهم أرسطو بالفضل ، وكان منهجه يقوم على استقصاء جميع الآراء السابقة ونقدها والتطور بها إلى فلسفة جديدة . وقد رأينا أن كتب أرسطو ، وكذلك محاورات أفلاطون ، تعد مراجع للفلاسفة الأولين الذين فُقدت كتبهم . فإذا كان هذا حال أفلاطون وأرسطو اللذين أقاما فلسفتهما على مذاهب السابقين ، فنحن في حاجة إلى معرفة تاريخ هؤلاء الأوائل ، لا لكي نحسن فهم أفلاطون وأرسطو فقط ، ولا لكي نفهم التاريخ مرتبطا ومتطورا متفاعلا ، بل للمعرفة ذاتها والكشف عن ذلك التاريخ . وهذا ما فعله الباحثون في الغرب ، وهو علة اهتمامهم بالفلسفة قبل سقراط هذا الاهتمام .

ونحن في الشرق في حاجة إلى مثل هذه المعرفة بالأوائل ، لأن الفلسفة اليونانية نقلت إلى اللغة العربية ، وأثرت في الحضارة الإسلامية أعظم تأثير ، وينبغي لكي نحسن فهم العوامل التي أثرت في ظهور هذه الحضارة على هذا النحو أن نردها إلى أصولها ، لا إلى كتب أفلاطون وأرسطو وحدهما ، بل إلى غيرهما من الفلاسفة الأولين . ونحن نجد في تواريخ العرب عن الحكماء خلطاً عجيباً عن هؤلاء الأوائل . لذلك ينبغي أن نصفي هذا التاريخ ، ونبين المصادر التي رجع إليها المؤرخون العرب في كتاباتهم . ولن يتم هذا كله إلا بعد دراسات طويلة شاقة تنقل فيها نصوص القدماء ، وتنقل كذلك كتب المؤرخين القدماء مثل ديوجين لايرتوس وغيره .

وعند ما انتقلتُ إلى الجامعة سنة ١٩٤٦ اضطلعت بتدريس الفلسفة اليونانية كما قمت بتدريس فروع أخرى من الفلسفة كالمنطق والفلسفة الحديثة ، وعلم الكلام والميتافيزيقا ؛ ولكن تدريسي للفلسفة اليونانية لم ينقطع منذ أن اضطلعت به . وقد تعودت أن أسلك كل عام طريقة جديدة في البحث ، فكنت عاماً أدرس سقراط فقط ، منذ أول العام حتى آخره ، وهذا يقتضي بطبيعة الحال الرجوع إلى السابقين عليه ، كما يشمل ذلك دراسة أفلاطون . أو أدرس في عام آخر أفلاطون من بعض محاوراته التي تكشف عن فلسفة القدماء . أو أهتم عاماً بالعلم ، وعاماً آخر بالرياضة ، وعاماً ثالثاً بالدين ، وهكذا . ثم رأيت أن أي دراسة لا تكون مجدية ولا جامعية دون الرجوع إلى المصادر الأولى ، أي إلى نصوص الفلاسفة أنفسهم ، فانهيت إلى ما انتهى إليه مؤرخو الغرب من وجوب نقل هذه النصوص والاعتماد عليها

فى فهم آراء المتقدمين ورأيت مذاهب المؤرخين مختلفة فى التأويل ، ونظرياتهم متطورة دائماً التجدد والتغيير ، فجمعت بينها ، وعرضت سائر هذه المذاهب مؤثراً ما أراه منها أليق . وقدمت لهذا كله بنقل معظم نصوص الفلاسفة الذين أتحدث عنهم إلى اللغة العربية ، حتى تكون ماثلة بين يدى الطالب والقارىء يعتمد عليها فى فهمه الخاص ، ويرى فيها الصورة الحقيقية لفلسفة هؤلاء الفلاسفة ، وكيف كانوا يصوغونها ، وعلى أى هيئة كان الجمهور فى ذلك الزمان يطلع عليها .

وأحسب أنى قد أدت بذلك واجباً نحو قراء اللغة العربية ، وطلبة الجامعة بوجه خاص ، حين يسّرت لهم الاطلاع على هذه النصوص ، وعلى هذه التأويلات ، وعلى التيارات الحديثة فى الفلسفة اليونانية باللغة العربية ، وبخاصة فى هذه الأيام التى أصبح الحصول فيها على الكتب الأجنبية عزيزاً .

ولست أزعم أنى بلغت الكمال ، ولا أدعى العصمة من الزلل . وجدير بمن يحاضر عن سقراط أن يتمثل حكمته القائمة على الشعور بالمعجز عن العلم ، والتواضع فى هذه الحياة ، وإيثار الحياة الآخرة . وإنى لأرجو أن ينهض من بين طلابى مَنْ يختص فى اللغة اليونانية إلى جانب معرفته بالفلسفة ، ومن يرتفع إلى طبقة برنت وكورنفورد ، حتى ينقل النصوص نقلاً جديداً ، يرجع فيه إلى الأصل اليونانى نفسه . ويكفى أنى قد فتحت الباب وأرشدت إلى الطريق ، وسلكت المنهج القويم .

وأود فى ختام هذه المقدمة أن أشكر طلابى الذين تقبلوا هذه الدراسات العميقة بصبر ، وشعروا فى صحبتها بلذة ، وأسكرتهم نشوة البحث ، وأخذتهم روعة الفكر

القديم . وهم الذين دفعوني دفعا خلال العام الجامعى المنصرم [١٩٥٣ - ١٩٥٤] إلى طبع هذه المذكرات ، التى آثرت أن أسميها كما سماها برنت « فجر الفلسفة اليونانية » . كما كان لأسئلتهم واعتراضاتهم التى كانوا يوجهونها ويستوضحون بها ما يغمض على أذهانهم فضل الحث على إتمام النظر ، وتقليب الفكر ، والاستزادة من القراءة والبحث ، حتى أوضح الغامض وأحل المشكل .

وإني إذ أشكر صاحب المطبعة قبوله طبع هذه المذكرات على الرغم من زحمة العمل ، أعتذر عنه وعنى لوقوع بعض الأخطاء المطبعية التى صححتها فى آخر الكتاب وكذلك عن الانقطاع من كتابة الاصطلاحات بالحروف اليونانية لصعوبات فنية وما كان يصحب ذلك من تعطيل .

والعصمة والكمال لله وحده .

أحمد فؤاد الأهوانى

جامعة القاهرة ١٩٥٤

فَجَزَّ الْفَلَسَفَةُ الْيُونَانِيَّةُ

قَبْلُ سُقْرَاطَ

الفلسفة والحضارة

الفلسفة الحية :

[١] الفلسفة إما حية متصلة بالجمهور ، وإما ميتة قاصرة على المدارس . وقد مرت على الفلسفة أدوار كثيرة كانت فيها مزدهرة حين استجاب الفلاسفة للبيئة التي يعيشون فيها ، وأنعموا النظر في النظم القائمة في المجتمع أصالحة هي أم غير صالحة ، وحاولوا أن يفسروا طبيعة الكون تفسيراً يلائم عصرهم من جهة ويفضى إلى التقدم للإنسان وخيره وسعادته من جهة أخرى . ولم يكن ذلك كله ميسوراً إلا إذا نزل الفيلسوف من برجه العاجي الذي يعكف فيه على نفسه إلى ميدان الحياة يناقش ويجادل ويرشد ويعلم ، حتى يبت أفكاره الجديدة ويدافع عنها ، ويأخذ بيد الناس فينقلهم من فكر قديم أصبح لا يلائم ظروف الحياة القائمة ، إلى فكر جديد يتفق مع ما ينبغي أن تكون عليه الدولة في تقدمها وأخذها بأسباب الرقي .

فإذا رجعنا إلى فلاسفة اليونان رأينا الفلسفة كانت حية على أيديهم لاتصال هؤلاء الفلاسفة بالحياة وبالناس . فهذا فيثاغورس كان صاحب مدرسة أضم آلافاً من التلاميذ ، وكان سقراط يعلم في الملاعب والبساتين ويعشى دور الأثينيين ، وافتتح أفلاطون الأكاديمية فطلب عليه العلم كثيرون من طلاب الحكمة ، وذهب إلى صقلية يعلم ملكها الفلسفة حتى يطبق نظريته في المدينة الفاضلة . وكانت مدرسة أرسطو جامعة على المعنى الحديث ، فيها مجموعات من أصناف النباتات والحيوانات والخرائط حتى لا يقتصر البحث الفلسفي على مجرد النظر ؛ وهو إلى ذلك معلم الإسكندر . ولم تقتصر هذه الحياة التي نصف بها الفلسفة على صلة الفلاسفة بالحكام والجمهير

يعلمونهم في مدارسهم تعليما منظما أو يؤلفون لهم الرسائل والكتب التي يقرؤها الناس إذا كانوا بعيدين عن تلك المدارس ، بل تمثلت تلك الحياة في تطور أفكار كل فيلسوف مع تقدمه في السن ، لأن التطور سنة كل كائن حي . فـ « فالتوانين » التي كتبها أفلاطون في أواخر حياته تختلف في أساسها عن « الجمهورية » ، لأنه عدل عن كثير من آراء الشباب .

فلما أصبحت الفلسفة « مدرسية » يقنع فيها طلاب الفلسفة بحفظ كتب القدماء وشرحها ، ماتت على أيديهم ، وأصبحت عبارات لا تفيد معنى مع انقطاع صلتها بالحياة الجديدة .

وبين حين وآخر يظهر بعض المفكرين الأحرار الذين ينفضون عن أنفسهم غبار الفلسفة القديمة ، ويتأملون من جديد في طبيعة الكون على ضوء العصر الذي يعيشون فيه ، وينشئون فلسفة جديدة ، ينفخون فيها الحياة من حياتهم . حدث ذلك حين نقلت الفلسفة اليونانية إلى العرب فظهر الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد ، وازدهرت الفلسفة على أيديهم . وحدث ذلك في عصر النهضة حين ثار بيكون وديكارت على تعاليم أرسطو ، ووضعوا بنیان الفلسفة الحديثة . ولا تزال الفلسفة منذ عصر النهضة حتى الآن سائرة في طريق التطور بحيث تتلاءم مع الحياة المعاصرة الشديدة التغير والتقلب .

في ضوء الظروف السياسية :

[٢] فإذا كنا نريد أن نجعل الفلسفة حية فينبغي أن نصل بينها وبين البيئة التي ظهرت فيها ، وعندئذ يبرح الخفاء عن هذه الطلسمات التي كنا نقرؤها في كتب الفلاسفة الأقدمين ، حتى تكاد تشبه الأحاجي والألغاز ، فيولى الجمهور ظهره لها ،

ويعتقد أن أصحابها من المخرفين . من أجل ذلك كتب الفيلسوف برتراند رسل كتابه عن تاريخ الفلسفة الغربية ، في « هيلته بالظروف السياسية والاجتماعية من أقدم العصور حتى العصر الحاضر ^(١) » ولقيت دراسته نجاحا عظيما إذ أصبحت نظريات الفلاسفة مفهومة في ضوء هذه الظروف السياسية والاجتماعية . وهو ولا ريب على حق في سلوكه هذا المنهج ، لأن تفكير الفيلسوف يتأثر دون نزاع بالبيئة السياسية والاجتماعية مادام يعيش فيها ويحاول تحليلها ومعرفة الأصول التي يقوم المجتمع عليها ، ويحاول بعد ذلك أن يصلح أو يعمل على رقي المجتمع على أساس تلك المعرفة . وبذلك بعث برتراند رسل في مذاهب الفلاسفة الحياة ، وجنّبها ثقل الدراسة « المدرسية » التي فصلت زمنا طويلا بين الآراء وبين البيئة التي ظهرت فيها ، والتي كانت علة في ظهورها .

في ضوء الحضارة :

[٣] أما نحن فتريد أن ندرس تاريخ الفلسفة لا في ضوء الظروف السياسية والاجتماعية وحدهما ، بل في ضوء « الحضارة » التي كانت سائدة في ذلك الزمان ، لأن الحضارة تشمل السياسة والاجتماع ، وتشمل إلى جانب ذلك نواحي أخرى لا بد من النظر إليها وإنزالها منزلة الاعتبار إذا شئنا أن نفهم حق الفهم الفلسفة التي ظهرت في جو تلك الحضارة ، وكانت جزءا منها . الواقع أن وجود الفيلسوف في دولة من الدول بالذات ، وفي زمن معين بالذات ، هو ثمرة الحضارة

(1) Bertrand Russell: A history of Western Philosophy and its Connection with Political and Social Circumstances from the Earliest Times to the Present Day. N.Y. 1945. 895. pp.

القائمة في تلك الدولة وذلك الزمان ، كما أنه في الوقت نفسه يعد قائداً لها ، وحاملاً لشعلتها ينير لها السبيل ، ويشق لها الطريق - وإنما نغنى بالطريق المناهج العقلية قبل كل شيء - ومفكراً في « قيمة » الفلسفة أو الآراء القديمة ، ومبتدعاً قيماً جديدة للحضارة تعد فلسفته أو مذهبه تنظيماً لهذه القيم . وهذا هو رأى « نيتشه » في علة ظهور الحضارات الجديدة على أنقاض الحضارات القائمة ، نغنى التفكير في قيم جديدة تزن بها نواحي الحياة المختلفة العلمية والدينية والفنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية . والفيلسوف هو الذى يتصدى للحكم على قيمة الحضارة التى يعيش فيها فيحاول إما هدمها وإما إدخال عناصر جديدة عليها يضيفها إليها ليكمل ما فيها من نقص . ولهذا السبب بدت حياة معظم الفلاسفة غريبة على أهل وطنهم سواء في سيرتهم الخاصة أو في أفكارهم وكتاباتهم ، لأن الإنسان يطمئن بالطبع إلى « المؤلف » ويستريح إليه حتى لو كان فاسداً ، وهذا هو سر تعلق الناس بالتقاليد وتمسكهم بها ، ويرهب الجديد ويخشى الإقبال عليه لأن الجديد مجهول . وقد تعرض كثير من الفلاسفة لحن تهدد حياتهم بالنفى أو الإعدام ، وأكبر مثل على هذا الاضطهاد محاكمة سقراط والحكم عليه بالإعدام ، لا لأنه أنكر آلهة اليونان وسعى إلى إفساد الشباب ونادى بآلهة جديدة ، كما زعم الاتهام الموجه إليه ، بل العلة الحقيقية أنه فيلسوف وقف في سبيل التقاليد الجارية وحكم عليها بالفساد وأشعل نار الثورة في العقول لهدم تلك التقاليد والأخذ بأسلوب جديد لم يألفه الأثينيون في الحياة . وكذلك فعل أفلاطون حين أراد أن يطبع الحضارة اليونانية في نظم الحكم والتعليم والطبقات الاجتماعية والفنون المختلفة طبعاً جديداً . ولا يعنينا أن تكون آراء سقراط وأفلاطون قد أثمرت ثمرتها بالفعل فانقلبت الحضارة اليونانية على حسب ما يهويان ؛ ولكن مما لا ريب فيه أنهما أثرا بعض التأثير ، ومما لا ريب فيه كذلك أن فلسفة أفلاطون ظلت خالدة

حتى اليوم وطبق العالم كثيرا من اتجاهاته الفلسفية والاجتماعية ، مثل التفسير الرياضى للكون فى العلوم ، وتعليم المرأة على قدم المساواة مع الرجل ، وغير ذلك من الأفكار التى بسطها فى الجمهورية .

امتياز الحضارة اليونانية بالفلسفة :

[٤] ونحن حين اتجهنا فى دراسة الفلسفة اليونانية فى صلتها بالحضارة إنما سلكنا هذا السبيل لأن هذه الفلسفة فى رأى معظم المفكرين المحدثين هى عنوان الحضارة اليونانية . فهذا الأستاذ كليف بل يصف أبرز صفة لحضارة الأثينيين بأنها محبة المعرفة أو الحق أو هى الإيمان بالعقل^(١) . وليس معنى ذلك أن الحضارة اليونانية كانت وفقا على الفلسفة ، بل أنها كانت أبرز صفة لها .

ولقد فطن القدماء إلى هذا المعنى وعرفوا أن أمة اليونان تمتاز عن غيرها من الأمم بالفلسفة ، فقال القاضى صاعد فى طبقات الأمم ما نصه : « وكان علماؤهم يسمون فلاسفة ، واحداهم فيلسوف ، وهو اسم معناه باللغة اليونانية محب الحكمة . وفلاسفة اليونانيين من أرفع الناس طبقة ، وأجل أهل العلم منزلة ، لما ظهر منهم من الاعتناء الصحيح بفنون الحكمة من العلوم الرياضية والمنطقية ، والمعارف الطبيعية والإلهية ، والسياسات المنزلية والمدنية^(٢) » .

ومنذ أن ظهرت الفلسفة فى اليونان أصبحت هى العنصر الأساسى فى كل حضارة ، حتى لتعد الحضارات الغربية المعاصرة ثمرة لها . والأمر كذلك فى الحضارة الإسلامية ، لأن أبرز مكوناتها العلوم الفلسفية اليونانية المختلفة من طب وهندسة

(1) Clive Bell : Civilisation - Penguin edition.

(٢) طبقات الأمم : ص ٢٣ .

ومنطق ، وسائر العلوم التي نقلت في عصر الترجمة في صدر الدولة العباسية ، وظهرت على أثر ذلك حركة واسعة في تدوين شئ العلوم وتأليفها ، واتخذوا من فلاسفتهم أئمة ، فقالوا : طب أبقراط ، وفلك بطليموس ، وهندسة أقليدس ، ومنطق أرسطو وهكذا .

معنى الحضارة :

[هـ] وقد ينبغي أن نتفق على معنى الحضارة ، التي نعد الفلسفة جزءا منها ، قبل أن نمضي في هذا البحث . وليس من اليسير تعريف الحضارة ، ولكننا نحاول أن نقرّبها إلى الذهن بذكر بعض صفاتها الأساسية ، ومكوناتها الجوهرية .

وأول هذه الصفات مستمد من اسمها ، فالحضارة تقال في مقابل البداوة ، والبداوة صفة البدو الذين يعيشون على الفطرة في الصحراء ، والحضارة صفة القوم الذين يعيشون في « الحضر » أي المنازل المسكونة ، ولا تكون المنازل مستقرة إلا حين تبني في « المدينة » ولذلك يوصف أهل المدن كذلك بالمدينة . فالمدينة والحضارة اصطلاحان مترادفان ، ويقابلان في اللغة الأجنبية Civilisation ، التي تشتق من اللاتينية Civitas بمعنى دولة ، أو من Cives بمعنى مواطن . ونحن نعلم من تراث الفلسفة اليونانية أن المثل الأعلى للدولة هو المدينة ، وقد جرى العرب على هذه السنة فألف الفارابي في « المدينة الفاضلة » . وليس المقصود من المدينة ما فيها من مساكن وأبنية ، بل المقصود اجتماع عدد من الناس في مكان واحد ، يقوم كل واحد منهم بعمل أو صناعة ، ويخضعون في علاقاتهم للقانون ، ويتعاونون جميعاً على تحقيق هدف أسمى هو « خير » المدينة . من أجل ذلك كانت الحضارة صفة للمجتمع لا للفرد ، أو هي

للفرد باعتبار أنه من جملة المجتمع . وكانت من جهة أخرى من خلق المجتمع هو الذي يصنعها ، وتتمثل في هذه الصناعات المختلفة التي تظهر فيه سواء أكانت هذه الصناعات مادية أو عقلية أو فنية ، وقديما كانوا يقولون : إن الطب صناعة والفلسفة صناعة . وبهذه الصناعات المختلفة يمتاز الحضرة عن البدو كما قال الشاعر :

حسن الحضارة محبوب بتطرية وفي البداوة حسن غير محبوب

وقد فصل هذا المعنى ابن خلدون في مقدمته ، وتكلم عن انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة ، فيتبع ذلك : « الرفه واتساع الأحوال ، والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله^(١) » وليس هذا الوجه للمادى هو كل ما في الحضارة من مميزات ، بل المميزات العقلية وانتشار العلوم هي السمات المميزة حقاً للحضارة . ولم يغب هذا المعنى عن ذهن ابن خلدون ، فعقد فصولاً للعلوم المختلفة وفصولاً للتعليم وطرائقه ، لأن العلم لا يكتسب إلا بالتعلم ، وكذلك الصناعات ولذلك كانت « التربية » من مميزات الحضارة ، واهتم لها أفلاطون في جمهوريته اهتماماً كبيراً .

فهذه عدة صفات للحضارة : أنها اجتماعية ، وأنها ثمرة صناعة الإنسان حين يجتمع في المدينة ، وأنها عقلية تستند إلى العلوم التي تشرح أصول هذه الصناعات ، وأنها خاضعة لجهاز يسمى التربية والتعليم .

وقد رأيتَ أن الحضارة تصاحبها الرفاهية في العيش ، ولا يتسنى ذلك إلا مع ازدياد الثروة التي تنشأ من استغلال الأرض في الزراعة أو من رواج التجارة وتبادل المصنوعات . فازدياد الثروة شرط ضرورى من شروط الحضارة .

وقد يتجه بعض الباحثين عند النظر في الحضارة إلى الصفات المعنوية للشعب ، مثل تطلعه نحو الخير ، وعشقه للفن والجمال ، وحبه للحرية ودفاعه عنها ، وإثارة العدل ، وخضوعه للقانون .

ويتجه البعض الآخر نحو وصف أنواع السلوك الخارجى الظاهر، والنظم الموجودة في المجتمع . وهذا على العموم هو اتجاه علماء الأمريكان ، فهم يتبعون في علم النفس المذهب السلوكى، فما بالك بالبحث في الحضارة والاجتماع. وعند ما كتب ول ديورانت قصة الحضارة مهد لها بالكلام عن العناصر المكونة لها ، وردّها إلى أربعة: اقتصادية وسياسية وخلقية وعقلية . وتحدث في العناصر الاقتصادية عن انتقال الجماعة من الصيد إلى الحرث وعن أسس الصناعة وعن التنظيم الاقتصادى . وفي العناصر السياسية عن أصول الحكم والدولة والقانون والأسرة . وفي العناصر الخلقية عن الزواج وأخلاق الجنس والأخلاق الاجتماعية والدين ومصادره ومعبوداته وطرأته : وفي العناصر العقلية عن الآداب والعلم والفن .

الدين والعلم والفن والفلسفة

[٦] ونحن نرى أنه يمكن إرجاع العناصر المكونة للحضارة إلى أمور أربعة هي الدين والعلم والفن والفلسفة .

وقد تخلو الحضارة من الفلسفة ، ولكنها لا يمكن أن تخلو من وجود الدين أو العلم أو الفن ، في صور متأخرة أو متقدمة ؛ فالشعوب البدائية لها دين وتقدس معبودات،

وفيه نوع من العلم الساذج القائم على التجربة ، وعندهم فنون وصناعات لا يضيرها أنها بدائية . وهناك شعوب ارتفعت حضارتها كالصين والهند والفرس وبابل وأشور ومصر في الزمن القديم ، ولم تعرف الفلسفة ولو أنها عرفت الحكمة . وكان الأمر كذلك في اليونان قبل ظهور الفلسفة في القرن السادس ، فقد تقلبت عليها حضارات مختلفة امتازت بنوع من الدين وضرب من الفن وشيء من العلم ، ولم تعرف تلك الحضارات الفلسفة ، ولكنها لم تخل من الحكمة الجارية على الألسن .

وقد نبعت الفلسفة اليونانية ، لأنها لم تظهر فجأة ، من الدين من جهة ، ومن العلم من جهة أخرى ، ومن الفن من جهة ثالثة ؛ فكانت الفلسفة هي النظر العقلي الذي يسمو على هذه الثلاثة ويشملها في آن واحد . فإذا رجعت إلى أفلاطون وأرسطو ، وهما يمثلان نهاية ما تطورت إليه الفلسفة اليونانية ، رأيت أنهما يبحثان في الدين والعلم والفن ، ورأيت أنهما على الرغم من محاولتهما التخلص من سلطان من الدين الموروث يتأثران إلى حد كبير بالميثولوجيا اليونانية ، كما هو واضح في محاورات أفلاطون .

البيئة الجغرافية :

[٧] وقد شكّلت البيئة الجغرافية الحضارة اليونانية إلى حد كبير . فالليونان ، أو شبه الجزيرة ، منطقة جبلية ، وعرة ، إذا اعتمد سكانها على الزراعة فقط ذاقوا شظف العيش ومرارة الكدح . وتتناثر في بحر إيجه جزر كثيرة ليست الحياة فيها بأفضل من الحياة في شبه الجزيرة . ولذلك التمس أهلها أسباب الحياة بالهجرة إلى أماكن أخرى تطل على البحر الأبيض ، فكانوا ينشئون مستعمرات يونانية في كل مكان ينزلون فيه سواء من غرب آسيا الصغرى ، أو في جنوب إيطاليا ، أو في شمال إفريقية ، وظهرت في معظم تلك المستعمرات حضارات وقامت فلسفات ، كالفلسفة التورينائية في شمال إفريقية . واشتغلوا كذلك بالتجارة مع الدول المطلة على البحر الأبيض ، ولذلك ليس غريبا أن توصف الحضارة اليونانية بأنها حضارة بحرية ، تقوم على الملاحة وركوب البحار وما يتصل بالملاحة من فنون وصناعات وأخلاق ، وما تجلبه التجارة من ثروة هي عصب الأزدهار . ولم يقف اليونانيون عند حد الاتجار ونقل البضائع ، بل كانت لهم صناعات تقوم على فن بلع من الذوق والدقة مباحا جعل الشعوب الأخرى تقبل على شراء تلك المصنوعات واقتنائها .

وقد أدت هذه البيئة الجغرافية إلى قيام الدول مستقلة في مدن ، لافى رقعة واسعة مثل الحال في مصر أو الفرس ، وحرصت كل مدينة على استقلالها ، واشتهرت شبه الجزيرة وهي الموطن الأصلي للإغريق بعدة مدن مثل أثينا وإسبرطة وكورنثة وميجارا ،

وفي الشاطئ الغربي من آسيا الصغرى نجد ملطية وساموس وقولوفون وإفسوس وكلازومينيا ، وفي جنوب إيطاليا كروتون وإيليا ، وأكراجاس في صقلية ، وقورينا في شمال إفريقيا . وكانت هذه المدن موطنًا لكثير من الشعراء والفنانين والفلاسفة والحكام الذين اشتهروا في تاريخ اليونان ، فخلدوا ذكر بلادهم حتى اليوم . وإنما جاء لهم خلود الذكر لأنهم فكروا في الحياة التي يعيشونها كيف تكون ، وأى أسلوب ينبغي على المرء اتخاذه في ملبسه ومأكله ومشربه ومسكنه ، وفي علاقته بغيره من أهل بلده ، وفي مسلكه نحوهم السلوك الفاضل ، وموقفه من الحكومة وواجب الدولة نحوه ، وفي صلته بالآلهة وما الذي يجلب رضاهم أو سخطهم ، وفي صناعته كيف يؤديها وابتدعها ابتداءً يتوفر فيه الكمال والجمال والجلال ، وفي أوقات فراغه كيف ينفقها في النافع وما يحقق له السعادة ؛ فكانت الفلسفة ثمرة التفكير في سائر هذه المشكلات ، والفلسفة هي أسلوب من الحياة ينشأ بعد تأمل وروية .

الفن اليوناني :

[٨] ولم نكن مغالين حين ذكرنا أن الفلسفة في اليونان نبعت من الفن ، ويشاركنافي هذا الرأي كثير من المؤرخين المحدثين . يقول « جان فال » وهو يتحدث عن مصادر نظرية المثل عند أفلاطون ، وأنها نشأت عن الرياضة والأخلاق ، وعن مصدر ثالث : « يمكن التماسه من النظر إلى الآثار الفنية . فقد كان اليونانيون أمة من الفنانين . ما الذي يحدث حين يصنع الفنان تمثالاً أو النجار مائدة ؟ إنه يجد في داخل نفسه « مثال » المائدة أو المثال الذي سوف يحققه في التمثال ، ثم يصوغ المادة طبقاً لذلك المثال . فالجالتى عند أفلاطون ، ولفظة Demiurge تفيد في الأصل

الصانع الماهر ، يتأمل المثل حتى ينظم العالم »^(١) .

وإذا كان أفلاطون قد استمد فلسفته من الرياضة والأخلاق والفن ، فإن أرسطو يعول على الفن وحده في صياغة مذهبه ، ويتخذ من التمثال نموذجاً لبيان كيفية وجوده ، فمادته هي النحاس ، والهيئة الموجودة في ذهن صانعه هي صورته ، والصانع هو العلة الفاعلة ، والزينة أو الكسب وما إلى ذلك هو العلة الغائية . وكذلك الحال في السرير بالنسبة إلى النجار ، لأن الإغريق لم يميزوا بين الصانع والفنان . فالموجودات الطبيعية كالشجرة والفرس لا بد لها من علل أربع كما رأينا في الموجودات الصناعية أو الفنية ، هي المادة والصورة والفعل والغاية .

وكانت عناية اليونانيين بالفن عظيمة ، يدفعهم إليها عدة بواعث : أولها الدين الأسطوري وما كان يتطلب من بناء الهياكل وتمثيل الآلهة وإنشاد التراتيل في الأعياد وتمثيل المسرحيات التي تصور حياة الآلهة ومآسهم . وكانت ديانتهم تأخذ بالتشبيه ، وتشجع على عمل التماثيل حتى تستقر الآلهة على الأرض . والثاني الروح الرياضية التي كانت مثلهم الأعلى فكانوا يمجدون أبطالهم برسمهم وعمل التماثيل لهم في مختلف الأوضاع الرياضية ، كما كانوا يهبون الفائزين في المباريات إلى جانب الجوائز المالية قطعاً من الفن . والثالث عشق اليونانيين للجمال الطبيعي ، ورغبتهم في تصوير الأجسام وتزيينها ، ويتضح ذلك في محاوره « هيبياس » حيث يناقش سقراط فكرة الجمال وعلى أي أساس تكون ، يريد أن يبلغ « مثال » الجمال ، أو « ماهيته » ونحن نعرف أن المثل الأفلاطونية ثلاثة هي الحق والخير والجمال ، وهي إن شئت ثلاثة في واحد ، بمعنى أن الموجود يمكن أن ننظر إليه فلسفياً من ثلاثة

جوانب إما جانب الحق أو الخير أو الجمال . ولا ريب أن الفن نافذة نطل منها على الحقيقة ؛ وما أجملها نافذة .

وكان الصانع الماهر هو الفنان ، وكان يحتاج إلى معرفة طبيعة جسم الإنسان حتى يحسن تصويره . ومن المؤلف عند نساء إسبرطة أنهن كن يضعن في بيوتهن صوراً وتمائيل لأبولون ونارسيس وغيرهما من الآلهة الجميلة حتى يلدن أطفالاً على صورة الآلهة وما فيها من جمال . ومن ها هنا نشأت فكرة النموذج أو « المثال » الأفلاطوني ، وهو مستمد من المحسوسات الجزئية ، أم هو أسى منها تحتذى المحسوسات مثالها وتنسج على منوالها . وقد قامت الحضارة اليونانية على أن الإحساس الفنى ، أو الذوق الذى يعد حاسة الجمال ، إنما ينشأ من إدمان النظر إلى الأشياء الجميلة . ولذلك أحاط اليونانيون أنفسهم بالآثار الفنية فى كل عمل وفى كل مكان ، فكانوا يراعون فى بناء البيوت والقصور تزيينها وتجميلها ، وفى الأدوات التى يستعملونها فى بيوتهم كأقداح الشراب والآنية والقوارير والآباريق والدنان أن تكون على هيئة فنية جميلة ، يتخذون مادتها من الفخار ، ويخلطون بها الألوان ، ويتخذون من الأساطير اليونانية أو النباتات والحيوانات صوراً يزینون بها تلك المزهریات والآنية بعد حرقها فى أفران خاصة .

أما التماثيل فكانوا يتخذون مادتها من الخشب يطعمونه بالعاج والذهب ، ومن البرنز ، ومن الرخام ، وكان من أشهر المثالین عندهم « فيدياس » الذى أصبح مضرب المثل إذا تحدث الناس عن المصنوعات الجميلة .

وكان الفن متغلغلا فى حياة اليونانيين من جهة أخرى هى الشعر والموسيقى والرقص . وكانت الموسيقى - واللفظة العربية أصلها يونانى Monsike - داخلة فى

كل ناحية من نواحي الحياة . فهناك ابتهالات لديونيسوس ، وترانيم للآلهة ، وأغاني النصر للأبطال ، وأناشيد تغنى على الطعام والشراب ، وأغاني للحب والزواج والحزن ، وأناشيد يتغنى بها أصحاب كل حرفة كالغزاليين والنساجين وعاصري الخمر والرعاة . وعرفوا من الآلات الموسيقية الناي والقيثارة ، وكان كل فردٍ حرٍ يتعلم الموسيقى حتى سن الثلاثين ، ومنها الموسيقى الحربية التي تحت على الحرب والقتال ، والموسيقى الدينية التي تدخل في الاحتفال بالآلهة وتنشد في المناسبات المختلفة ، والموسيقى المتصلة بالأدب والشعر بوجه خاص ، فكان الشاعر الغنائي ينظم ويلحن ويغنى بمصاحبة القيثارة . وقد عرفت التمثيليات اليونانية الأغاني الجمعية التي تنشدتها الجوقة على المسرح بمصاحبة الرقص . ويعرف أفلاطون الرقص بأنه الرغبة الفطرية في شرح الألفاظ بحركات الجسم كله . ويذهب أرسطو في كتاب الشعر إلى أن الرقص محاكاة الأعمال والأخلاق والانفعالات بواسطة أوضاع الجسم والحركات الإيقاعية .

وقد كانت صلة الشعر والموسيقى بالفلسفة وثيقة ، فهناك فلاسفة صاغوا فلسفتهم شعرا ، مثل بارمنيدس وأنبادقليس ، ولو أن أرسطو طعن على شعر أنبادقليس ونفى عنه صفة الشاعرية . وكانت الموسيقى من جملة المنهج الذي رسمه أفلاطون لطالب الفلسفة . وهذا سقراط نظم الشعر قبل وفاته حين كان في السجن ، فلما سئل في ذلك أجاب بأن هاتفا كان يحدثه على الدوام يأمره بإنشاد الشعر والموسيقى ، لأنها تبعث على دراسة الفلسفة ^(١) .

وكانت الفلسفة الإسلامية في عصر ازدهارها وفيه لهذا البدأ ، فاشتغل

المكندى بالموسيقى وألف فيها رسالة ، ، وابتدع الفارابي أصول هذا العلم حتى سمي من أجل ذلك « المعلم الثانى » لأنه وضع التعاليم الصوتية كما أن « المعلم الأول » وضع التعاليم المنطقية . وكذلك كان الحال فى ابن سينا الذى ألف كتاب الموسيقى وهو جزء من الشفاء . وتروى عن الفارابى وابن سينا قصص كثيرة عن اشتغالها بالعزف وبراعتهما فيه .

رأى أرسطو فى التجربة والفن والعلم :

[٩] يستهل أرسطو كتاب ما بعد الطبيعة بالتمييز بين الإحساس والتجربة والفن والعلم والفلسفة ، ويبدأ بقوله إن « الرغبة فى المعرفة موجودة عند جميع الناس بالفطرة ، وآية ذلك اللذة الحاصلة من الحواس فهى بصرف النظر عن نفعها تجلب لذاتها اللذة ، والبصر أعظمها لأنه سبيل معظم المعارف الإنسانية . والفرق بين الحيوان والإنسان ، أن : « الحيوان يقف عند حد التخيل والتذكر ولا يكاد يوجد عنده التجربة $\epsilon\mu\pi\epsilon\iota\rho\iota\alpha = \text{Empeiria}$ أما الإنسان فيرتفع إلى مرتبة الفن $\lambda\omicron\gamma\iota\sigma\mu\omicron\varsigma = \text{logismos}$ والاستدلال $\tau\acute{\epsilon}\chi\eta\eta = \text{techne}$ »

وتقوم التجربة فى الإنسان على أساس الذاكرة ، وينشأ عن التجربة الفن والعلم « $\acute{\epsilon}\pi\iota\sigma\tau\acute{\eta}\mu\eta = \text{epist\acute{e}me}$ » .^(١)

والفن الذى يقصده أرسطو هو التطبيق العملى القائم على المعرفة النظرية ، أو على مجرد التجربة والخبرة ، وهذا هو المقصود من اللفظة اليونانية ، وهى التى جرت فى الاصطلاح الحديث بمعنى التكنولوجيا Technology ، أى المهارة فى الصناعة .

ويضرب مثلاً للتمييز بين التجربة والفن فيقول : إن الحكم بأن هذا الدواء يشفي كاليباس وسقراط وغيرهما فرداً فرداً ثمرة التجربة ، فإذا أضفنا إلى ذلك العلم بعلة الداء وأنه المرارة أو الحمى فهذا هو الفن .

وللعلم عند أرسطو طريق آخر خلاف التجربة هو الإحساس ، الذي يعد أساس المعرفة بالجزئى ، ولكن الإحساس لا يفيد علة الشيء . وقد كان الإحساس ثم التجربة سبيل الإنسان أول الأمر إلى الكشف ، يتوهم في ذلك تحقيق المنفعة أو اللذة . ومن هنا نشأت الفنون لتحقيق هذين الغرضين . أما العلم فإنه لا يحقق منفعة ولا يشبع لذة ، ولكنه نشأ في البلاد التي يسود فيها الفراغ ؛ فكانت مصر بذلك مهد العلم الرياضى إذ كان الكهنة في فراغ ييسر لهم البحث العلمى .

أما الفلسفة فهي أعلى العلوم وأسمها منزلة لأنها تبحث عن العلل الأولى ومبادئ الموجودات .

مصادر العلم اليونانى :

[١٠] وإنما لخصت لك رأى أرسطو لأنه يمثل فكرة الفيلسوف اليونانى عن الفن والعلم والفلسفة ، وعن الفرق بينها ، وعن سمو الفلسفة على العلم ، وارتفاع العلم عن الفن ، وامتياز الفن عن التجربة ، فالجرب أعلى من صاحب المعرفة الحسية ، والفنان أسمى من الجرب ، والمهندس أرفع من البناء ، والعلوم النظرية أعلى من العلوم العملية .

وقد تحدثنا عن الفن بما فيه الكفاية ، ورأينا أن المقصود منه هو الصناعة techne ، لا الفن بالمعنى الحديث الذى يقتصر على الفن الجميل . ولا بد لنا أن

نوضح المقصود من « العلم » Episteme عند اليونانيين . إنها تدل على المعرفة إطلاقاً سواء أكانت مستمدة من الحواس أم من العقل ومبادئه . ولكن العلم في الاصطلاح الحديث Science يدل على البحث المنظم في الظواهر للوصول إلى كشف القوانين . أو هو مجموعة المعارف والبحوث التي تتصف بالوحدة والعموم وتؤدي إلى نتائج متناسقة ، ولا تقوم على تحكم الفرد أو ذوقه أو مصلحته ، بل على العلاقات الموضوعية بين الأشياء ، مما يكشفه العلماء شيئاً فشيئاً ويثبتون صحته بالمناهج العلمية المعروفة . وتختلف هذه النظرة الحديثة إلى العلم عن العلم الذي بدأ بطاليس وازدهر على يد أرسطو واستمر طوال العصر الوسيط . ولذلك يجب أن نجعل في بالنا دائماً هذا الاختلاف عندما نتحدث عن العلم اليوناني فلا نخضعه للنظرة الحديثة .

وقد درج المؤرخون في القرن التاسع عشر على القول بأن الفلسفة اليونانية بدأت بالمدرسة الأيونية وعلى رأسها طاليس صاحب المدرسة العلمية الطبيعية ، فحقق بذلك « معجزة » كبرى ، لأنه ابتكر العلم ابتكاراً ولم يسبقه إليه أحد . غير أن المؤرخين في القرن العشرين بدءوا يغيرون من حكمهم السابق ، وبخاصة بعد ظهور اكتشافات في مصر وبابل ، وبعدها فكل طلاس وأوراق البردي التي عثروا عليها . ولم يكن علماء القرن العشرين في حاجة إلى مثل هذه الوثائق ، بعد أن شهد شاهد من اليونانيين ، وهو المعلم الأول ، الذي نقلنا رأيه الذي دونه في صدر كتاب ما بعد الطبيعة ، وفيه يعزو العلم الرياضي إلى المصريين . هذا إلى أنه من المعروف أن كثيراً من فلاسفة اليونانيين تلقوا العلم في مصر ومنهم طاليس وفيثاغورس وأفلاطون ، ولو أن الأدلة التاريخية ليست صريحة في ذلك . حقا قدنا الأدلة التي تثبت صلة اليونان ببابل ومصر ولسكننا لا نملك الجزم

بإتقطاع الحضارات الثلاث ، على العكس من ذلك اتصالها هو الأقرب إلى العقول ،
بل هو المؤكد .

وقد ظهرت في العالم القديم ثلاثة علوم هي ثمرة الحاجة والبيئة الجغرافية والاجتماعية ،
وهذه العلوم هي الفلك والطب والرياضة بفرعها الحساب والهندسة . أما الطب فكانت
الحاجة إليه علاج الأبدان السقيمة ، وعرفت مصر الجراحة والتشريح كما يتضح
من أوراق البردي التي درسها الأستاذ أدوين سميث Edwin Smith وتعرف
الأوراق باسمه فيقال « بردي سميث » ، ونجد فيها تشريح الجمجمة والأنف والفك
والأذن وعظام الكتف مع بيان الإصابات والأعراض والعلاجات لكل حالة
من الحالات التي تفحص بطريقة منظمة . ويبدو أن الطبيب الذي كتب هذه الورقة
البردية لم يكن مجرد باعق بل حكما أيضا ، تبرز كتاباته كتابات أبقرات . مثال ذلك
أنه ينصح المريض بالصبر اعتمادا على قوة الطبيعة في مقاومة المرض ، وينصح الطبيب
أن ينتظر في إجراء العملية الجراحية حتى يبلغ المريض حالة معينة ، مما يذكرنا بأبقرات .
مع العلم أن بردية سميث يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وأن
أبقرات عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ، أي بعد ذلك التاريخ بألف وثلثمائة عام .
ويصف فارتجتون^(١) طب المصريين بأنه يخلو تماما من السحر ، وأنه مكتوب بروح
وضعية ، وأنه ثمرة ملاحظات طويلة اجتمعت على مر السنين مع التأمل والتفكير .
ولم تكن الحال كذلك في طب البابليين الذين خلطوا هذا العلم بالدين وذهبوا
إلى أن الأمراض من غضب الآلهة ، ووضعوا العلاج الذي يجلب رضاها .^(٢)
غير أن البابليين برزوا في علم الفلك واشتهروا بأنهم أول من اهتموا إلى رصد

(1) Farrington : Science in Antiquity — p'9. (1936)

(2) Sarton : Ancient Science through the Golden Age
of Greece, 1953, p 90 .

السكواكب في سيرها وانحرافها وانتظام حركاتها أو اختلالها . وهم الذين قسموا السنة اثني عشر شهرا ، في كل منها ثلاثون يوما ، فكانت السنة ٣٦٠ يوما . ولذلك كانوا يضيفون كل ست سنوات شهرا فتصبح السنة ثلاثة عشر شهرا . وعرفوا كذلك الكسوف والخسوف ، لما كان لذلك من أثر بوجه خاص على مصير الملوك ومستقبل الدولة . وأكبر الظن أن طاليس حين تنبأ بالكسوف الذي سوف تحدث عنه إنما استمد العلم به من البابليين . ويذهب فارجنتون إلى أن أرساد البابليين التي أجروها سنوات طويلة متعاقبة كانت دقيقة وأصبحت مادة لعلم الفلك فيما بعد .

أما المصريون فقد جعلوا السنة ٣٦٥ يوما ، وأضافوا إليها خمسة أيام سموها الأيام السماوية أو المقدسة يحتفلون بها ويحفلونها أعيادا . ولما تبين لهم أن السنة تزيد بمقدار ربع يوم على الأيام البسيطة ال ٣٦٥ فقد أضافوا سنة كل ١٤٦٠ سنة . وقد عرفوا سر ذلك الانحراف من رصد نجم المعروف بالشعري ، وهو النجم الذي يتفق ظهوره مع فيضان النيل . ذلك أنه عند الانقلاب الشمسي في الصيف تظهر الشعري لأول مرة قبل شروق الشمس في الأفق من جهة الشرق .

وقد برز المصريون والبابليون في العلم الرياضي ، وآية ذلك بناء الأهرامات التي تدل على معرفة واسعة بالهندسة . وقد وصف العلماء المحدثون رياضة المصريين من أوراق البردي المعروفة باسم Rhind ومنها يتضح أنهم عرفوا الحساب وعلم العدد والجمع والطرح والضرب والقسمة ، ولكنهم كانوا يحرون عمليات الضرب على أسامن الجمع ، والقسمة على أساس الطرح ، وعرفوا كثيرا من خواص الأعداد ، والكسور ، ومساحة الدائرة .

ونحسب أنه من التجنى الحكم على العلم الرياضى عند المصريين ببضعة أوراق عثروا عليها ، وهى لا تكفى بأى حال فى تكوين صورة صادقة عن علمهم ، حتى يقول برتراند رسل عنهم : « إن ما عرفه المصريون من الرياضة كان فى أساسه قواعد للعد على الأصابع » ^(١) ، بعد أن شهد لهم أرسطو ، وتعلم على أيديهم فيثاغورس وطاليس وأفلاطون .

نشأة العلم الإلهى :

[١١] بقى أن نتحدث عن الدين باعتبار أنه الأصل الثالث الذى نبعت منه الفلسفة اليونانية بعد أن تكلمنا بوجه عام عن الفن وعن العلم .

فقد شغل الدين بال فلاسفة جميعا ، وتأثروا به على أنحاء مختلفة ، وكان لهم فيه آثار تمثل فى ذلك الصراع الذى نشأ بين الدين والفلسفة منذ عصر الفلسفة اليونانية ولا يزال مستمرا . وإذ آية ذلك الصراع اتهام سقراط بإنكار آلهة اليونان والحكم عليه بالإعدام . وقد انتهت الفلسفة اليونانية بتصور جديد للدين سمي منذ عهد أفلاطون باسم الأثولوجيا $\theta eologia = \text{theologia}$ علم الدين ، أو النظر العقلى إلى الدين ، من لفظة ثيوس أى إله ، إولوجوس أى علم ، وذلك فى الجمهورية حيث أراد أفلاطون أن ينشئ بعض القواعد الفلسفية للشعر تصحح ما جاء على لسان هوميروس وهزيبود بوجه خاص والشعراء بوجه عام ، وتستبدل

(1) Bertrand Russell : History of Western Philosophy
p. 25. New york 1945. Second printing

بالحقائق الفلسفية ما كان يراه الشعراء من تصورات عن الآلهة .
فقد كانت آلهة اليونان كما تخيلها الشعراء متصفة بسائر صفات
البشر وما فيهم من ضعف ، مما لا يتفق مع فكرة سقراط وأفلاطون
عن الله .

وقد أحسن القديس أوغسطين في كتابه « مدينة الله » . De Civitate Dei
حين عرض لتاريخ الدين عند الإغريق ويميز فيه ثلاثة أنواع : الدين الأسطوري
Mythicon ، والدين السياسي politicon ، والدين الطبيعي physicon .
وقد أخذ أوغسطين هذا التقسيم عن مؤلف سابق هو ترنتيوس فارو
Terentius Varo ، عاش في روما [١١٦ - ٢٧ ق . م] وألف كتاباً في
الأمور الإلهية ، وأراد أن يوفق فيه بين عبادة الرومان للآلهة المتعددة وبين
الأنثولوجيا التي قال بها أفلاطون وأرسطو والرواقيون ، وقد جعل أرسطو العلم
الإلهي أو الأنثولوجيا مرادفاً للفلسفة الأولى لأن البحث في هذا العلم هو أشرف
مباحث الميتافيزيقا .

ويبدأ الدين الطبيعي في الظهور مع ظهور الفلاسفة وعلى رأسهم طاليس ،
وكان نظرهم معارضاً للدين الأسطوري ومعتمداً عليه ومعدلاً إياه من جهة ، وللدين
السياسي وما فيه من عبادات وأعياد من جهة أخرى .

وسوف نتحدث عن هذا الدين الطبيعي عند الكلام عن مذهب كل فيلسوف
على حدة ، فقد كان ذلك الصراع بين الفلسفة والدين مظهرًا من مظاهر
الفكر اليوناني امتدت آثاره إلى حياة الفلاسفة أنفسهم ، حتى لقد أعدم

سقراط وهرب أرسطو من أثينا بنهم وجهت إليهما كما وجهت إلى غيرهما باسم الدين^(١) .

[١٢] كانت لليونانيين أعياد عامة أهمها ثلاثة ، عيد زيوس ، وعيد ديمتر ، وعيد ديونيسوس . ويسمى عيد زيوس ، وهو إله الآلهة عندهم ، دياسيا Diasia ، وكانت أهم الأعياد الثلاثة ، حيث يضحي الناس من أجل زيوس وغيره من الآلهة أيضا ، وذلك في صورة وليمة يتناول الإله جزءا منها ، ويأكل الناس الباقي ، للدلالة على المودة بين البشر والآلهة إذا اشتركوا في تناول الطعام . وإلى جانب ذلك كان الناس يذبحون ذبيحة يقدمونها خالصة للآلهة ولا يأكلون منها شيئا ، بل يحرقون جثتها ويذرون رمادها حتى لا يشارك إنسان في أكلها . والغرض من هذا الضرب من التضحية ترضيه الآلهة حتى لا تنزل غضبها في صور الإيذاء والشر .

أما العيد الثاني فهو عيد الإله ديمتر Demeter وابنته كورى Korê ويعرف بعيد الخصب أو التنازل ، ويسمى ثسموفوريا Thesmophoria ومن طقوسه أن يحمل النساء بعض التعاويذ السحرية وأشياء أخرى تجلب الخصب وتحقق النسل .

ويختص العيد الثالث بالإله ديونيسوس Dionysus ، إله الخمر ، حيث تفتح

(١) ليس غرضنا البحث في الديانة الإغريقية لذاتها ، بل من جهة صلتها بالفلسفة اليونانية وآثارها فيها ولهذا السبب آثرنا القصة التي أوردناها . ويذهب بعض المحدثين إلى أنواع أخرى من التقسيم ، وذلك بالنظر إلى رقي الديانة وتطورها ، مثال ذلك ما فعله جلبرت موراي في كتابه « خمس مراحل للديانة الإغريقية » الأولى ديانة السماء ، ثم آلهة أوليمب ونزول الآلهة إلى الأرض ، وثالثها ديانة الفلاسفة في المدارس اليونانية ، ورابعها حالة الدين عند الأيقوريين والرواقيين ، وخامسها الصراع بين الديانة اليونانية وبين اليهودية والمسيحية في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد .

دفنان الخمر فتخرج منها أرواح الموتى إلى الفضاء . ثم تدعى أرواح الموتى من القبور ، ويستقبل كل شخص أرواح موتاه في منزله ، ويحتفل وإياها بهذا العيد ، حتى إذا هدأت استقرت مرة ثانية في أما كنها ، وأصبحت الدور والشوارع نظيفة من الموتى . ويذهب بعض العلماء في تفسير هذه الطقوس إلى القول بأن نمو المحاصيل الجديدة ، وولادة الأبناء ونموهم ليس إلا عودة الأرواح القديمة إلى الأرض ، فينبغى تطهيرها من الأدناس حتى تعود صافية نقية .

هذه الأعياد كانت قديمة قبل أن تسود الآلهة الأولمبية ، وظلت متوارثة دون أن يعرف الناس السر في أصلها القديم . وتفرعت عنها أعياد أخرى في المدن اليونانية ، واستمرت شائعة حتى العصور المتأخرة ، وكان بعضها يعد من الأسرار التي يحتفظ بها الكهنة .

أما الكهنة فكان عددهم كبيراً ، تعينهم الدولة ، وهم الذين يقومون بالوظائف الدينية في الأعياد المختلفة ، ويرتبون مراسمها من تضحية وموسيقى وأشعار وترانيم وغير ذلك . وكانوا يكسبون من ذلك مالا وجاها ، ويؤمن الشعب بما يعلمهم الكهنة إيماناً لا شك فيه . ونحن نجد صورة هذه العقائد في محاوراة أوطيفرون ، حيث يلتقي بسقراط في المحكمة يريد أن يرفع الدعوى على أبيه بتهمة الفجور ، والخروج على طاعة الآلهة . ويضيق سقراط على أوطيفرون الخناق في المحاوراة ، حتى يعترف في النهاية بأن الإحاطة بالأمور الإلهية من الصعوبة بمكان ، ولكن التقوى هي أن يسر الإنسان الآلهة بالصلاة وتقديم الضحايا ، وفي ذلك نجاة الأسر والدول ، كما أن إغضب الآلهة يؤدي إلى إيقاع الشر بالناس والمدن وإلى هلاكهم .

غير أن سقراط الذي حمل لواء الثورة على الدين كما نجده مصوراً في أشعار

هوميروس وهز يود ، نجده يحمل الود العظيم لنحلة أخرى وفدت على اليونان من الشرق ،
وفاحت منها رائحة الزهد والتصوف ، هي النحلة الأورفية .

هوميروس والإلياذة :

[١٣] واختلف المحدثون في شخصية هوميروس ، أوجد حقا أم كان شخصا
خرافيا . ولم يعن اليونانيون بمثل هذا البحث ، فقد كان هوميروس بالنسبة لهم شاعر
الأمة ومعلمها ولسانها الناطق . وهو صاحب الإلياذة والأودسا . وكانت الإلياذة عند
الإغريق أشبه بالإنجيل عند المسيحيين ، والقرآن عند المسلمين . قلائينيون كانوا
يحفظون الإلياذة عن ظهر قلب في صباهم ، فتكون بذلك أساس تعلم اللغة والشعر .
وهى إلى ذلك سجل تاريخى يعرفون منها حضارة أجدادهم في ذلك العصر الذى يسميه
المؤرخون العصر الهوميرى ، والذى يقع بين القرن الثانى عشر والقرن العاشر قبل
الميلاد . وتعد حرب طروادة أخطر حوادثه ، وقد استمرت الحرب عشر سنين ، وظل
المحدثون فى ريب من صحتها التاريخية ، وظنوا أنها من خيال الشعراء حتى أثبتت
الحفائر الأخيرة التى بدأها « شليمان » عام ١٨٦٨ وجود أسوار طروادة وكثيرا من
مخلفات الحضارة الميسينية الدالة عليها . وإذا كانت سبب الحرب كما يصورها هوميروس
هى اختطاف « باريس » أجمل النساء وهى « هيلانة » زوجة ملك إسبرطة ، فهب
أجمنون^(١) ملك مسينا وشقيق ملك إسبرطة يستنفر المدن اليونانية وملوكها لحرب
طروادة واسترجاع هيلانة ، نقول إن السبب الحقيقى فى الواقع هو النزاع على السلطان
بين الغرب والشرق . فلم تنقطع الحروب والغزوات بين اليونان وجيرانها فى الشرق

(١) تروى الأسطورة أن أجمنون هو ابن أتريوس ، ابن يلويس الذى تنسب إليه شبه
جزيرة البلوبونيز ، ابن طنطالس ملك قرجيا ، ابن زيوس إله الآلهة .

القريب في آسيا الصغرى ، بل لقد امتدت الحرب إلى الفرس ، واتخذ الصراع صوراً شتى في خلال التاريخ بين الفرس والروم .

وكما كانت الإلياذة ديوان الشعر وذخيرة اللغة وأصل التاريخ ، كانت كذلك المثل الأعلى الذى يستمد منه الشعب أخلاقه كالنبيل والفضيلة وآداب السلوك والشجاعة والعفة والتقوى وغير ذلك مما ساد الشعب اليونانى حتى القرن الرابع ، عند ما ظهر أفلاطون فانتقد الأخلاق الهومرية ممثلة في أشعاره نقداً شديداً في الجمهورية ، حيث يقول : «إننا نعجب بهوميروس ولكننا لا نعجب من الرؤيا الكاذبة التى أظهر أجاممنون عليها في المنام ، فهذه أشعار تثير العواطف نحو الآلهة وتبعث على الغضب ولا ينبغى أن نسمح للمعلمين في الدولة أن يلقنوها حراس المدينة^(١) .

غير أن أخطر ما في الأشعار الهومرية من أثر فلسفى هو فكرة القضاء والقدر وفكرة الضرورة ، وقد تسربت الفكرتان جميعاً إلى فلاسفة اليونان ، وأخذوا بهما في تفسير الموجودات الطبيعية والأعمال الإنسانية . وليس التفسير الطبيعى الذى يرد الكائنات إلى صورة ثابتة لا تتغير ، كالبذرة التى تنمو فتصبح شجرة هى هى بعينها إلا تطبيقاً لفكرة الضرورة التى تخضع لها حياة الآلهة والبشر جميعاً في أقاصيص هوميروس . وعلى الرغم من أن فكرة القضاء والقدر ، أو الجبر ، هى المسيطرة في أقاصيص هوميروس عن الأبطال إلا أن الإنسان يستطيع مع ذلك أن يفكر لنفسه وأن يختار طريقه في السلوك ، وأن يصنع حياته على حسب ما يهوى . آية ذلك ما نقله «أخيل» حين غضب وترك جيش أجمنون . لهذا السبب يرى كثير من المؤرخين أن الإلياذة قد صورت الإنسان بطلاً من الأبطال ، وأنها قللت من شأن الآلهة حتى أصبح موقفها أشبه بشخصيات الشعراء وليست أرباباً يقدمها البشر ويعبدونها . فكان ذلك التصور اللائدىنى للآلهة بداية للحركة العلمية التى نشأت في القرن السادس .

[١٤] ولم تبلغ شهرة هزيود ما بلغه هوميروس . وقد اختلف المؤرخون في حياته ، قيل إنه ولد سنة ٨٤٦ وتوفي ٧٧٧ ، وقيل بل في سنة ٦٥٠ ، والأرجح أنه عاش في القرن الثامن بعد هوميروس . ولد هزيود في غرب آسيا الصغرى ، ورحل مع أبيه إلى اليونان ، واستقر في مدينة أسكرا من أعمال بوتيا . وكانت الأسرة فقيرة يشغل أفرادها بالزراعة والرعى ، وأخذ هزيود ينشد الشعر وهو يرعى قطعان الغنم في سفوح جبل هليكون ، فنبغ في النظم ونال عدة جوائز على قصائده ، وأشهرها « أنساب الآلهة » و « الأعمال والأيام » .

يصور هزيود في قصيدته « أنساب الآلهة » قصة الآلهة الذين يعيشون فوق جبل أوليمبوس ، وانتساب بعضها إلى بعضها الآخر . ففي الأصل كان العماء Chaos الذي أنجب الظلام والليل ، ثم أنجب هذان الأثير والنهار ، ثم كانت بعد ذلك الأرض مقر جميع الآلهة التي تعيش إما على ظهرها وإما في باطنها . وأنجبت الأرض الجبال والسماء ، وتزوجت الأرض السماء فنشأ عنهما المحيط ، وأبناء من الجبابرة هم التيتان . وتمضى القصة فتحدثنا أن الأرض أوعزت إلى التيتان أن يقتلوا أباهم السماء ، واستطاع كرونوس بمساعدة أمه الأرض التي أخفته في كمين أن ينفذ ذلك ، واستولى التيتان على جبل أوليمبوس ، وأنزلوا السماء من العرش ورفعوا عليه كرونوس . ثم تزوج كرونوس أخته ريا ، وتنبأت الأرض والسماء بأن أحد أبنائه يقتله ، فابتلع كرونوس جميع أبنائه حتى يتفادى القضاء والقدر ، ولكن زيوس ولد سرا في جزيرة كريت ، حتى إذا شب زيوس خلع كرونوس من على العرش ، وأرغمه على إخراج أبنائه من بطنه وأعاد التيتان إلى باطن الأرض .

ثم يحدثنا هزيبود في قصيدة الأعمال والآيام عن البشر وكيف يجب أن يعملوا مع الشرف والسكدر والعفة وسائر الفضائل . وقد مر الجنس البشرى بأربعة أدوار ، العصر الذهبى حين كان الإنسان سعيدا لا يشقى ويعيش كالآلهة ، ثم العصر الفضى ، ثم النحاسى ، ثم الحديدى . وحين يشير أفلاطون^(١) فى محاوره القوانين إلى الخيط الذهبى الذى يقود الإنسان إلى الخير ، إنما يستعير الفكرة من تلك القصيدة .

ونستخلص من هذا التصوير للآلهة أنها شبيهة بالبشر كل الشبه ، فهى تتزاوج وتتناسل ، وتسخط وترضى ، وتحب وتبغض ، وتتهادن وتمحارب ، وكل ما يمتاز به عن البشر هو الخلود ، أما الإنسان فيتصف بالفناء . وقد سرت فكرة الخلود من الأساطير اليونانية إلى الفلسفة وظلت تسيطر على الفكر البشرى حتى اليوم . ولا غرابة أن نجد أرسطو يصف العقل فى الإنسان بأنه خالد .

أورفيوس والنحلة الأورفية :

[١٥] وإذا كان هوميروس وهزيبود إغريقين يصوران فى أشعارهما الروح الإغريقية الخالصة ، فإن أورفيوس^(٢) صاحب النحلة الأورفية أجنبى لأنه من تراقيا ، فضلا عن أنه رحل إلى الشرق وتأثر بدياناتهم وما عندهم من صوفية وأسرار مما كان غربيا على الشعب اليونانى . وكان أورفيوس شاعرا وموسيقيا وواعظا دينيا ، تروى الأقاصيص القديمة أنه كان مغنيا صاحب صوت جميل تنقاد إلى أنغامه وموسيقاه جميع الكائنات كأنها واقعة تحت تأثير السحر ، ويستطيع استئناس الوحوش الضارية فى هذا العالم والقوى الخفية فى العالم الآخر . وهو إلى ذلك المعلم والنبي الذى يعرف

(١) القوانين ٦٤٤ .

(٢) انظر فى عالم الفلسفة تأليف أحمد لؤى الاخوانى ، ص ٧ — ١٨ عن أورفيوس والنحلة الأورفية .

الأسرار ويفسرها مثل أصل الآلهة وطبيعتها ، والطريق الذى ينبغى على الناس سلوكه فى الدنيا والآخرة ، والقواعد التى تجرى عليها النفس لتبلغ مقرها الصحيح . وكان يعلم تلاميذه رقى وتعاويز تقيهم الشر والسوء ، وقد أشار أفلاطون وأرسطو إلى هذه الجماعة التى كانت لا تزال موجودة فى القرن الرابع تراول هذا الضرب من العلاج .

وكانت النحلة سرية ، لا يعرف على وجه التحديد نشأتها، ولكنها كانت موجودة فى القرن السادس ، والعللة فى بقائها سرية ترجع إلى أصولها الأسبوية الغريبة عن دين أهل البلاد . ويشير سقراط فى محاوره فيدون إلى مذهبهم ، فيقول : « هناك مذهب جرت به الألسنة فى الخفاء بأن الإنسان سجين ، وليس له الحق فى أن يفتح باب سجنه ليفر هاربا ... » ^(١) ويقول بعد قليل فى المحاوره نفسها : « وإنى لأتصور أن أولئك الذين أنشأوا الأسرار لم يكونوا مجرد عابثين ... » ^(٢) فلم يكن من الغريب بعد ذلك أن يصف برتراند رسل فلسفة سقراط ومذهب أفلاطون بأنهما متأثران أشد التأثير بالأورفية ، وأن أفلاطون بوجه خاص يلبس مسوح تلك النحلة .

ويتلخص مذهب أورفيوس فى أصل العالم وخلق الكون وحقيقة الإنسان ، بأن المبدأ الأول هو الزمان ، ونشأت مع الزمان الضرورة ، وهى قانون القضاء والقدر الذى يسيطر على الكون بأسره ويضم أطرافه . ثم أنجب الزمان الأثير والماء والظلام . ثم يشكل الزمان بيضة فى الأثير ، ولما تفتحت البيضة خرج منها « فانس » أو النور ، وقيل إن البيضة انفلقت نصفين صار أحدهما السماء والآخر الأرض . أما النور فهو أول ما أنجبت الآلهة ، وهو خالق هذا الكون وجميع ما فيه من كائنات . ومن أسمائه زيوس ، وديونيسوس (الخمر) وإيروس (الحب) ، وبان (التناسل) ، وميتيس (العقل) .

وأنجب النور ابنة هي الليل ، انصل بها فتكونت منهما الأرض والسماء ، وتزوجت الأرض السماء ، فأعقبا ثلاث بنات وستة بنين . ولما علم أورانوس (السماء) أن أبناءه سوف يقضون عليه ألقى بهم في نهر تارتاروس . وغضبت الأرض فأنجبت التيتان وهم مرده جبابرة ، وكرونوس ، وريا ، وأوقيانوس ، وتيثس . وتغلب كرونوس على أبيه أورانوس فصرعه ، وتزوج اخته ريا ، فلما أنجبا ابتلع كرونوس أبناءه ، غير أن ريا ساعدت زيوس على النجاة وأرسلته إلى كريت ، حتى إذا بلغ أشده ابتلع النور فأخذ عنه القوة ، وأصبح البدء والوسط والنهاية لكل شيء .

ثم شرع زيوس يرتب أمور العالم ، فتزوج ريا التي أصبحت « ديمتر » ، وأنجبا « برسيفوني » التي اغتصبها زيوس فحملت منه إديونيسوس . واستطاع التيتان أن ينزعوا الطفل من حراسه الأشداء ، ثم مزقوه وأكلوا لحمه . ولما علم زيوس بذلك سلط على التيتان الرعد والبرق فأبادهم ، وأعاد ديونيسوس إلى الحياة ، وأصبح ديونيسوس إله الأورفية .

وجمع زيوس رماد التيتان وخلق منه الإنسان فأصبح مركبا من طبيعتين طبيعة الإنم والشر التي ورثها عن التيتان ، والطبيعة الإلهية التي أخذها عن ديونيسوس الذي أكل التيتان لحمه .

وقد أصبحت نظرية النفس كما تصورها النحلة الأورفية سائدة عند كثير من الفلاسفة منذ اليونان حتى اليوم . فالنفس متميزة عن البدن الذي يعد سجنا أو قبرا لها ، ووجود النفس في البدن عقوبة لها لتلك الخطيئة الأولى التي ارتكبتها الجنس البشري إذ أكل التيتان لحم ديونيسوس ، وقد نشأ الإنسان من التيتان كما رأينا .

ولما كان وجود النفس في البدن تنفيذاً لعقوبة قديمة ، فليس الانتحار مشروعاً ،
وهي الحجة نفسها التي يسوقها سقراط في محاوره فيدون ، إذ يجب أن تظل النفس
في رقة البدن حتى تستكمل العقوبة المفروضة .

ويجب على النفس وهي في حبة الجسم على وجه الأرض أن تتبع قواعد معينة
من الطعام والشراب ، وأن تخضع لعبادات خاصة تعد من الأسرار الخفية إلا عن
الأتباع والمريدين . فإذا تطهرت النفس بأنواع العبادات وألوان الزهد بلغت السعادة
الدائمة في حبة الآلهة . أما إذا تدنس واتبعت حياة الفسق والفجور تناسخت .
فلا غرابة أن يكون فيثاغورس قد تأثر بمذهبهم في النفس والتناسخ ، وتأثر سقراط
وأفلاطون بعتيقتهم كما ذكرنا .

الكتب الفلسفية :

[١٦] أم ما تمتاز به الحضارة بوجه الإطلاق الكتابة ، وهى عبارة عن رموز اصطلاحية تدون الكلام الذى ينطق به المرء ويعبر به عن فكره ، ويستطيع بذلك أن يتفاهم مع غيره من الناس . فلما توصل الإنسان إلى تقييد الألفاظ المسموعة فى أشكال وصور يرسمها ليدل بها على الحروف والكلمات ، لم يستطع أن ينقل فكره فى الحاضر فقط ، بل أن يسجله على الزمان ، ليطلع عليه من يشاء فى المستقبل .

وتمتاز الحضارة اليونانية بأنها اكتشفت نوعاً من الحروف الأبجدية يخترل الكتابة اخترالاً شديداً ، على عكس قدماء المصريين فى كتابتهم الهيروغليفية . وأصبح من اليسور لعلماء الإغريق وفلاسفتهم أن يؤلفوا الكتب يودعون فيها أفكارهم ويحفظونها لمن يأتى من بعدهم ، ويبيحونها لمن يريد التزود من المعرفة . فقد كان العلم على خلاف البلاد الأخرى مباحاً ، وهذا سر من أسرار تقدم الفلسفة اليونانية .

وقد بدأ التدوين فى هيئة كتب فى القرن السادس ، واشتد فى القرن الخامس ثم الرابع ، وأصبح بعد ذلك سنة مألوفة . ومع ذلك فهناك فلاسفة حرّموا على أنفسهم تدوين الحكمة لأنها أرفع من أن تقيّد على الأوراق ، ولأنها أبدأ فى تطور وتطلع إلى الكمال . ولم يدون فيثاغورس فلسفته ، ولا طاليس ولا سقراط ، بل إن

أفلاطون لم يكن يعد المحاورات التي كتبها تعبيراً عن فلسفته وإنما هي للتسلية ،
أما فلسفته الحقّة فكان يلقّيها دروساً في الأكاديمية ويتلقّاها عنه تلاميذه
سماعاً .

ولكن معظم فلاسفة الإغريق كانوا يؤلفون الكتب ، وكانت تلك
الكتب متداولة بين الطبقة المثقفة في زمانهم . وما يروى في ذلك أن فيلولاوس
الذي كان من أتباع الفيثاغوريين كان أول من ألف كتاباً عن مذهبهم ، فأذاع
بذلك فلسفتهم التي ظلت سرّاً حول قرن من الزمان . ويقال إنه فعل ذلك لحاجته
إلى المال ، وإن أفلاطون اشترى نسخته من أقربائه بمبلغ كبير من المال ، وإنه استقى
نظريته التي أودعها محاوره طليماوس من ذلك الكتاب .

ويقال كذلك إن أنكساجوراس كتب كتاباً واحداً جيد التّأليف حسن
الأسلوب ، وإنه أذاعه في الناس بثمان زهيد جداً ، حتى لقد كان يباع في ملاعب
أثينا بدراخمة واحدة ، وذلك في أواخر القرن الخامس ، وإن الجمهور كان يعرف جميع
ما جاء فيه لسهولة .

ثم عني الحُكام باقتناء الكتب ، وهي مخطوطة بطبيعية الحال ، وحفظها في
مكتبات عامة أو خاصة . ويقال إن بسستراتوس حاكم أثينا ، وبوليقراطس طاغية
ساموس ، كانا أول من اقتنى دوراً للكتب في أواخر القرن السادس . وأصبحت
تجارة الكتب في أثينا خلال القرن الخامس شديدة الرواج . واحتفظت جميع المدارس
الفلسفية الكبرى ، مثل أكاديمية أفلاطون ، ومدرسة أرسطو بمجموعات كبيرة
من الكتب . وأنشأ بطليموس مكتبة مشهورة في الإسكندرية في القرن الثالث
قبل الميلاد ، ويروى التاريخ قصة حريقها . وكانت تنافسها في برجام من أعمال

آسيا الصغرى مكتبة أخرى كبيرة . وظلت المكتبات تُنشأ في المدن الجديدة مثل روما في الغرب وأنطاكية في الشرق كلما ظهرت الحضارة في مدينة من المدن، فتعددت بذلك النسخ المخطوطة وتكاثرت ، وما بقي لدينا اليوم من تلك المخطوطات إنما هو التراث الذي حفظه لنا التاريخ على مر الزمان .

فأول مصدر نعتمد عليه في معرفة مذاهب القدماء من الفلاسفة هو الرجوع إلى كتبهم نفسها التي سطوروا فيها آراءهم . والأمر في أولئك الذين لا تزال كتبهم باقية بين أيدينا سهل يسير ، فليس علينا إلا أن ننظر فيها ، كالحال في محاورات أفلاطون أو كتب أرسطو .

الكشف عن نصوص القدماء :

[١٧] ولكن المشكلة التي تواجه المؤرخ هي معرفة فلسفة أولئك الذين فقدت آثارهم ، وضاعت مؤلفاتهم ، أو أولئك الذين لم يدونوا في زمانهم . ومن أجل ذلك كان لا بد لنا أن نحل مشكلة المصادر في الفلسفة اليونانية قبل أن نمضي في التاريخ لها .

وقد عني القدماء في العصور المختلفة التي جاءت بعد عصر ازدهار الفلسفة اليونانية بعرض آرائهم ، لحفظ المتأخرون بما جمعوه كثيرا من تلك المذاهب المفقودة . وعوّّل العرب على هؤلاء المتأخرين فنقلوا الفلسفة ، وبخاصة ما اتصلت بالفلسفة قبل سقراط ، مشوهة ، ونسبوا إلى بعضهم ما لم يصدر عنه بأي حال . بل لقد نسبوا إلى أرسطو كتابا يتعارض مع فلسفته كل التعارض وهو « الأثنولوجيا » مع أنه ترجمة لـبعض تاسوعات أفلوطين . ولم يُعنّ للعرب بالبحث في مشكلة الانتحال بحثا علميا

منتظما ، ولا كذلك فلاسفة الأوربيين في العصر الوسيط ، حتى كان عصر النهضة ، وظهرت اتجاهات جديدة ابتداء من القرن السادس عشر تطالب بالعودة إلى القديم والنظر في الأصول اليونانية ذاتها ، حتى نضجت وأثمرت في القرن التاسع عشر على يد الأستاذ هرمان ديلز Diels ، فنشر نصوص فلاسفة الإغريق في كتابين ، أولهما عام ١٨٧٩ ، بعنوان « آراء الإغريق Doxographi graeci » وفي عام ١٩٠٣ بعنوان « ما قبل سقراط Vorsokratiker » . وعنى كذلك أوسنر Usener سنة ١٨٨٧ بنشر مصادر الفلسفة الأبيقورية ، كما ألقي بول تانري Tannery الضوء على تاريخ الهندسة عند الإغريق .

والمنهج الذى اتبعه ديلز هو تتبع النصوص الواردة عند مختلف المؤرخين واستخلاصها ونسبتها إلى صاحبها ، وقد تيسر له من ذلك أن يعرف أن المتأخرين كانوا ينقلون عن المتقدمين واحداً بعد الآخر ، حتى يبلغ المصدر الأول ، وهو فى الغالب ثاوفراسطس أول رئيس للمدرسة بعد أرسطو .

أنواع المصادر : المدارس الفلسفية .

[١٨] يقسم « تسار^(١) » كتابات قدماء المؤرخين ثلاثة أقسام على النحو الآتى : كتابات تختص « بالآراء » doxographical ، وأخرى تختص بالسيرة وأخبار الفلاسفة biographical ، وثالثة تستمد من المدارس الفلسفية . وهو يحمل فى القسم الأول ثاوفراسطس ، وبوزيدونيوس الرواقى ، وأيتيوس ، وستوبايوس . وفى القسم الثانى أرسطكسينوس ، وفلاسفة مدرسة الإسكندرية ، وديوجينيس

(1) Zeller: Outlines of the History of Greek Philosophy, 19. 1, p 5.

لايرتوس ، وهرميبوس ، وفريريوس الصورى ، ويامبليخوس . وفى القسم الثالث كليتوماخوس من الأكاديمية ، وأريوس الرواقى ، وسوتيون الإسكندرى ، ثم فيلوديموس وديقلوس الذى أخذ عنه دبوجين لايرتوس .

وقد عرض برنت Burnet بشكل أوسع لمشكلة المصادر فى كتابه عن فجر الفلسفة الإغريقية Early Greek philosophy ، فبدأ بالفلاسفة الذين يعدون مؤرخين لمن قبلهم ، مثل أفلاطون الذى يشير فى بعض الأحيان إلى السابقين فيجلو آراءهم بروح المؤرخ الصادق ، مع أنه قد يتبع أسلوب النهم والسخرية .

ومن الغريب أن « برنت » يعد أرسطو فيما قرره عن قدماء الفلاسفة أقل من الناحية التاريخية من أفلاطون ، لأن الملم الأول يناقش المسائل من خلال مذهبه هو ، مما جعله يقلل من شأن بعض تلك الآراء العلمية القديمة . كما أنه كثيرا ما يميل إلى مذهب ويقدم فى آخر ، ومن الواضح أنه لم يعدل فى حكمه على الفلسفة الإبلية .

وفى هذا الحكم كثير من التحامل على أرسطو . الواقع أن أرسطو كما يعد فيلسوفا صاحب مذهب خاص ، يعد كذلك مؤرخا لفلسفة القدماء ، فهو يسلك فى كل موضوع يكتب فيه منهجا تاريخيا فيتبع جميع الآراء التى قيلت فى هذا الموضوع ويرد عليها ، حتى يمهّد لمذهبه الخاص . فعل ذلك فى كتبه الطبيعية وفى كتاب ما بعد الطبيعة . ولا ننسى أن أرسطو كان قريب العهد بأولئك الفلاسفة فروى آراءهم الموجودة فى كتبهم فعلا ، أو نقلًا عن تلاميذ مباشرين . وأرسطو هو الذى رسم الطريق لتنفيذه ثاوفراسطس من بعده .

ويدكر برنت من المدارس الفلسفية الرواقيين ، وبخاصة كريسيسبوس الذى كان يعتمد على ما جاء عند أرسطو . ثم يدكر مدرسة الشكاك ، ويقف عند سكستوس إمبريكوس ، الذى كان يعنى ببيان التعارض بين القدماء فيضرب بعضهم ببعضهم الآخر . ثم مدرسة الإسكندرية وما فطره شراحها على أرسطو بعيدا عن ثاوفراسطس ، وبخاصة سمبليتيوس .

ونحب أن نضيف إلى هؤلاء الشراح من مدرسة الإسكندرية شخصا عرفه العرب وألف كتاباً فى « أخبار الفلاسفة » هو فريريوس الصورى ، الذى اشتهر عندهم بكتابه « المدخل إلى المقولات » المعروف باسم إيساغوجى^(١) .

رواة الآراء :

[١٩] على رأس رواة الآراء doxographers ، ثاوفراسطس Theophrastos صاحب كتاب « آراء الطبيعيين φυσικῶν δόξαι » من لفظة « دوکسا δόξα » بمعنى رأى . وكتابه هو الأول من نوعه فى الإغريقية الذى يعالج تاريخ الفلسفة ، وقد رتبته صاحبه على حسب الموضوعات مثل الله ، والعالم ، والآثار العلوية ، والنفس ، والطبيعة ، ويسرد فى كل موضوع جميع آراء السابقين منذ طاليس حتى أفلاطون ، دون أن يلحظ الترتيب التاريخى . وقد ذكرنا أن أستاذه أرسطو سبقه فى هذا الباب ، ولكنّه كان يحل التاريخ مقدمة للموضوع الذى يبحثه وأصبح كتاب ثاوفراسطس مادة ينهب منها جميع المؤرخين المتأخرين ، أو جماع التاريخ ، الذين كانوا إما أن يحتذوا حذوه فى ترتيب الموضوعات تحت عنوان واحد ، وإما أن يغيروا الترتيب فيضعون الموضوعات تحت أسماء الفلاسفة .

(١) الففطى : أخبار الحكماء — الطبعة المصرية س ١٧٠ — وانظر إيساغوجى لأحد نقّاد الاهوانى مطبعة دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٢ ، والمقدمة عن حياة فريريوس ومدرسة أفلاطون .

ورواة الآراء كثيرون ، اشتهر منهم ثلاثة ، وهم جميعا يعتمدون على كتاب
ثاوفر اسطس ، الأول فلوطرخس [القرن الأول والثانى بعد الميلاد] وصاحب كتاب
« آراء الفلاسفة Placita Philosophorum » ، وقد عرفه العرب ، فترجم له
القفطى فى أخبار الحكماء بأنه : « كان فيلسوفا مذكورا فى عصره يعلم جزءا متوفرا
من هذا الشأن ، وله تصانيف مذكورة بين فرق الحكماء ، منها كتاب الآراء
الطبيعية يحتوى على آراء الفلاسفة فى الأمور الطبيعية خمس مقالات » . وقد عرف
العرب - فى أكبر الظن - آراء الفلاسفة قبل سقراط من طريق هذا الكتاب ، وعن
طريق كتاب فرفريوس الذى ذكرناه من قبل ^(١)

والثانى جون ستوباىوس Stobaios [٤٧٠ بعد الميلاد] وصاحب كتاب
« خلاصة آراء الطبيعين Eclogae Physicae » ، وهو أوسع وأشمل من
كتاب فلوطرخس .

والثالث ثيودور الأنطاكى Theodoret [القرن الخامس بعد الميلاد] الذى
استقى كتاباته من أيتيوس Aëtius [القرن الأول بعد الميلاد] ، الذى اعتمد على كتاب
يسمى « آراء القدماء Vestuta Placita » ألفه بوزيدونيوس Poseidonius
[١٣٥ - ٥٠ ق . م] رأس المدرس الرواقية .

ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء الثلاثة شيشرون [١٠٦ - ٤٣] ، فهو كما يعده
برنت من رواة الآراء عندما يتحدث عن قدماء فلاسفة الإغريق ، وذلك فى

(١) لم يبحث أحد كتب أخبار الفلاسفة الموجودة فى اللغة العربية ، كالقفطى وابن أبى أصيعة
وابن النديم والشهرزورى ، ومعرفة الأصول التى استقى منها هؤلاء أخبارهم ، وعلى أى
المكتب اعتمدوا :

كتابه De Natura Deorum ، Lucullus ، ففي الأول يلخص آراء الفلاسفة معتمدا على ثاوفراسطس ، وعنه أخذ كارنيادس Karniades [١٢٩ ق . م] رئيس الأكاديمية .

رواة الآراء والسير :

[٢٠] وهناك بعض المؤرخين جمعوا بين رواية الآراء وحكاية الأخبار والعناية بالسيرة ، وهم الذين يسميهم برنت Biographical Doxographers ، ويذكر منهم هيبوليتوس Hippolytos [القرن الثالث بعد الميلاد] صاحب كتاب الرد على الملاحدة . وقد عاش هيبوليتوس في روما في ذلك العصر الذي اشتد فيه الصراع بين المسيحية وبين الوثنية . وقد استقى كتابه من ثاوفراسطس من جهة ومن مصادر أخرى تروى سيرة الفلاسفة مثل طاليس وفيثاغورس وهرقليطس وأبنادقليس .

ويضع برنت ديوجين لايرنوس Laertios [القرن الثاني بعد الميلاد] من جملة هذه الطائفة التي تجمع بين الآراء والسير . ويعد كتابه المعروف بعنوان « حياة الفلاسفة وآراؤهم » من أهم المصادر ، لأن معظم كتابه المخطوط ، وهو نسخة وحيدة ، قد وصل إلينا كاملا ما عدا جزءا من الكتاب السابع . ويبدو أن ديوجين قد استفاد من مصادر متعددة أخذ منها سيرة الفلاسفة ومذاهبهم ^(١) .

رواة السير :

[٢١] أما أصحاب السير فعظمهم نشأ في مدرسة المشائين من أتباع أرسطو ،

(١) انظر الوصف الكامل لكتاب ديوجين لايرنوس في الجزء الأول من تاريخ الفلسفة تأليف ريفو

Rivand : Hist . de la Phil . Tome L P 6 .

فكتبوا عن حياة عظماء القدماء من المفكرين . ويقال إن ديكارخوس Dicaearchus الذي كان تلميذ أرسطو وثاؤفراستس ، وكتب كثيرا من الكتب التاريخية ، هو أول من وضع هذا المنهج من تأليف السير ، فكتب عن حياة الحكماء السبعة وفيثاغورس وأفلاطون وغيرهم . ثم أخذ عنه أرسطون Ariston من جزيرة خيوس [توفي حول ٢٢٥ ق . م] وكان من الرواقين ومعاصرا لأبيقور ، وكتب عن سيرة أبيقور وعن سيرة هرقليطس .

ثم نجد كذلك سوتيون Sotion السكندري [حول ٢٠٠ ق . م] يؤلف في حياة الفلاسفة على التعاقب ، وقد لخص كتابه فيما بعد هرقليدس ليمبوس الذي عاش في الإسكندرية أيضا حول ذلك التاريخ .

وفي العصر نفسه ألف هرميبوس Hermippos الأزبيري كثيرا من توارخ الحكماء التي نقل عنها المتأخرون ، وكذلك مشأى آخر يعرف باسم ساتيروس Satyros وله كتاب عن حياة مشاهير الرجال ، وقد لخصه أيضا هرقليدس ليمبوس . وقد يمكن أن يعد ديوجين لايرتوس من أصحاب السير في بعض الأجزاء من مؤلفه .

المؤرخون : Chronographers

[٢٢] بقى أن نبين كيف اهتدى المؤرخون إلى تحديد أزمنة الحوادث والأشخاص . ويرجع الفضل في ذلك أولا إلى إراتستينس Eratosthenes [٢٧٥ - ١٩٤] ثم إلى أبولودورس من بعده [١٨٠ - ١١٠ ق . م] . وكان أبولودورس تلميذ بانيتوس الرواق ، ثم ذهب إلى الإسكندرية ولزم أرسطرخس . ولما طرد بطليموس الفلاسفة عام ١٤٦ ، توجه أبولودورس إلى برجام حيث أحسن ملكها استقباله فأهدى

إليه كتابه في التاريخ ، ثم انتقل إلى أثينا حيث توفي بها . أما الطريقة التي يعتمد عليها في تحديد زمن الحوادث ، فهي كما فعل أرسطرخس ، أن يبدأ بسقوط طروادة عام ١٠٤٠ ق . م ، ثم يتخذ من الأحداث الكبرى نقط ارتكاز لما قبلها وما بعدها ، مثل تولى ملك مشهور العرش ، أو سقوط مدينة ، وغير ذلك . يضاف إلى ذلك دورات الألعاب الأولمبية التي كانت تقع كل أربع سنوات . وإذا كان مولد الفيلسوف ووفاته معروفين ذكرهما ، وإلا ذكر فقط عام ازدهاره $\alpha\chi\mu\eta = akme$ ، وكان الأطباء يعدون سن الأربعين هي سن النضج والازدهار . ومن الأعوام المشهورة في تاريخ اليونان ارتقاء بوليقراطس العرش عام ٥٣٢ ق . م ، وسقوط مدينة سارديس ٥٤٦ ق . م .

الحكماء السبعة

رواية أفلاطون :

[٢٣] في محاوره « بروتاجوراس » ^(١) إشارة طويلة للحكماء السبعة ، تعد أول مصدر يوثق به في معرفة هؤلاء الحكماء ، وصلة حكمتهم بالفلسفة . والمحاوره كما نعرف تقع في بيت كالياس أحد أغنياء أثينا ، حيث يلتقى سقراط مع ثلاثة من السفسطائيين هم بروتاجوراس ، وهيباس ، وبروديقوس . ويتطرق الحديث إلى تفسير كلمة « شاق » $hard = Chalepon = \chi α λ ε π ο ν$ ويختلفون في مدلولها وأنها لا تعني الشر ، وهذا ما أعناه بيتاقوس من قوله في الحكمة الماثورة « بلوغ الخير شاق » . وكان بيتاقوس أحد الحكماء السبعة ، الذين سجل أسماءهم ومدنهم في المحاوره ، وأنهم وحدهم القادرون على قول الماثورات . وهؤلاء هم الحكماء كما جاء ذكرهم في المحاوره :

« طاليس من ملطية ، وبيتاقوس Pittacus من ميتيلين ، وبياس Bias من برين ، وسولون الخاص بنا ^(٢) ، وكليوبولس Cleolubus من لندس بجزيرة رودس ، وميسون Mysol من خيناي . لقد كان هؤلاء جميعا من أتباع الثقافة اللقدمونية ومحبيها ، تقوم حكمتهم على عبارات مأثورة قصيرة كثيرا ما ينطقون بها . ثم إنهم اجتمعوا وأهدوا إلى معبد أبولون في دلفي أول ثمار حكمتهم ، وهي تلك المدونة على باب المعبد والتي بلغ من شهرتها أن جرت على كل لسان على « اعرف نفسك » و « خير الأمور الوسط » .

ثم بضيف سقراط إلى ماسبق أنه استطرده هذا الاستطراد ليبين أن « الإيجاز »
الخاص بأمثال الحكماء هو أسلوب الفلسفة في القديم من الزمان .

ولما كان أفلاطون أقدم الذين أشاروا إلى الحكماء السبعة ، وكان قريب العهد
منهم فضلا عن عقليته الفلسفية ، فإن رأيه بعد أوثق ما يمكن الاعتماد عليه . والذي
يستفاد من النص السابق الذي أوردناه عن محاورة بروتاجوراس ، أن أقدم صور
الفلسفة كانت الحكم الماثورة الموجزة التي تهدف إلى إرشاد الناس في سلوكهم نحو
الخير . أو هي الحكمة العملية التي تفيد الناس في حياتهم وأمور معاشهم . وأول شرط
فيها أن تكون موجزة تلخص السلوك العملي وتعلم الفضيلة . وليس ما فعله سقراط
حين أراد أن يصل إلى حدٍ كلي للفضيلة إلا أثرأ من آثار الحكماء السبعة في إيجازهم
الذي يلخص الأحوال الجزئية . هذا إلى أن أساس فلسفة سقراط يقوم على تلك
الحكمة الماثورة « اعرف نفسك » . يضاف إلى ذلك أن الحكمة الثانية التي
ذكرها أفلاطون « خير الأمور الوسط » كانت أساس فلسفة كثير من القدماء ،
وقد سموها « الاعتدال » ، سواء في التوسط بين قوى النفس كما نجد عند
أفلاطون ، أو الفضيلة الأرسطية التي يعرفها بأنها مابكة الوسط العدل بين طرفين
إفراط وتفریط .

رأى المتأخرين :

[٢٤] ثم نسجت الأفانصيص حول الحكماء السبعة ، واختلف المتأخرون من
المؤرخين في أسمائهم ، وفي الحكم التي جرت على ألسنتهم . أما ديوجين لايرتوس
فإنه يستبدل برياندر [٦٢٥ - ٥٨٥] طاغية كورثة بيمسون الذي ذكره أفلاطون .

ويقال إن أفلاطون أغفل ذكر برياندر متعمدا لأنه كان يكره الطغاة . ومن المؤرخين من يجعل فيثاغورس ، أو أرفيوس ، أو أنكسا جوراس ، أو بسستراتوس وغيرهم ، حتى لقد تزيد أسماؤهم على العشرين . على أن الإجماع بين المؤرخين - على اختلافهم في قوائمهم - قد انعقد على أربعة هم : طاليس وبياس وبتاقوس وسولون ؛ وأن طاليس هو أولهم بغير نزاع .

ويحدثنا فلوطرخس أنهم اجتمعوا في كورنثة بدعوة من برياندر حيث دار بينهم حوار طويل .

ومن الأفاصيص التي تروى عنهم أن بعض الصيادين استخرجوا من البحر كرسيًا من الذهب ، ثم تنازعوا على امتلاكه ، فتوجهوا إلى دلفي فأنبأهم الكاهنة أن الذي يأخذه « أحكم رجل » . ودار الصيادون على جميع الحكماء السبعة ، فلم يجدوا فيهم حكيما جديرا بهذه الصفة ، فأعادوا الكرسي إلى أبولون في دلفي . ومغزى هذه القصة أن الحكمة صفة تضاف إلى الآلهة ، ولا يمكن أن يبلغها أى إنسان . وهذا هو المعنى الذى ذهب إليه فيثاغورس ، فيما ينسب إليه من أنه قال : لست حكيما Sophos ولكنى محب للحكمة أو صديق لها philosophos .

وقد جمع ستوبايوس بعض المأثورات التى تنسب إليهم ، وهى تدور حول الفضائل المختلفة مثل ضبط النفس والأمانة والحث على العمل والصدق واحترام الآباء وطاعة القوانين . وهذه الحكم تهدف إلى أمرين : هداية الناس فى الحياة ، وتكوين المواطن الصالح ، فلها بذلك غرضان أحدهما أخلاقى والآخر سياسى . ولا غرابة

في ذلك فإن معظم الحكماء السبعة كانوا من السياسة الذين كانوا حكماء بالفعل للمدن الإغريقية أو كانوا مشرعين مثل سولون .

ومما يلاحظ أن كل مدينة كانت تفخر بوجود حكيم يدبر أمورها ، وأن اجتماعهم إنما يدل على اتحاد الروح الإغريقية في القرن السادس على الرغم من تفرق المدن في غرب آسيا الصغرى أو في شبه جزيرة البلوبونيز .

رأى العرب

[٢٥] وقد انتقلت قصة الحكماء السبعة إلى العرب مشوهة ، فالشهرستاني في الملل والنحل يذكر أسماءهم على النحو الآتي : طاليس وأنكسا جوراس ، وأنكسمانس ، وأنبدقليس ، وفيثاغورس ، وسقراط ، وأفلاطون . ثم قال : « وإنما يدور كلامهم في الفلسفة على ذكر وحدانية الباري تعالى وإحاطته علما بالكائنات كيف هي وقد أغفل المتأخرون من فلاسفة الإسلام ذكرهم وذكر مقالاتهم رأساً إلا نكتة شاذة نادرة » . أما القفطي في أخبار الحكماء ، والشهرزوري في تاريخ الحكماء فقد جعل « أساطين الحكمة » خمسة هم : أنبادقليس وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس . وهذا يدل على تحبط المؤرخين كلما ابتعدوا عن المصادر الأولى ، ويدل في الوقت نفسه على علو شأن الحكماء السبعة إلى الحد الذي جعل المؤرخين العرب يضيفون إليهم سقراط وأفلاطون ، بل وأرسطو ، فقصروا بذلك هؤلاء الحكماء على الفلسفة فقط ، مع أن الصورة الأولى لهم تبين أنهم كانوا إلى الحكمة العملية وإلى السياسة أدنى منهم إلى الفلسفة النظرية المحضة .



المدرسة الأيونية

ملطية في القرن السادس

[٢٦] تتألف المدرسة الأيونية من ثلاثة فلاسفة هم طاليس وأنكسمندريس وأنكسمانس وهم جميعا من مدينة ملطية ، ولذلك تعرف المدرسة باسم مدرسة ملطية . وقد أطلق عليهم أرسطو اسم الطبيعيين الأولين ، فاشتهرت المدرسة بذلك أيضا ، ولو أنه يضم إليهم هرقليطس باعتبار أنه قال بالنار مبدأ أول . وقد يطلق عليها أيضا المدرسة العلمية .

وتعد ملطية أهم ثغور أيونيا ، وأشهر مدنها الاثنتي عشرة التي ألفت فيما بينها أحلاقا قديمة . وهذه المدن هي : ملطية ، وميوس ، وبريين ، وساموس ، وإفيسوس ، وقولوفون ، ولبدوس ، وتيوس ، وإرثرا ، وخيوس ، وكلازومينا ، وفوقايا .

وتقع ملطية على مصب نهر مياندروس ، وكانت أصلح ميناء لاستقبال السفن ، إذ تحميها جزائر صغيرة عند مدخل النهر . وكانت سفن التجارة تجوب البحر الأبيض حاملة البضائع إلى رودس وكريت وفينيقيا ومصر ، أو إلى جزر بحر إيجه وشبه جزيرة اليونان . وقامت تجارتها على أمور ثلاثة ، التين وزيت الزيتون والصوف من المحاصيل الزراعية في هذه المنطقة ، والبضائع التي كانت ترد من الهند وفارس برأ ثم تحط في مدينة سارديس عاصمة ليديا ، والآنية التي اشتهرت ملطية بصناعتها في القرن السابع وقد دلت الحفائر في مصر على وجودها فيها . وأثرت ملطية من هذه التجارة ثراء عظيما يسر لها بناء القصور ومعيشة الترف ، كما يسر للملاحية الاطسلاع على أخلاق الشعوب المجاورة والاتصال بعاداتهم وعقائدهم وعلومهم . وقد اضطرهم ركوب البحار إلى معرفة علوم كثيرة كالفلك والرياضة والطبيعة والجغرافيا .

وشهدت ملطية الصراع بين ليديا وبين الفرس وعاصرت أشهر ملوك ليديا وهو
قارون Groesus الذى حكم من ٥٦٠ إلى ٥٤٦ ، حين تغلب عليه سيروس ملك
الفرس وأخضع ليديا لسلطانه . وترك الفرس الحرية للمطية تحت نفوذهم ، ولم يطق
أهل ملطية صبرا قاروا عام ٤٩٤ ، وعندئذ خرب الفرس المدينة ولم تقم لها بعد ذلك
طامة . وانتقلت الفلسفة إلى جنوب إيطاليا .

طاليس

حياته :

[٢٧] ولنا نعرف الشيء الكثير عن حياة طاليس أول للفلاسفة وأول
الحكماء السبعة . يقال إنه زها عام ٥٨٥ ، فى السنة التى وقع فيها كسوف الشمس
الذى تنبأ به . ويذهب هيروdotus إلى أن طاليس من أصل فينيقي من بيت شريف
أما أبوه فيسمى إجازاميس Examyes مما يدل على انتفاء أصله السامى ، ويغلب أنه
من كاريا فى غرب آسيا الصغرى . والأرجح أنه زار مصر ودرس فيها الهندسة
بوجه خاص .

وتتضارب روايات المتأخرين أكتب كتباً أم لم يكتب . ولا نجد عند أفلاطون
أو أرسطو إشارة لهذه الكتب . ويقال إنه كتب كتاباً بعنوان « الفلك الليلي »
نظمه شعراً . وإعزو إليه بعض المؤرخين كتاباً فى « الاعتدالين » . وذهب البعض
الآخر إلى أن له كتاباً فى « العلل الأولى » يروى عنه جالينوس العبارة الآتية : « الماء
هو المادة الأولى ، ومنه نشأ كل شيء . ولقد أوضحنا ذلك فى المقالة الأولى » . والأرجح
أنه لم يؤلف كتباً ، بل تلميذه أنكسندريس هو صاحب كتاب « فى الطبيعة » .

حكيمته وسياسته :

[٢٨] وقد عده القدماء حكما ، وسياسيا ، عالما رياضيا وفلكيا وفيلسوفيا .

فهو من جملة الحكماء السبعة ، كما ذكرنا ، ويروى أنه حين أحس بخطر
الفرس اتفق مع يياس حكيم بربين ، وكانت تلك المدينة قريبة من ملطية ، على
نصح المدن الأيونية بالاتحاد ، وعلى أن يعقدوا اجتماعا في تيوس . ولعل هذه النصيحة
السياسية هي التي جلبت له الشهرة كأحد الحكماء السبعة ، ولم يكن الفلاسفة في
اليونان بعيدين عن الأحداث السياسية .

أشار أفلاطون إلى طاليس في أكثر من موضع ، فقد سبق أن ذكره أول
الحكماء السبعة في محاوره بروتاجوراس . ويشير إليه في محاوره تيتياتوس^(١) حيث
روى خادمة طاليس أنه : « كان منهمكا في النظر إلى السماء حتى غفل عن رؤية
ما تحت قدميه ، فوقع في بئر » . ثم يضيف سقراط : « أن هذه الغدرة تنطبق كذلك
على جميع الفلاسفة ، لأن الفيلسوف يجمل جهلا تاما ما عمله جاره . إنه لا يجمل
ما عمله فقط ، بل لا يكاد يعرف إذا كان إنسانا أو حيوانا . . . » .

وإذا صرفنا النظر عن أسلوب التهم الذي يتبعه سقراط ، وجدنا أن الهدف
الذي يرمى إليه هو أن يحول أنظار الفلاسفة من البحث في العالم الخارجى إلى البحث
في الإنسان ، وتقوم الفلسفة السقراطية على هذا المبدأ .

(١) تيتياتوس ١٧٤ .

عالم فلكى ورياضى :

[٢٩] كان أفلاطون إذن يعرف شهرة طاليس فى علم الفلك ، وكان يعرف إلى جانب ذلك شهرته فى ابتداع مخترعات يمكن تطبيقها فى الصناعات أو فى الحياة الإنسانية ، حتى لقد ضرب به المثل فى الكتاب العاشر من الجمهورية^(١) .

ويجمع التأخرون من المؤرخين أنه كان عالماً فلكياً ورياضياً ، إذ تنبأ بكسوف الشمس فى ٢٨ مايو ٥٨٥ الذى وضع حداً للحرب الدائرة بين الليديين والميديين ، وأنه أول من كشف الدب الأصغر ، وأنه نقل علم الهندسة عن المصريين إلى بلاد الإغريق ، وعرف بُعد السفينة وهى فى عرض البحر ، وارتفاع الهرم من قياس ظله ، واهتدى إلى بعض النظريات الخاصة بالمثلث والدائرة :

ويشك المحذون فى أن مقدرة طاليس فى علم الفلك يسرت له التنبؤ بالكسوف المذكور . أما البابليون والمصريون فكانت عندهم قوائم يسجلون فيها مشاهداتهم مئات وآلاف من السنين . ولعل طاليس تنبأ به صدفة ، وبخاصة لأنه كان يتصور الأرض أشبه بقرص لا دائرة . وكذلك لا يمكن الجزم بأن طاليس سبق المصريين فى علم الهندسة ، كل ما فى الأمر أنه نقل العلم إلى بلاد اليونان ، فأفسح الطريق فى المستقبل أمام أفليدس^(٢) .

وقد خدمت مخترعاته الفلكية الملاحين ، فيقال إنه وضع تقويماً فلكياً يسمى parapegma يعد أقدم ما عرف من نوعه ، وفيه يبين أوجه القمر ، وحركة الاعتدالين ، والتنبؤ بحالة الطقس .

(١) الجمهورية ٦٠٠ . (٢) انظر سارتون ص ١٧٠ ، ١٧١ .

الماء أصل الأشياء :

[٣٠] ويشير أفلاطون إلى مذهبه في « القوانين » دون ذكر اسمه ، في العبارة المشهورة « جميع الأشياء مملوءة بالآلهة » = panta plèrè theon $\pi\acute{\alpha}\nu\tau\alpha\ \pi\lambda\acute{\eta}\rho\eta\ \theta\epsilon\acute{\omega}\nu$ ، ولكن أرسطو يصرح باسمه فينسب إليه هذه العبارة في كتاب النفس . وسوف نناقش هذه العبارة بعد أن نبسط رأى أرسطو في فلسفة طاليس . قال في كتاب ما بعد الطبيعة :

« طاليس ، مؤسس هذا الضرب من الفلسفة ، يقول بأن المبدأ هو الماء (وهذا هو السبب في قوله إن الأرض تطفو فوق الماء) . ولا ريب في أن الذي أدى به إلى هذا الاعتقاد ملاحظته أن جميع الأشياء تتغذى من الرطوبة ، وأن الحار نفسه ينشأ عنها ويحيا بها (لأن ما تنشأ عنه الأشياء هو مبدؤها) . وهذه الملاحظة هي التي جعلته يأخذ بهذا التصور ، وكذلك ملاحظة أخرى هي أن بذور جميع الأشياء رطبة بالطبع . ويذهب البعض [لعله يشير إلى أفلاطون] إلى أن قدماء الكونيين Cosmologistes الذين وجدوا قبل زماننا بعهد طويل كانوا أول من فكروا في الآلهة وتصوروا الطبيعة على هذا النحو ، فهم يعملون أقيانوس وتيثس أصليين للكون ، ويجعلون الآلهة تحلف بالماء الذي يسميه الشعراء ستيكس Styx » (١) .

وهنا نجد أن أرسطو يصل بين تفكير طاليس وبين الشعراء الذين تصوروا الآلهة أصل الكون ، وجعله يخطو بذلك خطوة إلى الأمام ، فيقابل بين التفكير الأسطوري والتفكير الفلسفي . وفي أول كتاب ما بعد الطبيعة يذكر أرسطو تاريخ الفكر

(١) أرسطو — ما بعد الطبيعة ٩٨٣ ب ٢٠ — ٣٤ — عن ترجمة تريكو الفرنسية .
وقد قلنا النص بأكمله لأنه غير موجود بالعربية ، وهذا الجزء ساقط من تفسير ما بعد الطبيعة لابن رشد .

وكيف كان التعجب هو الباعث على النظر ، وأول ما لفت الأنظار هو المشكلات الأشد ظهوراً مثل حركة القمر والشمس والنجوم ثم نشأة العالم . فالكشف عن الصعوبة والتعجب منها اعتراف بالجهل ، فيحلها المرء بأن يكون محباً للخرافة ثم محباً للحكمة^(١) . $\Phi\iota\lambda\omicron\sigma\sigma\omicron\phi\omicron\varsigma = \text{philosophos}$ و $\Phi\iota\lambda\omicron\mu\upsilon\theta\omicron\varsigma = \text{philomythos}$

فلم يغب عن ذهن أرسطو تفسيرات هوميروس وهزيود وأورفيوس ، وجعل هذه التفسيرات الميثولوجية سابقة على التفسيرات العلمية الفلسفية ، وعنها نشأت ؛ واستدل كذلك بأفلاطون الذى أشار إليه فى الفقرة السابقة . ويكون فضل طاليس عند أرسطو أنه نقل التفكير من الميثولوجيا إلى الفلسفة ، فكان طاليس محباً للفلسفة مؤثراً لها أى فيلو - سوفوس ، لا محباً للخرافة والأسطورة أى فيلو - ميثوس ، كما رأينا . وقد غاب هذا المعنى عن « برنت » فراح يعلق على رأى أرسطو الخاص بطاليس ، وأنه استمد فكرته من النظريات الكونية السابقة عن أوقيانوس وتيثس ، وقال : إن الأمر لا يعدو أن يكون تأثراً بما ذكره أفلاطون على سبيل الإيهام ولا ينبغي أن يؤخذ حرفياً ، ذلك أن أفلاطون فى تيتياتوس يقول : إن هرقليلطس والسابقين عليه أخذوا فلسفتهم من هوميروس . يريد برنت أن يقطع صلة طاليس بالميثولوجيا ، وأن يجعله فيلسوفاً طبيعياً على الحقيقة . ولكنه سوف يعجز فيما بعد عن تفسير رأيه من أن كل شيء مملوء بالآلهة .

ونص أرسطو الذى أورده عن طاليس واضح لا لبس فيه . فهو فيلسوف لأنه قال بالماء مبدأ أول بل لأنه « مؤسس هذا الضرب من الفلسفة » يريد هذه الفلسفة التى تضع المشكلة وتحاول الجواب عنها . مثال ذلك : ما الحقيقة الموجودة وراء الظواهر ؟ وفى هذا تتجلى أصالته وروحه الفلسفية .

وآثر طاليس القول بالمادة مادة أولى عنها تنشأ جميع الموجودات . فهو « واحدى Monist » فى الفلسفة . والسبب الذى دعاه إلى هذا القول ماشاهده فى الكائنات الحية من أنها تحيا وتتغذى بالرطوبة . وقد كانت ظروف الحياة فى بلاد اليونان ، كالحال فى صحراء العرب ، تعتمد على وجود الماء ، فليس من الغريب استنتاج أن يكون الماء علة الحياة . ومن أجل ذلك أوحى الله إلى رسوله أن يقول « وجعلنا من الماء كل شىء حى »^(١) .

ولكن برنت يذهب إلى أن المشاهدات الجوية هى التى أوحى لطاليس بفكرته . فالماء يتشكل أكثر من أى مادة أخرى بأشكال مختلفة ، فىكون صلباً وسائلاً وغازياً . وأن ظاهرة التبخر من البحار بحرارة الشمس إنما تسحب الماء منها ، ثم يعود مرة أخرى مع الأمطار ويغذى الترع والأنهار ويصب آخر الأمر فى البحر .

وينتقد بيجر^(٢) تفسير برنت قائلاً : إن أرسطو حين سمي المدرسة الأيونية بالطبيعيين ، كان يقصد من لفظة الطبيعة φύσις = physis خلاف ما نعنيه الآن فى العلم الحديث . فهى فى اليونانية القديمة تدل على عملية النمو كما تدل على أصل الشىء . ويوضح برتراند رسل عند كلامه على طبيعيات أرسطو فكرة الطبيعة عند اليونان بقوله : إنها نشأت من النظر إلى حركة الكائنات الحية ونموها ، والتفكير فى وجود قوة باطنة هى التى تحركها ، وأن هذه القوة الداخلية هى إله من الآلهة . ولكن الطالب فى القرن العشرين حين يرى الطائرة تتحرك لا يفسر حركتها بقوة آلهة بل

(١) سارتون : ص ١٧٢ ، حيث يدل على صواب رأى طاليس بالاستشهاد بالقرآن .

(٢) yaeger : Theology of Early Greek philosophers, p7.

بقوة ميكانيكية . وأن أرسطو نفسه لم يخل من هذا التصور الميثولوجى عند تفسير حركة الكواكب بوجه خاص .

ولنرجع إلى نقد ييجر حيث يقول : إن مؤرخى القرن التاسع عشر مثل هيجل وغيره من الألمان وبخاصة زلر ومدرسته فهموا اصطلاح أرسطو عن الفلاسفة الطبيعيين فهماً حديثاً ، وأنهم فسروا فلسفتهم تفسيراً ميتافيزيقياً . على حين أن جومبرز وبرنت أكدوا صفة قدماء الفلاسفة التجريبية والعلمية ، وأظهروا الفلاسفة قبل سقراط بمظهر العلماء المحدثين ، فقطعوا الصلة بينهم وبين التفكير الميثولوجى .

كل شيء مملوء بالآلهة :

[٣١] وليس من العسير بعد ذلك تفسير عبارة طاليس : كل شيء مملوء بالآلهة ، تلك العبارة التى ذكرها أفلاطون ثم أرسطو من بعده . أما أرسطو فقد ساقها فى كتاب النفس ليبين مذهب طاليس ، من أن النفس متمزجة بالعالم كله ، كأن طاليس يريد بالآلهة الموجودة فى الأشياء النفس المحركة لها . ولما كان أرسطو يعنى بالنفس مبدأ السكان الحى ، فقد اعترض على طاليس قائلاً : لماذا لا تكون العناصر كالهواء والماء والنار ذات نفس . وينسب أرسطو إلى طاليس فى الكتاب نفسه قوله إن النفس محركة للأشياء لأن : فى حجر المغناطيس نفساً لأنه يجذب الحديد^(١) . وكانت حركة الكائنات الحية وغير الحية مثار تفكير الفلاسفة من قديم الزمان ، وخيل إلى طاليس أن فى الكائنات قوى غامضة حية هى التى تحركها ، فقال مرة بأن كل شيء مملوء بالآلهة ، وقال مرة أخرى بالمغناطيس الذى يجذب الحديد . بعبارة أخرى كل شيء حى ، وكل شيء فيه نفس . ولكن طاليس أنزل الآلهة من سمائها وجعلها تسكن جميع الأشياء ، كما أنزل الشعراء الآلهة وأسكنوها جبل أوليمبوس .

وحاول فلاسفة العرب تأويل مذهب ثاليس^(١) حتى يتفق مع الدين .
وأكبر الظن أنهم نقلوا هذه الآراء عن بعض المؤرخين المتأخرين الذين عاشوا
في القرن الخامس والسادس مثل ثيودور وسرجيس الرأسي عيني وغيرهما من الذين
نقلوا الفلسفة اليونانية إلى السريانية ، وعنها نقلت إلى العربية فيما بعد في عصر الترجمة .
ولم يبحث حتى الآن أحد في الموازنة بين النصوص العربية وبين التراجم السريانية
وأصولها اليونانية ، اللهم إلا بعض كتب خاصة مثل كتاب المقولات الذي حققه
الدكتور خليل الجر ، وكذلك بعض المستشرقين مثل تكاش وغيره . قال
الشهرستاني : ومن العجب أنه نقل عنه أن المبدع الأول هو الماء فذكر أن
من جمود الماء تكونت الأرض ، ومن انحلاله تكون الهواء ، ومن صفو الهواء
تكونت النار ، ومن الدخان والأبخرة تكونت السماء ، ومن الاشتعال الحاصل من
الأنثر تكونت الكواكب وفي التوراة في السفر الأول مبدأ الخلق هو
جوهر خلقه الله تعالى ، ثم نظر إليه نظر الهيبة فذابت أجزاؤه ، فصارت ماء ، ثم نار
من الماء بخار مثل الدخان فخلق منه السموات ، وظهر على وجه الماء زبد مثل زبد
البحر فخلق منه الأرض ، ثم أرساها بالجبال . وكأن ثاليس الملطي إنما تلقى مذهبه
من هذه المشكاة النبوية . والذي أثبتته من العنصر الأول الذي هو منبع الصور
شديد الشبه باللوح المحفوظ المذكور في الكتب الإلهية » .

قصة الاحتكار :

[٣٢] هذه هي جملة التفسيرات لمذهب طاليس الفيلسفي ، والذي يعد أرسطو
مسئولا عن توجيهه هذه الوجهة الميتافيزيقية . على أن شهرة طاليس في زمانه كانت

(١) يرسمه العرب بـ ثاء وهو الأصح - انظر الشهرستاني في الملل والنحل ج ٢ ص ٢٤٢ وما بعدها - مطبعة حجازي ١٩٤٨ ، ونزهة الأرواح للشهرزوري مخطوط - .

إلى علم الفلك أدنى منها إلى الميتافيزيقا المحضة . وقد رويننا من قبل قصة وقوعه في بئر وهو يتأمل النجوم . ويذكر أرسطو في كتاب السياسة قصة أخرى تدل على براعته في علم الفلك والتنبؤ بحالة الجو في المستقبل . قال :

« عرف طاليس بما له من براعة في التنجيم وكان الوقت شتاء أن موسم الزيتون في العام القادم وفير . وكان عنده قدر قليل من المال فدفعه عرابين لاستئجار جميع معاصر الزيتون في خيوس وملطية بثمن بخس، ولم ينافسه أحد . فلما جاء وقت الحصاد، وأقبل جميع الزراع على المعاصر دفعة واحدة ، أجراها كما يشاء ، فجمع بذلك مالا كثيرا . وهكذا أثبت طاليس للناس كيف يمكن للفلاسفة أن يفتنوا بسهولة إذا شاءوا ولكن مطامعهم من نوع آخر ^(١) » .

يقول سارتون معلقا على هذه الرواية إن أرسطو يمتدح طاليس من أجل زهده في المال ، ويصدق حجته التي يذكرها . أما الواقع في نظر سارتون فهذا الاحتكار من جانب طاليس إنما يدل على دخيلة نفسه وعلى حبه المال ، وقد كانت الثروة أمل كل إغريقي ، فضلا عن أن طاليس كان حكيما عمليا لا فيلسوفا نظريا .

أنكسمندريس

حياته :

[٣٣] يختلف المؤرخون في تحديد مولده ووفاته ، قيل ولد ٦١٠ وتوفي ٥٤٦ ،

وأنه زها حول عام ٥٦٥ ق. م .

وكان مواطن طاليس وصاحبه *πολίτης και έταίρος* ، كما وصفه ثاوفراسطس وكما

نقل عنه سيمبليوس فيما بعد . وقد يقال إنه تلميذ طاليس تجوزا ، فلم يكن أول الحكماء

(١) السياسة ١، ١٢٥٩ .

السبعة صاحب مدرسة بالمعنى الذى نفهمه من مدرسة . وكذلك الحال فى أنكسيمانس الذى يعد صاحب أنكسمندريس وخليفته ، فهو بعده بعشرين عاما ، كما أن أنكسمندريس بعد طاليس بعشرين عاما .

وهو أول من دون فى الفلسفة وله كتاب بعنوان « فى الطبيعة » نقل عنه ثاوفراسطس بعض عباراته وقد أسلوبه . وكان الكتاب متداولاً فى عصره . وهو كذلك أول من كتب الفلسفة نثراً فجعل النثر أداة التعبير عن الفلسفة ، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا بآرمينيدس وأبنا دقليس اللذين نظما فلسفتها شعراً . وأهم مصدر لفلسفته ما ذكره أرسطو عنه ، وما نقله ثاوفراسطس .

نص أقواله :

[٣٤] وإليك نص ثاوفراسطس : (نقل عن ترجمه برنت)

« أنكسمندريس من ملطية ، ابن فركسيادس praxiades ، مواطن طاليس وصاحبه ، قال إن العلة المادية والعنصر الأول للأشياء هو اللانهاى . وهو يقول إنها ليست ماء ولا شيئاً من العناصر المعروفة ، بل مادة مختلفة عنها ، لانهاية لها ، وعنها تنشأ جميع السماوات والعوالم » .

وهذه ترجمة أهم النصوص التى جمعها ديلز ، (عن الترجمة الإنجليزية لكاثلين فريمان) « اللانهاى هو المادة الأولى للأشياء الكائنة . وأيضاً فإن الأصل الذى تستمد منه الموجودات وجودها هو الذى تعود إليه عند فنائها ، طبقاً للضرورة . وذلك لأن بعضها يخضع لحكم العدل ويصلح بعضها الآخر (يجب أن يعاقب وأن يكفر بعضها عن بعضها الآخر) لما قامت به من ظلم ، تبعاً لنظام (الحكم) الزمان » (١)

« هذا اللانهاى دائم أزلى »

« اللانهاى خالد لا يهنى »

(١) هذا النص عن سيمبليوس ، وقد ترجمه ويجر عند كلامه عن أنكسمندريس ص ٣٤ ، وما

بين أقواس هو اقتراح ويجر للترجمة .

الأبيرون :

[٣٥] من هذه النصوص يتبين أن رأى أنكسمندريس في المادة الأولى أنها «اللانهاى» . $\alpha\pi\epsilon\iota\rho\omicron\nu = \text{apeiron}$. وقد أثارَت اللفظة اختلافا كبيرا بين المترجمين والمفسرين ، أهى لا محدودة ، أو لا نهائية ، أو لا متعينة ، unlimited, infinite, undetermined أما العرب فقد فهموا من الأبيرون ، أنه اللانهاى ، يقول الشهرزورى : «وكان رأيه أن أول الموجودات المخلوقة للبارى تعالى الذى لانهاية له ، ومنه كان المكون ، وإليه ينتهى الكل » . أما الشهرستانى فقد خلط بين مذهب أنكساجوراس وبين مذهب أنكسمندريس ، وينسب الجزء الخاص بأنكسمندريس إلى فريريوس صاحب كتاب أخبار الفلاسفة ، وفيه يقول : «إن أصل الأشياء جسم موضوع الكل لانهاية له . ولم يبين ما ذلك الجسم ، أهو من العناصر أم خارج من ذلك » .

والأبيرون من اللفظة اليونانية بيراس peras أى محدود أو نهائى ، ومن جرف النفى اليونانى . فالذين ترجموا اللفظة باللامحدود نظروا إلى هذه المادة من جهة الكم ، أى من جهة حدودها . وكذلك الذين ترجموها بما لانهاية له ، أو اللانهاى . غير أن لفظ اللانهاية أجذب مدلولاً خاصاً فلسفياً ورياضياً ، فيقال إن العالم لانهاى ولا يقال إنه لا محدود . أما الذين ترجموا اللفظة بأنها لا متعينة فقد نظروا إليها من جهة الكيف ، أى لاصفة لها . ويطرحها سارتون أيضاً «مبهمة indefinite» .

وإذا رجعنا إلى القدماء رأينا أرسطو يفسر مذهب أنكسمندريس تفسيراً مادياً . ولا غرو فأرسطو هو الذى وصف المدرسة الأيونية بالطبيعيين الأولين . وكانت العناصر أو الاسطقسات المعروفة أربعة ، النار والهواء والماء والأرض . فقال طاليس بالماء ، وانكسمانس بالهواء ، وهرقليطس فى بعض أقواله بالنار . وهؤلاء جميعاً من الماديين

الواحديين . وجمع أنبادقليس بين العناصر الأربعة فكان من أصحاب مذهب الكثرة . أما أنكسمندريس فقد رفض القول بمادة أو أسطفس من هذه الأسطفسات : وفي ذلك يقول أرسطو في كتاب الطبيعة ينتقد مذهب أنكسمندريس بعد عرضه :

« وأيضاً فلا يمكن وجود مادة واحدة بسيطة لانهاية ، لا كما يذهب البعض من أنها إحدى العناصر تخرج هذه عنها أو تستمد منها . لأن هناك مَنْ يذهب إلى وجود مادة متميزة عن العناصر ، هي اللانهاى ليست ماء ، ولا هواء ، حتى لا تفسد الأشياء بما فيها من لانهاية . والعناصر متضادة ، الهواء بارد ، الماء رطب ، النار حار . وبناء على ذلك لو كان أى عنصر منها لانهاى ، لوقف الآخران عن الوجود . ولذلك يقولون إن اللانهاى شىء مختلف عن العناصر ، وأن العناصر تنشأ عنها » الطبيعية : ٢٠ ب ٢٢ [عن ترجمة برنت]

فنحن نرى أن أرسطو يصف الأيرون وصفين ، الأول أنه مادة أو جسم ، والثانى أنه مختلف عن العناصر الأربعة . وأكبر الظن أن أرسطو فسر اللانهاى عند أنكسمندريس بأنه مادة أو جسم ، لأن المادة التى يقول بها أرسطو ، أو الهىولى ، ليست جسماً بل قوة محضة . مع أننا لو تعمقنا فكرة أنكسمندريس لرأينا أنها شديدة الشبه بالهىولى الأرسطية ، فهى لانهاية ، لا محدودة ، لا متعينة .

والأيرون إلى جانب ذلك « مبدأ » الأشياء . وسمبليقيوس هو أول من قال عن الأيرون إنه مبدأ $\alpha\rho\chi\eta = arche$. وفكرة المبدأ فى غاية الأهمية فى الفلسفة ، لأن الأشياء يتسلسل بعضها عن بعض كما يرى بالحس ، حتى تبلغ أصلاً أو مبدأ لا يحتاج إلى مبدأ آخر . فالأيرون هو البدء ، للماء أو الهواء . ولو كان للأيرون مبدأ لكان له نهاية أو حدٌ ، وبذلك يمكن أن نفهم لماذا سمى الأيرون باللانهاى . وفى هذا يقول أرسطو فى كتاب الطبيعة : « لما كان الأيرون مبدأ ، فلا يمكن أن يكون

شيئا قد تكون أو يزول لأن الذى يتكون يجب بالضرورة أن يكون له غاية، وكذلك كل ما يزول له غاية . وهكذا - كما قلنا - ليس الأبيرون بدء، بل الأولى - كما يظنون - أنه بداية كل شيء آخر، وأنه يحيط بكل شيء ويحكم كل شيء ، لأن هؤلاء لا يضعون أى علة خارج الأبيرون ، مثل العقل (nous) أو المحبة (philia) ، وهم يقولون إن هذا المبدأ إلهى ، لأنه خالد ولا يفسد كما يذهب أنكسمندريس ومعظم الفلاسفة الطبيعيين » . الطبيعة ٤٠٣ ، ٣٠٣ ،

ويشك رنت فى نسبة صفة البدء للأبيرون ، ولكن يجبر يعارضه فى ذلك ، ويفسر فكر أنكسمندريس بأنه نوع من التطور عن الدين الأسطورى . فمن صفات الآلهة أنها « البدء والوسط والنهاية لكل شيء » وهذه هى بالضبط صفة الأبيرون . وبذلك يمكن أيضا أن نفهم قول أرسطو إن الأبيرون « إلهى وخالد ولا يفسد » . فهذه صفات الآلهة كانت معروفة عند اليونانيين .

وليس تفسير عبارة أنكسمندريس بأن الموجودات يجب أن تعاقب وأن تكفر عن ذنوبها سهلا . ويذهب نيتشه ورود Rhode إلى أن مجرد وجود الموجودات ظلم ، وكذلك انقسامها ، وهذه عقوبة يجب أن تكفر عنها . وقد رأينا فى النحلة الأورفية أن وجود الإنسان عقوبة عليه أن يكفر عنها . ولكن نستطيع أن نفهم الصورة التى يرمز لها أنكسمندريس من قوله إن الأشياء قد ارتكبت ذنبا تحاول التكفير عنه بعد الحكم عليه بالعدل، ينبغى أن تتمثل صورة محكمة يونانية، حيث يوجد فريقان متنازعان أحدهما أخذ نصيبا أكثر من صاحبه إما بالقوة وإما بالغش والخداع ، فإذا اتضحت الحقيقة فيجب أن يعاقب المعتدى، والزمان هو القاضى الذى يحكم بين المتنازعين . وإذا كان هناك ظلم فإن الزمان كفيلا باكتشافه مهما يطل الوقت . وهذا ما يقصده أنكسمندريس لا فى عالم السياسة فقط بل فى العالم الطبيعى ، حيث تظهر

الأشياء إلى الوجود ثم تزول طبقاً « لحكم الزمان » .
كان أنكسندريس أعظم المدرسة الأيونية منزلة وأوسعها شهرة وأكبرها أثراً ،
فقد حاول أن يلتمس الحقيقة في شيء وراء هذه الظواهر المحسوسة ، بعيداً عن
التصورات الأسطورية الموجودة في أشعار هوميروس وهزiod وأورفيوس . فكان
قوله بالانهاثي ، وهو عبارة عن فكرة عقلية ، هي الحقيقة الثابتة الموجودة وراء
الظواهر المتغيرة ، وقد نشأت عنها الأشياء بالانفصال والانضمام . وأن علة الانفصال
هو الحركة الأزلية التي تؤدي إلى انفصال الأضداد المتقابلة وتحيدها .

خلق العالم

[٣٦] عند خلق العالم انفصل عن الأيرون الحار والبارد ، ثم تبع ذلك سائر
الخلق عنهما . ثم تميز الحار عن البارد بأن أحاط به في دائرة كلكاء الشجرة . ثم
احتوى البارد في داخله على طبقة من الهواء الأرض في داخلها . وكانت الأرض في
البدء رطبة ، ولكنها جفت بتأثير الحار الذي أخذ يجتذب منها الرطوبة شيئاً فشيئاً .
أما بقية الرطوبة فقد ملأت فجوات الأرض وأصبحت البحار . ولا تزال الأرض في
سبيل الجفاف بالتبخر حتى يأتي يوم تصبح فيه يابسة تماماً .

على هذا النحو تكونت أربع طبقات : الحار أو النار ، والبارد أو الهواء ، والرطب
أو الماء ، واليابس أو الأرض . ثم انشقت طبقة النار فأصبحت ثلاث دوائر تحيط
بالأرض كالحلق ، أو هي أشبه بالعجلة في العربة . هذه الحلقات هي مدار الشمس
والقمر والنجوم ، وليس في استطاعتنا رؤية جميع الحلقات لأن الهواء يغلفها . وأبعد
الحلقات في هذه العجلة حلقة الشمس ، ويوجد فيها ثقب أو فتحة واحدة تظهر الشمس
منها ، أو يظهر منها لهب مضيء على قدر الشمس . والحلقة الثانية أقرب إلينا ، وفيها

ثقب يخرج منه لهب أضعف من الأول وهو القمر . والحلقة أو الدائرة الثالثة أشد قرباً منا ، وبها ثقوب في غاية الصغر هي النجوم والكواكب ، وضوؤها ضعيف باهت يغشيه البخار الذي يملأ الفضاء بين الأرض والسماء . والأرض في وسط هذه الآلة الضخمة ، وهي كاقراص ، أو كالأسطوانة ، ولا تستند إلى شيء ، على عكس طاليس الذي تصور الأرض قرصاً يطفو فوق الماء ، ووجود الأرض وسط العالم خاضع لحكم « الضرورة » ، ولكنه لم يفسر ماهذه الضرورة ، أو كما يذهب بعض المفسرين أنها إنما تماسك بتوازنها وبعدها المتساوى عن جميع الجهات .

وترجع علة الكسوف والخسوف إلى انسداد الثقوب في الحلقات بالأبجزة المتصاعدة التي تغطيها . والبحر هو أصل هذه الأبجزة التي تصعد بها الشمس . والهواء هو علة الرعد والبرق والرياح ، لأن الهواء ينحبس في السحاب الكثيف ثم ينطلق بعد ذلك بقوة ، فيحدث انشقاق السحاب صوت الرعد . والرياح حركات الهواء الشديدة الحادثة عند التبخير ، وتضرب الرياح الأرض ضرباً شديداً عندما تجف الأرض من حرارة الشمس ، فتحدث الزلازل من هذا الضرب أو هذه الهزة . وقد كانت آسيا الصغرى موطننا ولا تزال لكثير من الزلازل .

ظهور الأحياء

[٣٧] وقد اختلف المحدثون في قيمة نظرية التطور التي نادى بها أنكسمندريس في القرن السادس ، ويمد بذلك سابقاً لدارون بقرون عديدة . ونظراً لأهمية هذه النظرية فيحسن أن ننقل نصوص القدماء الباقية منها .

نشأت الكائنات الحية من الرطوبة ، بعد أن تبخرت بالشمس . وكان الإنسان كغيره من أنواع الحيوان ، فكان في البدء ممكاً . (إيبوليتوس)

تولدت أول الحيوانات في الرطوبة ، وكان كل منها مغلفاً بقشرة كثيرة الأشواك .
فلما تقدم بها الزمن انتقلت إلى أجزاء أكثر ييوسة ، ولما نفضت عنها قشرها لم تعش إلا
فترة قصيرة من الزمن (أيتيوس)

وأيضاً فإنه يقول بأن الإنسان تولد أصلاً من أنواع أخرى من الحيوانات ، وعلّة
ذلك أن سائر الحيوانات الأخرى تلتهمس طعامها بنفسها بسرعة أمّا الإنسان وحده فيحتاج
إلى زمن طويل من الرضاعة ، وبناء على ذلك فلو كان الإنسان في الأصل كما هو الآن ماعاش
أبدًا ، (فلوطرخس)

يقول بأن الناس نشأت في داخل الأممك ، وبعد أن تربوا فيها كالفرش (كلب
البحر) وأصبحوا قادرين على حماية أنفسهم ، قذف بهم أخيراً على الشاطئ وضربوا في
الأرض (فلوطرخس) — [عن ترجمة برنت للنصوص] :

من هذه النصوص التي يُرجع فيها أنكسمندريس أصل الحيوانات إلى الماء ،
يتبين أن نظريته شبيهة إلى حد كبير بالنظرية الحديثة . وليس القول بأن أصل الحياة
من الماء جديداً ، فهي أسطورة شائعة عند البابليين والمصريين . ولذلك اختلف
تقدير المحدثين لهذا الفيلسوف ، فبعضهم يرفع من شأنه علمياً ، وبعضهم يصوره فيلسوفاً
أسطورياً . وقد واجه أرسطو فيما المشككة نفسها ، وقال بما يسميه « التولد الذاتي »
وهو تولد الذباب والدود من الرطوبة مع حرارة مناسبة .

المعاد :

[٣٨] وليس بين أيدينا من النصوص ما نعرف منه بوضوح عن معاد العالم
Kosmos إلى اللانهاى . وقد مرت بنا عبارته التي يقول فيها عن نشأة عوالم
كثيرة عن الأبيرون ، وعن إصلاح العالم ما أوقعه من ظلم . ويذهب برنت إلى
وجود عوالم كثيرة لانهاية في آن واحد ، على خلاف زللر الذي يذهب إلى وجود

عالم واحد كلما فنى ظهر عالم جديد وهكذا . أما عودة العالم إلى اللانهاى فهو انضمامه إليه بعد انفصاله عنه ، وهذا الانفصال هو الذنب أو الخطيئة الأولى التى يجب من أجلها أن يكفر العالم .

مخترعات عملية

[٣٩] وأفضل أعمال أنكسمندريس العلمية كان فى علم الفلك ، حيث اخترع آلة تسمى « جنومون Gnomon » كانت كما يقول هيرودوتس معروفة عند البابليين والمصريين ، ولكنه عمل على تحسينها . إنها المزولة الشمسية . وهى عبارة عن عصا تفرس رأسيا فى الأرض ، وقد يستعمل عمود من الحجر أو الرخام . وتدل الملاحظة على أن طول ظل العصا يختلف على مر النهار من الشروق إلى الغروب ، ويختلف كذلك على مر الأيام باختلاف الفصول ؛ وأن أقصر طول للظل يكون فى الشتاء وأطولها فى الصيف . وبذلك يستطيع العالم الفلكى باستعمال المزولة تحديد السنة وساعات النهار ووقت الظهر والفصول الأربعة .

وهو أول من رسم خريطة للعالم Mappa Mundi ، وجعل اليونان مركزها تحيط بها الأجزاء الأخرى من أوربا وآسيا ، والبحر المحيط يكون حدودها الخارجية . وكان للملاحون فى ملطية يستخدمونها فى رحلاتهم إلى شتى الثغور المطلة على البحر الأبيض . وقد اعتمد هكاتايوس Hecataeus فيما بعد على هذه الخريطة وصححها وعدل فيها ، وقد عاش هكاتايوس فى القرن الخامس وبعده أول جغرافى فى العالم .

أنكسمانس

نص أقواله :

[٤٠] ليس لدينا أى شىء ثابت عن حياته ، فهو من ملطية ، زها عام ٥٤٦ عند سقوط مدينة سارديس ، وأنه كان صاحب أنكسمندريس ، وآخر فلاسفة المدرسة الملطية الطبيعية . وقد ألف كتابا لم تبق منه إلا عبارة واحدة .
وهذه هى النصوص التى حفظها لنا رواة الآراء .

« أنكسمانس من ملطية ، ابن إرستراتوس ، كان صاحب أنكسمندريس ، وذهب مثله إلى أن المادة الأولى واحدة ولا نهائية . ومع ذلك فإنه لم يقل كما قال أنكسمندريس إنها لامعينة ، بل قال إنها معينة ، وهى الهواء » (ثاوفراسطس) .
« وعنها تنشأ الآلهة والأمور الإلهية التى تكون والتى كانت والتى سوف تكون . وعنها تتولد الأشياء الأخرى » (هيبوليتوس) .

« كما أن النفس لأنها هواء تُمسِكنا ، كذلك النفس والهواء يحيط بالعالم بأسره » (أيتيوس) .

« وهذا هو شكل الهواء : عندما يكون فى أقصى حالات الاعتدال فلا تراه أعيننا ، ولكن البرودة والحرارة والرطوبة والحركة تجعله مرئيا . وهو أبداً فى حركة ، لأنه لو لم يكن كذلك ما تغير كثيرا كما يحدث له » (هيبوليتوس) .

« يختلف فى المواد المختلفة بحسب التكاثف والتخلخل » (ثاوفراسطس) .

« إذا تمدد حتى يتخلخل أصبح ناراً ، ومن جهة أخرى الرياح عبارة عن هواء

متكاثف . ويتكون السحاب من الهواء بالتلبد ، ويظل يتكاثف حتى يصبح ماء . وإذا تكاثف الماء أصبح أرضا ، وإذا زاد تكاثفه أصبح صخرا » (هيبوليتوس)
« أنقسامس الملطى . وكان يرى أن أول الموجودات المخلوقة للبارى تعالى الهواء ، ومنه كان الكل وإليه ينحل ، مثل النفس الذى فينا ، فإن الهواء هو الذى يحفظه فينا ، والروح والهواء يُنسكان العالم » (الشهرزورى) ^(١)

الهواء أصل الأشياء :

[٤١] لم يرض أنكسمانس عن الأبيرون ، تلك المادة اللامعنية ، وآثر أن يعينها كما فعل طاليس من قبل . وفضل الهواء ولكنه ليس هذا الهواء الذى نحس به ، بل هو ذلك الذى نستنشقه فيكون علة الحياة ، ولذلك سماه « بنيا pneuma = Πνεῦμα » ولهذا السبب ذكره أرسطو فى جملة الفلاسفة الذين جعلوا النفس مركبة من العناصر ، لأنها تعرف الأشياء من حيث أن الشبيه يُدرك بالشبيه ، وتُحرك الجسم ، ووصف الهواء بأنه « أطف الأجسام » . وكما أن الهواء علة الحياة فينا ، فهو علة الحياة فى العالم ، وفى جميع الأشياء المتحركة . وقد اعترض أرسطو على هذه النظرية بقوله إن الكائنات الحية فقط هى الكائنات المتنفسة أى ذات نفس ، أما الكائنات غير الحية فلا نفس لها . ولكن أرسطو يقع فى الخطأ ذاته الذى يعيبه على أنكسمانس فيتصور الأجرام السماوية كائنات حية لها أنفس أو عقول .

(١) يلاحظ الشبه الشديد بين نص الشهرزورى وبين نص أيتيوس ، وأكبر الظن أن الشهرزورى كان يرجع إلى كتاب قديم فى أخبار الفلاسفة من الذين أخذوا عن أيتيوس . ونحن نرجو أن ينهض أحد الباحثين بجميع النصوص العربية الخاصة بالفلاسفة اليونانيين مع ردها إلى أصولها . أما الشهرستانى ففيه خلط عجيب .

ويخطو أنكسمانس خطوة جديدة يفسر بها تكون الأشياء عن الهواء ، نغني
التكاثف والتخلخل . ومن الواضح أنه يوحد بين التخلخل والحركة . فالهواء إذا كان
ساكنا ، فهو أكثر العناصر اعتدالا ، وهو غير مرئي ، وحركته علة تغيره ، يتخلخل
فيصبح ناراً ، ويتكاثف فيصبح رياحا فسحابا فأرضا فحجارة ، وبذلك اكتشف
العلاقة بين الكثافة والحرارة . ولم يستطع طاليس أن يوضح كيفية صدور الأشياء
عن الماء ؛ وذهب أنكسمندريس إلى القول بالانفصال والانضمام ، ولكن هذا
الانفصال يحتاج إلى تفسير . فالتقول بالتكاثف والتخلخل ولا ريب خطوة علمية
لها شأنها في تعليل تغيّر الموجودات وردها إلى أصل واحد . وهذا الأصل هو الهواء ،
وهو لانهاى من جهة السكم كما وصف أنكسمندريس الأيرون ، ولكنه معين
له كيف محدود .

وعلة التكاثف والتخلخل الحركة . وهى صفة للمادة فطن إليها معظم كبار
الفلاسفة والعلماء . فهذا أرسطو يُعرّف الطبيعة بأنها مبدأ حركة الجسم وسكونه . وأهم
صفات المادة عند ديكارت الامتداد والحركة . وليس للحركة عند أنكسمانس علة
أخرى غير ذاتها . فالهواء بطبيعته فى حركة دائمة ، أى له فى ذاته هذه القوة ولا يفترض
مبدأ أول للحركة غير هذا . الحق أن تعليل الحركة الأولى فى الطبيعة وكذلك أصل
الحياة من أصعب الأمور حتى اليوم . وعند أنكسمانس أن الصلة بين الحركة وبين
التخلخل شديدة ، فالرياح بخار متحرك ، والسحاب بخار أقل حركة ، والماء أقل حركة
من السحاب وأكثر من الأرض ، وهكذا .

ويذهب إلى أن الشمس أرضٌ ، ولكن قوتها المحركة الملهبة ترجع إلى سرعة
حركتها التى تجعلها شديدة الحرارة . وكان هذا التصور فى غاية الجرأة فى زمان اعتقد

الناس فيه بألوهية الأجرام السماوية ، حتى لقد حكموا على بروتاجوراس بالنفي من أثينا لقوله : بأن الشمس قطعة ملتهبة من الحجر .

أثر أنكسمانس :

[٤٢] وعند أنكسمانس أن أول ما ظهر في الوجود بعد تكاثف الهواء هو الأرض وليست الأجرام السماوية. ثم نشأت الشمس والقمر والنجوم من الأرض التي يتصورها مسطحة تسبح كالقرص في الهواء .

وقد كان أثر أنكسمانس في الفلاسفة الذين جاءوا بعده عظيماً ، وبخاصة مذهبه في الفلك ، واعتباره الأرض مركز العالم ، وأنها والأجرام السماوية ذوات أنفس. وعندما عاد العلم الأيوني إلى الظهور فيما بعد شاع مذهبه . وأخذ أنكساجوراس بكثير من نظرياته ، وكذلك كثير من أصحاب الذرة مثل لوقيبوس وديمقريطس اللذين اعتنقا نظرية الأرض المسطحة ، على عكس المدرسة الفيثاغورية التي ذهبت إلى كروية الأرض . ويبدو أن سقراط في شبابه كان يدين بالمذهب الطبيعي الذي يقول به أنكسمانس ، ولعله قد استمدّه من أنكساجوراس ، ونحن نجد ذلك مصوراً في تمثيلية السحب لأرسطوفان حيث يجعل سقراط صاحب مدرسة في أثينا ، ويجلس في سلة معلقاً في الهواء حتى يمتزج بهذا العنصر العاقل الذي يؤدي إلى الصفاء .

ولما كانت المدرسة الأيونية وحدة تسلسلت من طاليس إلى أنكسمندريس إلى أنكسمانس ، وكانت تفسر أصل الموجودات بمادة واحدة طبيعية ، فإن أنكسمانس أصبح يمثل نهاية ما تطورت إليه مباحث المدرسة ، وأضحى علماً عليها وملخصاً لمذهبها ، وبخاصة في خلق العالم . وتميزت المدرسة بالنزعة العقلية العلمية

المقابلة للتفسيرات الأسطورية . وفي ذلك يقول كورنفورد ^(١) : « من العسير علينا أن نستعيد موقف العقل الذي يفكر بمقلية هزيود إلى الماضي ، حيث كان يتلفت عبر الزمان من خلال عصره الذي يعيش فيه والحياة التي يحياها كل يوم حتى يبلغ العصور الأولى ، عصر البطولة ، والعصر البرونزي ، والفضي ، والذهبي ^(٢) ، وحتى يبلغ حكم كرونوس وآبائه من الآلهة وكيف تولدت بشكل غامض من زواج الأرض والسماء هكذا كان يبدو الماضي لكل مفكر قبل ظهور المذهب العقلي في أيونيا . حقا لقد كان عملا خارقا للعادة ذلك الذي أبعد سلطان الأساطير من تفسير أصل العالم والحياة » .

(1) Cornford : Principium Sapientiae, 1952, p 187 .

أى مبادئ الحكمة ، وله عنوان آخر هو « دراسة في أصول التفكير الفلسفي في اليونان » ، وألف كورنفورد هذا الكتاب قبل موته ولم يتمه ، ولم ينشره . وقام بنشره في مطبعة كبرديج الأستاذ جوتري : (٢) انظر ص ٢٧ من هذا الكتاب ، وما ذكرناه عن هزيود .

نفوذ الفرس في أيونيا :

[٤٣] يمتاز القرن السادس قبل الميلاد بالاضطرابات السياسية التي قلبت موازين الحكم في الدول المعروفة حينذاك وهي الفرس وبابل وأشور واليونان ومصر . فقد اشتد ضغط الفرس غرباً ، وهبت الدول تدافع عن نفسها ، وتنفض عنها غبار الضعف ، وتأخذ في طريق النهضة . وخضعت في أواخر الأسرة الخامسة والعشرين لحكم الآشوريين ، فهض إسماتيك ابن الملك نحاو يدافع عن استقلال مصر بمعونة الجند المرتقة من اليونانيين والأيونيين والكاريين ، ونجح في طرد الغزاة ، واستقل بالبلاد حول قرن من الزمان ، حتى خضعت مرة أخرى لحكم قمبيز ملك الفرس عام ٥٢٥ ق . م . وأحدث إسماتيك نهضة جديدة في الفنون والآداب ، ووفد اليونانيون إلى شمال الدلتا ، بل كان لهم حى خاص في مدينة منف ، فاستفادوا من علم المصريين وفنونهم وأديانهم . وفي ذلك الوقت أيضا اشتد ضغط الفرس على آسيا الصغرى ، فأثر أحرار الفكر المهجرة غربا ، واستقر كثير منهم في جنوب إيطاليا . وبذلك أفل نجم الفلسفة في أيونيا وانتقلت إلى الغرب تلتمس الأمن . ومن هؤلاء الذين هجروا وطنهم الأول فيثاغورس الذى طارت شهرته في القديم وفي العصر الوسيط :

مصادر حياة فيثاغورس :

[٤٤] وليس من اليسير الكشف عن شخصية فيثاغورس وسيرته ، فأفلاطون

يلتزم الصمت التام عن الرجل ولا يذكر اسمه إلا مرة واحدة ، وأكثر إشاراته إلى فرقة السرية ، وعلى الرغم من أن أرسطو كتب عنه كتاباً يتحدث فيه عن أخباره — والكتاب مفقود — فإنه يتحدث عن الفيثاغوريين ، أى عن مذهب الجماعة ، ولم يذكر اسمه إلا مرتين . ونحن نجد عند زينوفان^(١) Xenophanes ، وهرقليطس ، وأنبادقليس ، إشارات عن فيثاغورس ، ولكن كتب هؤلاء الثلاثة مفقودة ولم تبقى منها إلا عبارات حفظها المتأخرون . ويشير إيزاقراط الخطيب اليونانى المشهور فى القرن الرابع إلى فضل مصر عليه . وألف أرسطكسينوس تلميذ أرسطو كتاباً عن فيثاغورس والفيثاغورية ، وكذلك ديكارخوس أحد تلاميذ أرسطو وصاحب ثاوفراسطس ، وتيمايوس صاحب تاريخ صقلية ، غير أن كتبهم ليست موجودة الآن بين أيدينا .

وهناك ثلاثة من المتأخرين دونوا سيرة فيثاغورس وهى التى نرجع إليها ، وهم ديوجين لايرتوس ، وفريريوس الصورى ، وإمبيليخوس^(٢) ، ولكن رواياتهم تشوبها الأفاصيص المستمدة من خيال الشعب خلال التاريخ ولا يمكن الوثوق بها . بل إن هيرودوتس ، وهو أقرب المؤرخين إلى زمانه ، قد مزج تعاليمه بتعاليم المصريين والأورفيين . فهو يذكر عن المصريين أنه أخذ عنهم تحريم لبس الصوف ومذهب التناسخ ، وكلا الأمرين غير صحيح عن عقائد قدماء المصريين . أكثر من ذلك يروى هيرودوتس رواية عن شخص اسمه زالموكس Zalmoxis^(٣) لا يمكن أن تصدق . فقد كان زالموكس

(١) هو الذى يكتبه غيرنا عادة اكسانوفان ، وقد رأينا أن نتخفف فى رسم الاسم فجعلناه بالزاي .

(٢) عاش فى القرن الرابع بعد الميلاد وله عن فلسفة فيثاغورس ومدرسته كتاب جمع أخباره من مصادر شتى .

(٣) هكذا يسمه سارتون ، أما برنت وفريمان وغيرهما فيكتبونه بالسين ، سالموكس Salmoxis

من أهل تراقيا وعبدًا لفيثاغورس ، ونال حريره ، وأصبح غنيا ، وعاد إلى موطن رأسه حيث ابنتى قاعة ضخمة كان يدعو إليها جيرانه ويذيع فيهم عقيدة الخلود والنعيم فى الجنة بعد الموت ، ولكن يؤثر فيهم اختفى عن الأنظار ثلاث سنين فى حجرة تحت الأرض ، وظنوا أنه مات ، وحزن الناس عليه حزنا شديدا ، وإذا به يعود إلى الظهور فى السنة الرابعة .

سيرته :

[٥] نحن إذن نروى سيرة فيثاغورس دون أن نطمئن إلى صحة هذه الروايات التاريخية . وليس معنى ذلك أن فيثاغورس كان شخصية خرافية ، فما لا ريب فيه أنه وجد وعاش حقا ، وأنه نشأ فى ساموس تلك الجزيرة المواجهة لمدينة ملطية . وهو ابن منسارخوس Mnesarchos ، وزها عام ٥٣٢ فى حكم بوليقراطس طاغية ساموس . ويحدثنا أرسطكسينوس أن فيثاغورس هجر موطنه فرارا من طغيان بوليقراطس ، أولعه نفى من البلاد كما كانت العادة فى ذلك الزمان بالنسبة للمفكرين الأحرار ، أو أنه أحس بخطر غزوات الفرس فأثر هجر البلاد . فذهب أولا - كما يقول يامبليخوس - إلى ملطية حيث لقي طاليس وأخذ عنه العلم . ثم زار فينيقيا ومكث بها وعرف فيها كثيرا من العقائد الشرقية . ومن ثم توجه إلى مصر وأقام بها اثنين وعشرين عاما يدرّس الهندسة والفلك وعقائد قدماء المصريين ، حتى إذا قهر الملك قبيز البلاد عام ٥٢٥ ق . م تبعه إلى بابل وظل بها اثني عشر عاما يدرس الحساب والموسيقى وأسرار المجوس ، وعاد إلى ساموس وهو فى السادسة والخمسين (وقيل فى الثمسين) ، ولم يلبث أن تركها وذهب إلى ديلوس وكريت ، وأخيرا استقر فى كروتون فى جنوب إيطاليا حيث افتتح مدرسته . فإذا صرفنا النظر عما فى القصة

من تفاصيل وتواريخ يبقى أنه طاف بمصر وبابل ، ومع ذلك فرحلاته ليس لها سند تاريخي وثيق ، لأن هيرودوتس نفسه حين يذكر زيارته لمصر لا يصرح باسمه ، بل يقول : « أولئك الذين أعرف أسماءهم ولا أذكرهم » .

تأسست مدينة كروتون عام ٧١٠ ق . م ، وهي ثغر تجارى وصناعى ، وحصلت ثروة كبيرة من التجارة فعاش أهلها رغدا . واشتهر سكانها بالرياضة البدنية بوجه خاص ، وفاز كثير من ممثليها بالجوائز فى الألعاب الأولمبية . واشتهرت المدينة كذلك بعلم الطب . وكانت علاقاتها وثيقة بساموس ، ولعل شهرة جوها بالاعتدال هى التى اجتذبت فيثاغورس إليها ، حيث أنشأ فرقة دينية وعلمية وسياسية . ويشك برنت فى صفتها السياسية ويقول إن : « النظام الفيثاغورى كان فى أصله مجرد أخوة دينية لا كما يذهب البعض من أنه كان حزبا سياسيا » ^(١) . ونحن نرى أن ابتعاد فيثاغورس وفرقة عن التيارات السياسية مما يخالف الطبيعة البشرية على وجه العموم ، والظروف السياسية التى سادت اليونان فى ذلك العصر وكانت تدعو إلى مساهمة أفراد الشعب فى الحكم . وتروى القصة - كما يذكر تيبايوس (٣٥٢ - ٢٥٦) ، مؤرخ كتاب تاريخ صقلية ولم تبق منه إلا أجزاء يسيرة - أن فيثاغورس بعد أن استقر فى كروتون ، لجأ إليه بعض أشرف سيبارس Sybaris ، فنصح فيثاغورس أهل كروتون بحمايتهم وإيوائهم وإعلان الحرب على سيبارس ، فلما انتصرت كروتون تولى حزب فيثاغورس الحكم . وبعد بضع سنوات ظهرت حركة تعارض هذا الحكم الاستبدادى برئاسة قيلون Kylon وهو شريف غنى أساء إليه فيثاغورس ^(٢) . وقبل أن يشتد لهيب

(١) برنت : فجر الفلسفة اليونانية طبعة ١٩٤٥ ، ص ٨٩ . (٢) يروى فى سبب هذه

الجفوة أن فيثاغورس رفض قبول قيلون فى المدرسة لسوء أخلاقه .

الحركة هاجر فيثاغورس إلى ميتابونتيوم Metapontium حيث توفي هناك . أما أتباعه الذين بقوا في كروتون فقد كانوا ضحية مؤامرة مدبرة من قيلون وحزبه ، إذ فوجئوا وهم مجتمعون في منزل ميلو Milo الرياضي ، وحرقوا أحياء وماتوا جميعا ، ماعدا أرخيوس وليس التارنتي الذي فر إلى طيبة بالقرب من أثينا . أما بقية الأتباع الذين كانوا غائبين عن كروتون فقد اجتمعوا في ريجميوم حيث تابعوا السير طبقا لنظام فيثاغورس ، ولكنهم لم يستعيدوا نفوذهم السياسي .

وبعد موت فيثاغورس كرس أهل ميتابونتيوم بيته معبداً للإله ديمتر .

مدرسة فيثاغورس :

[٤٦] اجتذبت شخصية فيثاغورس القوية وتعاليمه المتنوعة كثيرا من الأتباع ، والتلاميذ ، وقامت بذلك مدرسة كبيرة تمددت جوانبها ، كما خضعت لنظام دقيق .

وهي أول مدرسة أفسحت المجال لاستقبال المرأة وتعليمها ، فوضع بذلك مبدأ شيوعية المرأة قبل أفلاطون بقرنين من الزمان ، وطبق المبدأ تطبيقا عمليا . ولكنه كان يميز بين الجنسين نظراً للاختلاف الطبيعي بينهما ، فكان يعلم المرأة الفلسفة والآداب ، كما كان يعلمها تدير المنزل والأموعة ، حتى اشتهرت المرأة الفيثاغورية في الزمن القديم أنها أفضل نساء الإغريق . ولما كانت المدرسة تستقبل الرجال والنساء على السواء من جميع الطبقات فهي أشبه بالمدينة الفاضلة ، أو هي المجتمع المثالي كما يجب أن يكون . وقد رغب أفلاطون في إنشاء مدينة فاضلة ولكنها ظلت حبرا على ورق ولم تخرج قط إلى حيز التنفيذ ، وكانت الأكاديمية مقصورة على الخاصة من التلاميذ . وحاول أفلاطون أن ينشئ في عهد الإمبراطور جاليانوس مدينة للفلاسفة

يسمى بلاتونوبوليس platonopolis غير أنه لم يفلح ، واكتفى أفلوطين بإنشاء مدرسته التي كانت تستقبل النساء أيضا .

المدرسة الفيثاغورية نظام من الأخوة كأنهادير أو معبد ، فجميع الطلبة يلبسون زيا واحد هو البياض ، ويعيشون معيشة زهد وبساطة ، ولا ينتعلون بل يمشون حفاة الأقدام ، كما كان يؤثر عن سقراط الذي كان متأثرا بتعاليم الفيثاغورية تأثرا شديدا مما يتضح في محاوره فيدون . ولا يسرفون في طعام أو شراب ، ولا يكثرون من الضحك أو الإشارة أو الكلام . ولا يحلفون بالآلهة : « لأن واجب المرء أن يكون صادقا بغير قسم » . وكانوا يحاسبون أنفسهم آخر النهار على ما فعلوه ، فيسأل كل واحد منهم نفسه عن الشر الذي ارتكبه ، والخير الذي قدمه ، والواجب الذي أهمله .

ولم يكن التعليم كتابة بل سماعا وتلقينا وشفاهة عن الأستاذ ، ولم يؤثر عن فيثاغورس أنه ألف كتابا ، وكانت تعاليم المدرسة سرية يعاقب من يفشيها بالطرد . وقد التزموا السرية التزاما دقيقا إلى حد أن أسرارهم لم تعرف إلا في عصر سقراط وأفلاطون ، عندما كتب فيلولاوس أحد أتباعهم كتابا من ثلاثة أجزاء تحت سلطان الحاجة إلى المال فيما يقال ، واشتراه منه ديون حاكم سراقوسة حسب طلب أفلاطون . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هيباسوس Hippasus هو أول من دون كتابا بعنوان « المذهب السرى » وذلك في حياة فيثاغورس ، وأودع الكتاب بعض المعلومات الرياضية ، وعوقب من أجل ذلك بالطرد ^(١) .

(١) من أشهر أتباع المدرسة الفيثاغورية ، ويختلفون في موطنه أهوا من كروتون أو ميتابونتيوم أو سيبارس ، وقد أفشى هيباسوس تعاليم المدرسة الدينية والرياضية . ويقال إنه أنشأ فرعا للمدرسة من المنتسبين أو المستمعين . ويروى أن علة طرده سياسية إذ قام على رأس حركة ديمقراطية مناهضة للجماعة الفيثاغورية ، فكان بذلك أول من أحدث انقساماً في الجماعة مما شجع فيلون فيما بعد على استغلاله . وتعزى إلى هيباسوس كثير من النظريات الرياضية والغالب أنها من عمل أستاذه .

ومن آداب المدرسة « الصمت » حتى لقد ذهبوا إلى أن التقليد الجديد مطالبٌ بالصمت مدة خمس سنين ، يريدون بذلك قبول التعاليم بغير أسئلة أو جدال ، ثم يصبح له الحق بعد ذلك أن ينتقل من صفوف المستمعين إلى خاصة التلاميذ فيطلب العلم على فيثاغورس . ذلك أن طلبة المدرسة نوعان ، خاصة وجمهور ، أو تلاميذ منتظمون Mathematikoi ، ومستمعون Akousmatikoi . أما الصفوة من التلاميذ فهم الذين كانوا يقرءون فيثاغورس ، ويعلمون مذهبه ، ويعرفون أسرار التعاليم الرياضية والدينية ؛ وأما المستمعون فكانوا عبارة عن حلقة واسعة لا يسمح لهم إلا باستماع القشور من التعاليم بغير تفسير دقيق .

وكان الطلبة - فيما يروى فريريوس - يتجنبون أكل اللحم . ونحن نعلم أن فريريوس ألف رسالة في الامتناع عن أكل اللحم^(١) مما يدل على أثر الفيثاغورية حتى القرن الثالث بعد الميلاد . ولكن أرسطو كسينوس يذهب إلى أن فيثاغورس لم يمتنع عن أكل اللحم على الإطلاق ، بل لحم الثور الذي يقوم بحرث الأرض ، والكباش . ويبدو أن تحريم ذبح الحيوان وأكل لحمه يتصل اتصالاً وثيقاً بعقيدة التناسخ ، فقد يمكن أن توجد روح الإنسان في بدن الحيوان الذي يذبح . ولا يزال النباتيون فريقاً كبيراً في الهند حتى الآن . وقد حفظ الزمان تقاليد الفيثاغوريين الخاصة بالأطعمة المحرمة ، وبعض آدابهم ، وذكر برنت منها على سبيل المثال : تحريم أكل الفول ، عدم التقاط ما يقع على الأرض ، عدم لمس الديك الأبيض ، عدم تقطيع الخبز ، عدم تخطية حاجز ، عدم تحريك النار بالحديد ، عدم الأكل من

(١) انظر ايساغوجي لفريريوس - تحقيق أحمد فؤاد الأهواني ص ٣٥ - ٣٦ .

رغيف كامل ، عدم أكل القلب ، عدم السماح للعصافير بناء عشها في غرفة النوم ، عدم النظر إلى المرأة بجانب النور .

جملة القول كانت الجماعة الفيثاغورية سرية باطنية ، لها جانب ديني وجانب علمي رياضي . ونبدأ بالكلام عن مذهبها الديني .

مذهبه الديني — التناسخ :

[٤٧] شهد القرن السادس هزة عنيفة في الدين ، في جميع أنحاء العالم المعروف في ذلك الزمان ، فقد ظهر زرادشت في إيران ، وعارض الدين الطبيعي أو دين الفلاسفة في أيونيا الديانة التي بصورها هوميروس وهزيود ، ووفد إلى تراقيا في شمال اليونان أورفيوس يحمل ديناً جديداً فيه نفحة شرقية ومسحة من الزهد والتصوف ، وهاجر فيثاغورس وزينوفان إلى جنوب إيطاليا ، ولم يكن من الطبيعي أن يظل الدين القديم على ما هو عليه ، فجدده فيثاغورس واعتنق الأورفية ، وهاجم زينوفان الديانة التقليدية هجوماً صريحاً .

وقد تحدثنا عن الأورفية فيما قبل ، ورأينا أنها تعبد ديونيسوس ، وتعتقد أن الإنسان من عنصر إلهي وعنصر أرضي ، وأن اتباع بعض الطقوس الخاصة بالطهارة يؤدي إلى خلاص النفس مما يسمونه « عجلة الميلاد » ، أي عودة الروح إلى بدن إنسان أو حيوان ، وهي فكرة التناسخ التي أخذ بها فيثاغورس . وقد أخذ عن الأورفية كذلك تنظيم أتباع الدين في جماعات لا تقوم على علاقة الدم بل على وحدة الاعتقاد . وقد كشفت الحفائر الحديثة عن وجود ألواح ذهبية سطرت فيها أشعار أورفية . وما يروى أن فيثاغورس ألف بعض الكتب التي نسبها إلى أورفيوس ،

ويتخذون من هذه الرواية دليلا على أن بعض الكتابات الأورفية من عمل فيثاغورس .

كان فيثاغورس يعتقد في تناسخ الأرواح ، ويحدثنا زينوفان - الذى كان معاصرا له - فى بعض أشعاره أن فيثاغورس أوقف شخصا عن ضرب كلب يعوى ، لأنه عرف فيه صوت أحد أصدقائه . ويذهب هرقليدس بوتييكوس [القرن الرابع ق . م - ومن أتباع أفلاطون وأرسطو] أن فيثاغورس كان يؤمن بوجود نفسه فى أجساد أخرى سابقة ، تبدأ من هرمس إله الحكمة ، ثم إيثاليدس بن هرمس ، ثم إيفوروبس ، ثم هرموتيموس ، ثم فيروس الصياد ، ثم فيثاغورس . وتشمل هذه الدائرة المكونة من ستة أشخاص ٢١٦ سنة ، أى مكعب العدد ٦ . مهما يكن من شئ فلم تكن نسبة الرجال البارزين إلى الآلهة غريبة عن اليونانيين ، لأنهم نسبوا أرسطو إلى أسقليداس إله الطب . وتمضى القصة فتحدثنا أن هرمس طلب من إيثاليدس أن يهبه ما يريد ما عدا الخلود ، فاختار « التذكر » . ونحن نعلم أن مذهب أفلاطون فى المعرفة يقوم على أن العلم تذكر ، أى أن النفس تتذكر ما كانت تعرفه فى وجودها السابق مع عالم الآلهة ، مما يبين تأثر أفلاطون بفيثاغورس ومذهبه .

جملة القول كانت تعاليمه الدينية تدعو إلى حركة جديدة تأخذ من جميع التيارات الموجودة بطرف ، فيها طقوس من بابل ومصر وآسيا وراقيا ومن العقائد القديمة الموجودة عند اليونانيين ، إلى جانب العقائد السرية كالأورفية . وبدأ الناس يقبلون على عبادة هذه الآلهة التى تدعو لها الديانات السرية الصوفية مثل ديمترو برسفونى وديونيسوس وأورفيوس وهرمس ، إلى جانب آلهة جبل أوليمب القديمة . فكان بذلك فيثاغورس من الفلاسفة الموقفين ، تدل على ذلك القصص التى رويت بعد وفاته من أن بيته وُهب للإله ديمتر ، وأن روحه تنسب للإله هرمس .

تطهير النفس :

[٤٨] والنفس منفصلة عن البدن ، أى أن جوهرها مختلف عن جوهر البدن .
وتقال النفس أو الروح فى هذا المذهب بمعنى واحد . وهى خالدة ، وأزلية ، فلها وجود سابق على وجود البدن ، ولا تنفى بفنائها . والبدن سجن للنفس ، وليس للإنسان أن يفر من هذا السجن بالانتحار ، لأننا كالتقطيع الذى يملكه الراعى وهو الله ، وليس لنا أن نهرب بغير أمره . أما السبيل إلى خلاص النفس بعد الموت ، وارتقاها إلى حياة أعلى بدلا من تناسخها فى أبدان أخرى وفى ذلك عذابها ، فهو التطهير أو التصفية Katharsis . ولم تكن فكرة التطهير من ابتكار فيثاغورس ، فالأورفية تطلب الخلاص من « عجلة الميلاد » عن طريق التطهير ، وذلك باتباع قواعد معينة فى الطعام والملبس ، وعبادات منظمة تجرى على أيدي الكهنة . وقد رأينا كيف اتبع فيثاغورس هذه الآداب والعبادات ، إذ يُروى أنه كان يعيش على الخبز والعسل والخضر ، ولكنه أضاف إلى الزهد الذى يهدف إلى تطهير البدن أمرين : الاشتغال بالعلم الرياضى والموسيقى لتصفية النفس ، كما يستخدم الدواء لتصفية الجسم . ومع ذلك فقد كان العلاج بالموسيقى مألوفاً فى الشعائر الدينية القديمة ، حيث كانت الموسيقى عنصراً أساسياً فى أعياد بعض الآلهة . ولكن الجديد عند فيثاغورس أنه رفع هذا التطهير من المنزلة العملية إلى المرتبة النظرية ، فجعل من الحساب والهندسة والموسيقى علوماً بمعنى الكلمة ، ورفع من شأن الباحث فيها على مجرد العامل بها عن طريق التجربة والدربة .

وقد ضرب مثلاً بالناس الذين يحضرون الألعاب الأولمبية ، فهم أحد ثلاثة :
قوم ينتهزون فرصة الألعاب الأولمبية للبيع والشراء والكسب من الاتجار ، وهؤلاء

هم الطبقة الدنيا ، وفريق يشترك في المباريات بطلب السبق والفوز ، وهم الطبقة الثانية ، وطبقة تشهد كل ذلك أو « تتفرج » على الباعة والمتسابقين ، أو « تنظر » إليهم ، وهم فريق النظار ، وهذا هو الأصل في « النظر » [theôrein باليونانية بمعنى ينظر] .

فالنظر أو العلم هو أعظم تصفية ، وكل من يهب نفسه للدرس وينقطع للبحث يصبح الفيلسوف على الحقيقة ، ذلك الذى يتخلص من عجلة الميلاد . وقد تطورت فكرة التطهير وسارت في هذا الطريق العلمى ، فأخذ بها الفيثاغوريون المتأخرون ، مثل فيلولوس ، واتبعها سقراط كما نرى في محاوره فيدون ، وأصبحت محور فلسفة أفلاطون ومعظم أصحاب المذاهب الروحية حتى اليوم .

الحساب والهندسة :

[٤٩] لم يصبح العلم الرياضى علماً بمعنى الكلمة له مبادئه وأصوله إلا على يد أفليدس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ولكن فيثاغورس هو الذى وضع الحجر الأساسى فى هذا العلم . وقبل ذلك سارت البشرية أجيالا كثيرة تخطو بالرياضة خطوات قطعت زمنا طويلا حتى انتقلت من الحس إلى التجربة . ولا نود أن نقطع برأى فيما يختص بالرياضة قدماء المصريين لأن الوثائق المدونة ليست كافية فى الجزم برأى معين كما ذكرنا من قبل . فقد احتفظ علماؤهم وكهنتهم بالعلم سرا من الأسرار ، وجرى فيثاغورس وفرقة على سنتهم ، ولم ينكشف العلم الرياضى إلا فى القرن الخامس ، ولكن الدفعة الأولى لا بد أنها ترجع إلى عمل شخص واحد ، لا إلى فكر جماعة ، وذلك الشخص هو فيثاغورس .

ولن نكلم عن الرياضة لذاتها ، بل من جهة علاقتها بالفلسفة ، وبوجه خاص بهذا المذهب القائل بأن العالم عدد ونعم . والعدد هو علم الحساب . ومرجع العدد إلى « الواحد » ، وكان للواحد شأن أى شأن فى الفلسفة ، حتى لقد ذهب الفلاسفة إلى القول به على أنحاء مختلفة ، فهناك الواحد الفيثاغورى ، والواحد البارمنيدي ، بل الواحد الطاليسى وهو الماء ، وسائر من أرجع الكون إلى عنصر واحد أو مبدأ واحد . وقد تأثر المثال الأفلاطونى بالواحد الرياضى الفيثاغورى من جهة ، وبالواحد البارمنيدي الميتافيزيقى من جهة أخرى .

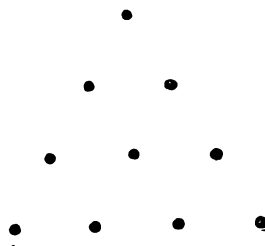
فما هو الواحد الرياضى ؟

فلننظر إلى الطفل كيف يعد وكذلك الشخص العامى أو البدائى . يعد الطفل على أصابعه ، فهو ينظر إلى إصبع واحد أو اثنين أو أصابع اليد الخمسة ؛ ولكن الإصبع جسم طبيعى له طول وعرض وعمق ، وكل إصبع يختلف عن صاحبه شكلا ، وعن الأصابع الخمس مجتمعة فى صورة واحدة فى اليد ، ولو أن كل واحد منها « منفصل » عن الآخر ، أو هو عبارة عن « وحدة » مستقلة بذاتها . وعندما يعد الطفل العدد خمسة على أصابع يده يرى اليد شكلا واحداً لا خمسة أعداد . وهذا هو الشأن فى الأشجار إذا نظرت إليها فى الحديقة ، أو الأعمدة فى المعبد ، وهكذا . فالعين ترى بالحس شيئا محسوساً لا واحدا رياضيا ، ولا يرى الطفل هذا الواحد الرياضى بل يرى الجسم الطبيعى . هذا وحاجات الحياة تضطر الإنسان إلى معرفة العدد ، مثال ذلك التاجر الذى يشتري عدداً من رؤوس الغنم ويبيع عدداً من الثياب ، فكيف يفعل ذلك ؟ بدأت التجارة بالكم المتصل ، أو الكوم ، ولا يزال الفلاحون عندنا يبيعون بالكوم ، مثل « عد » البرتقال وهو خمسة ؛ وحين يكومونه يتخذ هيئة خاصة تختلف عن الكوم المركب من

أربع أو ثلاث برتقالات . فهذه طريقة . وطريقة أخرى هي العد بالخصى الذى يشبه « البلى » ، فكما أردنا أن نعد الأيام مثلا وضعنا واحدة فى مكان خاص وأضفنا إليها أخرى كلما مر يوم ، وهكذا . وقد عبر الإنسان قديما عن طريقة العد كتابة بما يدل على هذا الأصل المحسوس . ولكن فيثاغورس فطن إلى وجود صلة وثيقة بين العدد والشكل الهندسى ، فكانت الأعداد أشكالا : الواحد نقطة ، والاثنان خط ، والثلاثة مثلث ، والأربعة مربع ، كما يتضح من الرسم ، سواء اتخذنا الرمز حروفاً أبجدية أو نقطا .

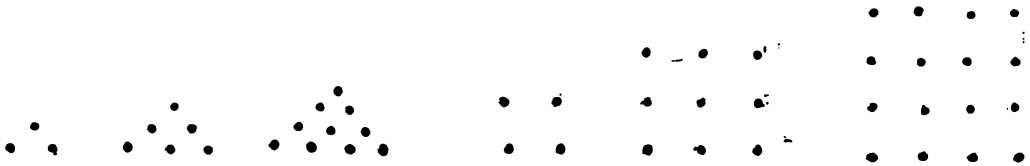
		a	aa	a	aa
•	••	•••	••••	aa	aa

ومن الأشكال التى كانت لها دلالة خاصة عند فيثاغورس ، وكان أتباعه يعدونه مقدسا ويحلفون به ، مثلث العدد أربعة ، ويدل من النظر إليه على أنه مجموع الأعداد من ١ إلى ٤ ، أى $1+2+3+4=10$ وكانوا يسمون هذا الشكل تتراكليس Tetraktys



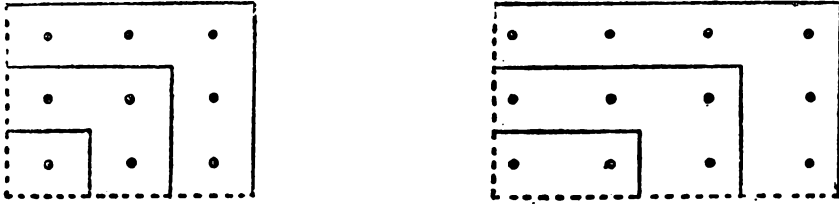
وهناك أعداد ثلاثية أى تتجمع فى مثلث مثل الأعداد ٣، ٦، ١٠، ١٥، ٢١.

وهناك أعداد رباعية مثل ٤، ٩، ١٦، ٢٥ .



والأعداد الشكلية أو الهندسية منها أربعة ومنها مستطيلة، وكلما أضيفت الأعداد

الفردية على هيئة زاوية gnomon إلى الشكل ، أنتج الأعداد الرباعية ، وكلما أضيفت الأعداد الزوجية أنتجت الأعداد المستطيلة ، كما هو واضح من الشكل .



والأعداد منها فردية ، ومنها زوجية ، أما الزوجية فيمكن أن تنقسم ، مثل ٨ إلى ٤ ثم إلى ٢ ثم إلى ١ . والواحد هو أصل الأعداد ، وبجمعه تتكون الأشكال الأخرى كما رأينا .

فالأعداد عند فيثاغورس لها شكل أو هيئة *eidōs* ، وهذه اللفظة (إيدوس) التي أصبحت تدل عند أفلاطون على المثال ، وعند أرسطو على الصورة ، قديمة قِدَم فيثاغورس ، ويذهب «تيلور» إلى أن استعمالها الفيثاغوري بمعنى الشكل الهندسي كان الأصل في المثال عند أفلاطون. ولكن جلسبي *gillespie* ينتهي من دراسته إلى أن لفظة إيدوس كانت تستعمل في معنيين أحدهما طبيعي والآخر منطقي. فالعنى الطبيعي هو شكل الجسم الخارجى ، وقد تقال على الطبيعة الداخلية *physis* . والمعنى المنطقي يقال على النوع الذى يشمل أفرادا كثيرين ، كما تقول هناك ثلاثة أنواع من الأشجار فى الحديقة ، زيتون وبرتقال وورد . وفى زمن سقراط كانت لفظة «إيدوس» تطلق على المعنيين ، وأخذ سقراط بالمعنى الثانى فى تعريف الفضائل المختلفة . والأصل اللغوى لايدوس من الفعل اليونانى *idein* أى يرى ، فإيدوس تدل على الشكل المرئى بالمعين ^(١) .

جملة القول ذهب فيثاغورس إلى أن الهيئة الرياضية للأشياء هى الأصل فيها ، وحيث إنه كان يُوحّد بين الأعداد والأشكال الهندسية ، إذ لم ينفصل الحساب عن الهندسة إلا فى عصر أفلاطون ، فلا غرابة أن يذهب إلى أن أصل الأشياء هو الأعداد ،

وذلك على خلاف المدرسة الأيونية التي جعلت المادة كالماء أو الهواء أصلاً للموجودات. غير أن هذه المادة ، وبخاصة عند أنكسمندريس ، لا نهائية لا كيف لها ولا كم ، وهى كذلك عند أنكسمانس لا حد لها من جهة الكم . فكيف تحددت الموجودات المحسوسة التى نشاهدها كهذه الشجرة وهذا الحصان من هذه المادة الأولى اللامحدودة ؟ الواقع نحن لا نجد عند الأيونيين جواباً شافياً ، ولا يكفى القول بالانضمام والانفصال ، أو التكاثف والتخلخل ، فى بيان العلة فى « تحديد » الأشياء . وهنا نرى الجواب واضحاً عند فيثاغورس ، ذلك أن الشكل الهندسى « محدود » كالثلث أو المربع أو المستطيل أو أى شكل آخر من هذه الأشكال ، وحدوده هى هذه الخطوط الخارجية . وهذا الشكل ثابت ينطبق على جميع الأفراد . وقد تطور هذا الشكل عند أفلاطون فأصبح المثال ، وعند أرسطو فأصبح الصورة . وهذا هو فضل فيثاغورس فى تاريخ الفلسفة إذ استطاع أن ينزع الصورة المحدودة من المادة اللامحدودة ، مما عجز عنه الطبيعيون الأولون ، أو قل إن المدرسة الأيونية ركزت اهتمامها فى المادة فقط على حين أن فيثاغورس انصرف إلى الصورة وحدها .

يتضح مما سبق أن فيثاغورس كان لا يزال يخلط بين الحساب والهندسة ، وقد رأينا كيف يجعل الفيثاغوريون الثلاثة مثلثاً ، والأربعة مربعاً وهكذا ، وذلك بالخصى أو النقط . وتسمى هذه النقط الحدود horoi للشكل ، والمساحة التى تشغلها هذه النقط هى السطح chara . ومن المأثور أن فيثاغورس اهتدى إلى أن الأعداد ٣ ، ٤ ، ٥ على التوالى تؤلف مثلثاً قائم الزاوية ، ومن هنا جاءت نظرية فيثاغورس المشهورة ، والتى لا تزال تعرف باسمه حتى اليوم ، وهى أن مربع الوتر يساوى مجموع مربعي الضلعين فى المثلث قائم الزاوية . وأكبر الظن أنه اهتدى إليها بطريقة عملية لأن لفظ الوتر تدل فى الأصل على « الخيط » الذى يلف حول الشئ hypotenuse

الموسيقى :

[٥٠] بقى أن نفهم معنى قوله « العالم نعم » ، مما يقتضى البحث فى الموسيقى ، التى ردها فيثاغورس إلى التناسب العددى ، فكان صاحب الفضل فى إقامة مبادئ ذلك العلم أيضا . ومما يروى فى سبب اهتدائه ، وهى قصة تنسب إلى كثيرين نزويها لطرافتها دون الوثوق من صحتها التاريخية ، أنه كان يمشى يوما فى السوق فسمع حدادا يهوى بمطرقة على الحديد ، ووجد لرنين المطرقة التى تقطع زمنا متساويا ضربا وإيقاعا ، فطبق ذلك على الموسيقى .

كان الإغريق فى زمن فيثاغورس يعزفون على القيثارة المركبة من سبعة أوتار ، ثم ضم إليها وتر ثامن فيما بعد . وكانت جميع الأوتار متساوية الطول ، وتحدث النغمة المطلوبة إما بشد الوتر أو رخيه ، وذلك سماعاً بالأذن . فيضبط أول وتر وآخر وتر بحيث يقطبا قن ولكن أحدهما يحدث نغمة رفيعة والآخر النغمة نفسها ولكنها غليظة . ويسمى الوتر الأول نيتى nete ، والآخر هيپاتى hypate ، ثم يكون الوتر المتوسط ويسمى mese ، ثم الوتر الذى يليه يسمى paramese . وهذه الأوتار الأربعة ثابتة ، وتناسب فيما بينها بحسب السلم الموسيقى . أما الأوتار الثلاثة الباقية فهى متحركة وتختلف عن أقرب وتر منها بما يعرف بربع المقام . والآن بعد هذه المقدمة اليسيرة الممهدة لبيان تناسب الموسيقى ، نقول إن فيثاغورس اكتشف أن اختلاف النغمة تابع لاختلاف طول الوتر ، وذلك طبقا لتناسب عددى . وأكبر الظن أنه كان يستعمل لتقصير الوتر الآلة المسماة مونوكورد monochord ، ولو مثلنا الأوتار الأربعة الثابتة بالنسب العددية لكانت النتيجة

كما يأتي :

Nete	Paramese	Mese	hypate
Mi	Si	La	Mi
٦	٨	٩	١٢

فالوتر الغليظ المسمى « هيباتى » ، بالنسبة للوتر الرفيع « نيتى » يساوى

٢ : ١ .

ونسبة « النيتى » إلى « الميسى » تساوى ٣ : ٢ .

ونسبة « الهيباتى » إلى « الميسى » تساوى ٤ : ٣ وهكذا ، بحسب طول الوتر

إلى الآخر .

فإذا نظرنا إلى هذه النغمات الأربع ، وهى الحدود horoi] كما رأينا فى حدود

الأشكال العددية [، وجدنا أن الرقين ٨ ، ٩ لهما نسبة بالرقين ٦ ، ١٢

على أنهما المتوسطان . فالرقم ٩ ، وهو يمثل النغمة « ميسى » يزيد بما مقداره واحد

عن الذى بعده ، ويقل عن الآخر بمقدار واحد ، فيكون هكذا ١٢ : ٩ : ٦ يساوى

٤ : ٣ : ٢ . وتسمى « ميسى » بالوسط الرياضى . أما العدد ٨ فيزيد وينقص

عن الحدين بنفس الكسر $8 = 12 - \frac{12}{3} = 6 + \frac{6}{3}$ ويسمى الـ « باراميسى »

بالوسط الهارمونيكى .

ويسمى الزمن بين الهيباتى والنيتى دياباسون diapason باليونانية ، ويعرف

الآن بالأوكتاف octave فى اللغات الحديثة ، أى الجواب .

الخلاصة أن التناسب فى الموسيقى يرجع فى أساسه إلى وجود « وسط » بين

نعمتين مختلفتين ، أو بين ضدين . ونحن نعرف أن مشكلة الأضداد احتلت جانباً كبيراً عند تفكير الفلاسفة الطبيعيين قبل فيثاغورس . وحل أنكسمندريس هذه المشكلة حلاً أسطورياً بعض الشيء ، وذهب إلى أن اعتداء ضد على آخر « ظلم » يذبني التكفير عنه ، وأنه لا بد من وجود وسط عدل بين الأضداد . واهتدى فيثاغورس إلى هذا الوسط بطريقة رياضية كما رأينا في النعمة الغليظة والرفيعة . وهذه النعمة وجوابها إذا ضربا على التعاقب أحدثا اثتلاقاً هو المسمى باليونانية هارمونيا . واللفظة تدل في أصلها على النغم المؤلف على التعاقب ، لا كما تدل الآن على النغم المختلف الذي يضرب في آن واحد ويحدث نغماً مؤتلفاً .

ويفسر برنت في كتابه « الفلسفة الإغريقية من طاليس إلى أفلاطون » الأصل في فكرة الامتزاج بين الأضداد بالعادة المألوفة عند اليونانيين من قيام رب الدار بمزج الخمر بالماء قبل تقديمه للضيوف على المائدة ، وهذا المزيج Krasis يعتمد على نسبة خاصة . والأمر كذلك في النسبة بين الأنعام ، بل في كل شيء . فلا غرابة أن يذهب فيثاغورس إلى أن كل شيء عدد ونغم ، أي مركب بنسبة عددية ثابتة .

الطب :

[٥١] ويقوم الطب الفيثاغوري على فكرة التناسب بين الأضداد ، فالجسم مركب من الحار والبارد والرطب واليابس ، ومن واجب الطبيب أن يهيئ أفضل مزيج بينها . وقد نشأت في كروتون مدرسة طبية مشهورة ، أقدم من زمان فيثاغورس ، ثم اندمجت بتعاليمه . وعلى أي الحالات فنحن لا نعرف من آراء تلك

المدرسة إلا ما جاء عن ألكمايون Alkmaion أحد تلاميذ فيثاغورس . وألف ألكمايون كتاباً في الطبيعة مما يشعرنا بأثر المدرسة الأيونية ، ولعله كان لاجئاً من آسيا الصغرى هجرها بسبب استعمار الفرس مثل غيره من المفكرين الأحرار . وتعتمد نظريته في الطب - ويمكن القول إن أساسها موجود عند فيثاغورس - على أن الصحة هي أوزان قوى الجسم isonomia dynameon ، فإذا تغلبت إحدى القوى اختل توازن الجسم ، وحدثت حالة موناركية monarchia ، أى سلطان قوة واحدة ، وهذا هو المرض . و بمعنى آخر يحدث الاتزان من اعتدال الأضداد وامتزاجها امتزاجاً مؤتلفاً يكون منه الهارمونيا harmonia ، التى صادفناها فى الأنغام . ويعنى الطبيب فى إحداث هذه الحالة بأمرين هما الغذاء والمناخ . فالاعتدال فى الغذاء يعنى تناول أطعمة مختلفة بنسب خاصة ، كما يمزج الخمر بالماء . وقد يعنى للتوسط بين الإفراط والتفريط . واعتدال المزاج هو التوسط بين أخلاط الجسم أى الحار والبارد والرطب واليابس ، كما يحدثنا ميمياس فى محاوره فيدون ، نقلاً عن الفيثاغوريين ، من أن الجسم ينبغى أن يشد كما تشد الأوتار فى القيثارة ، فتكون صحة البدن وهى التناسب ، كالنغم الصادر عن القيثارة .

الفلك :

[٥٣] وقد ساد الاعتقاد عند الفيثاغوريين بأن الأرض كروية ، وأنها كوكب يدور حول الشمس ، ولو أن المرجح اعتقاد فيثاغورس نفسه بأن الأرض مركز العالم ، أما القول بدوران الأرض حول الشمس فمن الأفكار المتأخرة عند المدرسة ، والتى لم يقدر لها السيادة فى الزمن القديم .

وقد رأينا أن المدرسة الأيونية وبخاصة أنكسمانس ذهبت إلى أن الأرض أشبه بقرص يطفو على الهواء . ولعل فيثاغورس اهتدى - كما يقول سارتون - إلى كروية الأرض من النظر إلى السفينة وهي في عرض البحر ، فوجد الصارى يبرز أولاً مما يدل على أن سطح البحر ليس مسطحاً بل منحنيًا . والأجرام السماوية كروية ، والأفلاك التي تدور فيها الأجرام السماوية دائرية ، وهي لا تجري على هواها بل في مدار ثابت وحرارة رياضية منتظمة .

ومع أن فيثاغورس قد اختلف عن المدرسة الأيونية في بعض النظريات الفلكية ، إلا أنه أخذ بكثير من آرائهم ، فذهب مثل أنكسمانس إلى أن العالم يتنفس الهواء الموجود خارج العالم . وأخذ عن أنكسمندريس فكرة الأفلاك الثلاثة الشبيهة بالحلقات ، فلك الشمس والقمر والنجوم ، ولكنه أضاف إليها ، أو طبق عليها التناسب الرياضي الموسيقى ٢ : ٣ : ٤ فالبعد بين الأفلاك يقوم على فواصل متناسبة موسيقية ، وتخرج من الكواكب أنغام مختلفة بينها ائتلاف (هارمونيا) . وفي ذلك يقول هيبوليتوس « ذهب فيثاغورس إلى أن العالم يغنى ، وأنه مركب من التناسب . وكان فيثاغورس أول من رد حركات الكواكب السبعة إلى الوزن والنغم » . وهنا نشير إلى الصلة بين الكواكب السبعة ، وبين الأوتار السبعة في القيثارة . وكانت للأعداد عند فيثاغورس ومدرسته دلالات ، فالعدد سبعة - كما يقول أرسطو - كان يدل على الزمن المناسب Kairos ، كما كان العدد ٤ يدل على العدل ، والعدد ٣ على الزواج ، وهكذا . وذهب المتأخرون من الفيثاغوريين إلى أن العدد ٧ أكمل الأعداد لما له من خواص ذكروها ، وقد نقلها عنهم أصحاب رسائل إخوان الصفا في رسائل العدد .

ولما كان فيثاغورس يعد عالم السماء أكمل من عالم الأرض ، نظراً لأن حركة الأول دائرية ، وحركة الأشياء الموجودة في عالم ماتحت فلك القمر مستقيمة ، فهناك إذن عالمان مختلفان أحدهما أسمى من صاحبه . وذلك على العكس من المدرسة الأيونية التي قالت بمبدأ واحد ، وكانت واحدة في الفلسفة . وقد استمرت هذه الفسمة للعالم فيما بعد ، فأخذ بها أرسطو في طبيعياته ، وكذلك فلاسفة المسلمين وعلماءهم في العصر الوسيط ، ثم فلاسفة أوروبا حتى عصر جاليليو نفسه .

جملة القول إن فكرة التناسب كما طبقت في الموسيقى والطب طبقت كذلك في الفلك ، فكان التناسب ، وهو الوسط الرياضي ، جوهر الأشياء وأصلها . وهذا هو تفسير قول فيثاغورس إن العالم عدد ونعم .

أثره :

[٥٤] وقد امتد أثر فيثاغورس الفلسفي في زمانه ، واستمر بعد زمانه ، ففي القرن الرابع قبل الميلاد أخذ أفلاطون بتعاليمه ، وجعل الهندسة باباً ينفذ منه إلى الفلسفة ، وشرطاً ضرورياً في بلوغها ؛ واستمرت أكاديمية أفلاطون حول تسعة قرون تفسر الكون تفسيراً رياضياً . ولكن الفلسفة الأرسطية القائمة على التفسير الطبيعي هي التي سادت في العصر الوسيط . ومع ذلك نفذت الفيثاغورية في ظلمة القرون الوسطى فأشرقت عليها ، وكان لتعاليمهم أثر فعال في إخوان الصفا بوجه خاص . وأثرت كذلك في كل فلسفة عدت النفس جوهرًا مباينًا للجسم ، تحل فيه ، وتحتاج إلى التطهير بالزهد والرياضة . ومع أن ابن سينا قد أخذ في رسائل النفس التي كتبها في « الشفاء » ، واختصرها في « النجاة » ، ثم كتبها مستقلة في رسالة « أحوال

النفس » بمذهب أرسطو من أن النفس صورة الجسم الحى تفنى بفنائه وتوجد بوجوده ، غير أنه فى قصيدته العينية المشهورة يحذو حذو المذهب الفيثاغورى حين يقول :

هبط إليك من الحل الأرفع ورقاء ذات تدلّل وتمنع

وقد أثر فيثاغورس فى الفكر البشرى حتى اليوم ، فهو يلتمس الحقيقة فى المعرفة الرياضية ، لأنها يقينية ، ومضبوطة ، ومنطبقة على العالم الحسى ، ومفسرة له ، ومستمدة من العقل ذاته لا من المشاهدات الحسية . وفى محاوره فيدون إشارات كثيرة إلى ذلك ، فنحن لا نستمد مبدأ المساواة من النظر إلى الأشياء المتساوية ، ولا فكرة الكبر والصغر من مشاهدة الأشياء الكبيرة والصغيرة . وأن الخادم الذى لم يتلق أى تعليم يستطيع أن يهتدى إلى المبادئ الرياضية فى الحساب من تلقاء نفسه ، أى من طبيعة عقله . وهذا هو الذى جعل كثيرا من الفلاسفة المحدثين يذهبون إلى أن البديهيات مثل أن الكل أعظم من الجزء ، وأن الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية ، هى من طبيعة العقل وليست مكتسبة بالتجارب والملاحظات . ونحن اليوم نرى أن المثل الأعلى لجميع العلوم هو صياغتها فى قوانين ومعادلات رياضية ، وأن المنهج الرياضى هو المنهج السائد فى كثير من العلوم ، وهو المنهج الذى اعتمد عليه ديكارت فى الفلسفة ليبلغ اليقين . ويقول برتراند رسل إن البديهيات التى تعد أساس المنهج القياسى أثرت فى أفلاطون حتى كانط ، وأن الفلاسفة الذين نادوا فى القرن الثامن عشر بنظرية الحق الطبيعى إنما طبقوا البديهيات الرياضية على السياسة . كما أن نيوتن فى مبادئه كان متأثرا بأقليدس ، الذى اعتمد بدوره على فيثاغورس . بل إن علم اللاهوت المسيحى الذى يبدو فى صورته المدرسية دقيقا مضبوطا إنما ينبع من

المصدر نفسه . ثم أن الرياضيات هي أهم مصدر في الاعتقاد بوجود حقائق أزلية صحيحة تخص العالم العقلي وأسمى من العالم المحسوس ^(١) .

هذا فضلا عن أن فيثاغورس جمع بين العلم الرياضى وبين الحقائق الدينية ، مما نجده عند كثير من كبار الفلاسفة مثل ديكارت وسينوزا وكانط ، نفى هذا المزيج بين سمو الأخلاق والجلال المنطقي . فلا غرابة أن يقول برتراند رسل : « إني لا أجد شخصا غير فيثاغورس كان له أثر يماثله في عالم الفكر ، لأن ما يبدو لنا أفلاطونيا نجده في جوهره عند التحليل فيثاغوريا » .

حياته :

[٥٥] جرت عادة المؤرخين أن يصلوا بين بارمنيدس وبين زينوفان ، وأن ينسبوا إليه أنه مؤسس المدرسة الإيلية . ولكن الدراسات الحديثة أوضحت خطأ هذا الزعم . فهو لا يعدو أن يكون من جملة الأحرار الذين آثروا هجرة أيونية حين شعروا بضغط المستعمرين عليها ، وهذا ما فعله فيثاغورس من قبل ، ولكن فيثاغورس سلك حياة تختلف عن حياة زينوفان ، فقد آثر أن ينحو نحو العلم الرياضي ، وأن يجدد في الدين وأن يتمسك به ، وأن يعلم الناس خاصتهم وعامتهم ، ويهذب نفوسهم . أما زينوفان فقد اتجه نحو الدين القديم المأثور يهدمه ولم يحاول أن يضع بناء جديداً لدين جديد .

ونحن نعرف عن زينوفان - على عكس معظم الذين سبقوه - الشيء الكثير عن حياته وعن فلسفته ، وذلك مما بقي لنا من أشعاره ، التي أودعها إشارات نستطيع أن نعرف منها سيرته على وجه التحقيق .

نشأ في مدينة قولوفون Colophon إحدى مدن أيونية ، ورحل كما يقول وهو في الخامسة والعشرين من عمره . فإذا عرفنا أن تلك المدينة وقعت في يد الفرس عام ٥٤٥ تبين أنه ولد عام ٥٧٠ ، ويقع عام ازدهاره سنة ٥٣٠ ق . م ؛ ويذهب تيبايوس المؤرخ الصقلي إلى أنه كان معاصراً لهيرون ملك سراقوسة والذي حكم من ٤٧٨ إلى ٤٦٧ . وكان زينوفان من العمرين قد عاش حتى بلغ الواحدة والتسعين .

ويقال إنه طلب العلم على أنكسمندريس ، ومهما يكن من شيء فقد كان متأثراً بفلسفة الطبيعيين . ومحدثنا في أشعاره أنه ظل أكثر من ستين عاماً يتجول دون أن يستقر في مكان معين . ومن جملة البلاد التي زارها إيليا ، ولكنه لم يتخذها وطناً .

شعره :

[٥٦] وهو أول من اتخذ الشعر أداة للتعبير عن أفكاره . وكان المهود في ذلك العصر أن يُنشد الشعر على الناس ، والمعروف أن زينوفان كان ينشد شعره الذي ينظمه بنفسه . ولكن الجديد في ذلك الشعر أنه لم يتحدث فيه عن أعمال الآلهة ، أو أعماله الخاصة ، بل كان نظراً إلى العالم بأسره ، تحدث فيه عن الدين والظواهر الطبيعية وأصل الأشياء والحقيقة والظن . ولكنه لم يرتب هذه الأفكار بحيث تكون مذهباً فلسفياً ، ومن أجل ذلك لم يعده أرسطو حين تحدث عنه من جملة الفلاسفة . والواقع أنه لم ينظم فلسفته مرتبة كما فعل هزiod من قبل ، أو بارمنيدس من بعد .

الحق كان زينوفان شاعراً متجولاً rhapsodist . وكان الشعراء في ذلك العصر يتخذون من الإنشاد حرفة ، وبخاصة شعر هوميروس وهزiod . ويزعم « جومبرز » أنه كان ينشد أولاً وقبل شيء أشعار هوميروس ، ثم يتبعها بشعره الخاص . ويعترض « بيجر » على هذا الزعم بأن شعر زينوفان يحوى طعناً على هوميروس ، فلا يستقيم إنشاده على الناس ، ويفسر هذه الظاهرة بأنه كان يتكسب من إنشاد هوميروس على العامة في الأسواق ، ثم يلقي شعره

الخاص الذى يهاجم فيه هوميروس وآلهة اليونانيين على الخاصة الذين يدعونه إلى
مآذهم ليلا .

ولم يكن زينوفان يجهل أثر هوميروس فى الحضارة اليونانية ، ومن أقواله
« لقد تعلم جميع الناس على هوميروس منذ نشأتهم ^(١) » فلما أراد أن يهدم هذه
الحضارة ، لم يجد إلا هوميروس يركز هجومه عليه باعتباره ممثلا لها . فهو وهزيود
ينسبان إلى أساطير الآلهة كل شيء ، فيتعلم النشء عنهما ، مع أن وصفهما للآلهة
مشين ، إذ يضيفان إليهم جميع نقائص البشر . وهذه هى الفكرة التى أخذ بها أفلاطون
فى الجمهورية وطالب بأن يحذف من قصائد هوميروس وهزيود ما يتعلق بالآلهة حتى
لا ترسخ هذه العقائد فى قلوب الصبيان .

الله :

[٥٧] وقد اعتقد كثير من المؤرخين أن زينوفان نادى بإله واحد ، فكان
بذلك من الموحدين ، ومن أصحاب المذهب الواحدى فى الفلسفة ، وتصوروا أنه كان ينشد
« الواحد ^(٢) » مثل بارمنيدس . الواقع أنه عارض بين العقل وبين الآلهة الميثولوجية ،
أو أنه هدم هذه الآلهة ، ولكنه لم يقم إلهاً جديداً يحل محلها ، ولم يصف هذا الإله .
فقد جاء تعدد الآلهة من اختلاف الشعوب وتعدد المدن ، فشبهت كل مدينة الإله

(١) هذا النص وما بعده عن ترجمة برنت للنصوص ، وعن ويجر .

(٢) يرى برنت أنه كان ينشد الله الواحد ، وأنه قوله بآلهة كثيرة فى نفس العبارة ليس إلا
من قبيل السخرية بآلهة هوميروس — ويناقد ويجر هذا رأى وينصر القائلين بالتعدد مثل رينهارت
وبذلك يكون بارمنيدس مستقلا فى فلسفته .

على حسب تقاليدھا في الملبس والهيئة ، « فالأحباش يجعلون آلهتهم سود البشرة
فطس الأنوف ، ويقول أهل تراقيا إن آلهتهم ذوو عيون زرقاء وشعر أحمر » .
فالناس يصنعون الآلهة على مثالهم ؛ أكثر من ذلك : « لو أن البقر والخيول والأسود
كانت لها أياد تستطيع أن ترسم بها وتصنع آثارا فنية كالإنسان ، لنقشت
الخيول الآلهة في هيئة الخيول ، وكذلك البقر ، وجعلت أبدانها على صورة أنواعها
المتعددة » .

إذن فما صفة الإله ؟ « إنه إله واحد ، وهو أعظم الآلهة والجميع ، ولا
يشبه في هيئته أو عقله أي واحد من البشر » . ونحن نجد من هذا النص أنه يسلب
عن الله الصفات ، ليس كمثل شيء ، كما فعل بعض المعتزلة من علماء الكلام عند
المسلمين الذين لم يثبتوا لله أي صفة ، ولكنهم سلبوا عنه تعالى صفات النقص أو
العدم . ونلاحظ كذلك أنه يقول بإله واحد إلى جانب الآلهة الأخرى . ويصفه في
نصوص أخرى بأنه سمع خالص وبصر خالص ، كله عقل « موجود في كل مكان
بغير أن يتحرك ، إذ لا يليق به أن يتحرك من مكان إلى آخر وأن يغير موضعه » .
فهو ينتقد تصوير هوميروس للآلهة التي تتحرك وتسعى . والإله عند زينوفان
« يحرك جميع الأشياء بقوة العقل وحده » . وهذا يذكرنا بإله أرسطو وهو الحرك الذي
لا يتحرك ، والذي هو عقل محض .

بقيت مسألة آثارها زينوفان وكان لها أهمية كبيرة في تاريخ الفلسفة اليونانية ،
نعني سبيل المعرفة . ما الطريق إلى معرفة هذا الإله ؟ ما حقيقة الإله ؟ مع العلم أن
الصفات التي يصف بها هذا الواحد مطلقة لا حد لها ، تشبه هذه المادة اللانهائية التي
قال بها أنكسمنديس . يجب زينوفان أن أحداً من البشر لا يستطيع أن

يعرف الله ، لأن معرفتنا تقف عند حد الظن فقط . ولعل هذه الإشارات هي التي كانت أساس نظرية السفسطائيين في آخر القرن الخامس عن استحالة المعرفة الصحيحة .

أما في الأمور الطبيعية فكان متابعا للمدرسة الأيونية ، ولم يأت بجديد في تفسير الأجرام السماوية وتكوين الموجودات الأرضية . ولا يعد كلامه عنها فلسفيا .

اختلاف المفسرين :

[٥٨] يختلف المؤرخون اختلافا عظيما فيما بينهم على تفسير فلسفة هرقليطس فقد ذهب القدماء وعلى رأسهم أرسطو أنه من جملة الطبيعيين الأولين ، لأنه نشأ في أيونية ، ولأنه قال بالنار علة أولى للأشياء . وعلى هذا انحنو عنه رواة الآراء الذين لخصوا مذاهب الفلاسفة الأقدمين ، ابتداء من الرواقيين الذين تأثروا به وأخذوا بفلسفته في الاحتراق العام ، أو المتأخرين عنهم الذين اكتفوا بقولهم : إنه من الماديين وإن مذهبه هو النار ، وعندهم أخذ المؤرخون العرب هذا الرأي . حتى إذا كنا في العصر الحديث رأينا بعض المؤرخين يتابعون التفسيرات القديمة ، ويسلكون هرقليطس في جملة الطبيعيين الأولين ، مثل جومبرز ، وإلى حد ما زلار وبرنت ، ويوسف كرم وريفو^(١) . فلما نُشرت نصوص هرقليطس ، وانقطع المؤرخون لدراستها خرجوا بنتائج جديدة ، . وأول من فسره تفسيراً جديداً هيجل الفيلسوف الألماني ، الذي صاغ فلسفته في الصراع بين الأضداد على مثاله . ويفضل معظم المحدثين أن يدرسوا هرقليطس على حدة دون ضمه إلى المدرسة الأيونية ، بعد زينوفان ، لأنه يتوسط بين زينوفان وبارميندس .

الواقع كانت فلسفته متعددة الجوانب، وهذا يرجع إلى كتابه الذي ينقسم ثلاثة أقسام ، فلسفي ، وسياسي ، وديني . أما القدماء فقد نظروا إليه من الجانب الفلسفي

(١) مع أن ريفو في كتابه تاريخ الفلسفة قد ألفه عام ١٩٤٨ إلا أنه يؤثر أن يجعل النار محور فلسفة هرقليطس ، ولا يرى تعاضداً بينه وبين زينوفان بل يراه مكملاً وامتداداً له .

وحده ، بل من الجانب الطبيعي في تفسير أصل العالم . ولعلمهم رأوا أن ذلك الجانب هو أبرز جوانبه . على حين أن المحدثين - بعد النظر إلى المقطوعات الباقية من كتابه وهي لا تكني في الحكم عليه حكما صحيحا كاملا - أولوا فلسفته تأويلا جديدا .

حياته :

[٥٩] نشأ هرقليطس Herakleitos في مدينة إفيسوس Ephesos إحدى المدن الأيونية الاثنتي عشرة . وقد أسسها المستعمرون من الإغريق حول عام ١٠٠٠ ق م ، وازدهرت من الاشتغال بالتجارة ، وزادت شهرتها بعد قضاء الفرس على ملطية عام ٤٩٤ . واتصلت المدينة بالحضارات الشرقية وبخاصة البابلية ، واتخذوا أرطيمس Artemis إلهة لهم ، وهي ربة الخصب والتناسل والأمومة ، وأفاموا لها معبدا جدد عدة مرات آخرها عام ٥٤٠ ، واشترك الملك قارون في بنائه ، حتى أضحى أبهى معابد اليونان ، وعد من جملة العجائب السبع .

وكان هرقليطس ^(١) يشغل منصب الكاهن الأعظم في هذا المعبد ، ويسمى هذا المنصب باسيلوس Basileus ولنا نعرف ماهية المنصب على وجه التحقيق ، ولكنه كان وراثيا في أسرته ، ويخول لصاحبه منزلة وشرفا ، ثم تنازل هرقليطس عنه لأخيه ، واعتزل في الجبل زاهدا يأكل الحشائش .

أما نسبه فهو ابن بليسون أو بلوسون ^(٢) Blyson , Bloson وجده أندروكليس الذي ينتسب إلى كودرس مؤسس مدينة إفيسوس . وظل الملك محصورا في أسرته زمنا طويلا . ولعل هذا يفسر ما أثر عنه من تكبر على أقرانه .

(١) حياة هرقليطس مستقاة عن ديوجين لايرتوس والرواة المتأخرين ، وصحتها التاريخية موضع شك .

(٢) يرجع برفت كتابة الاسم بلوسون ليكون قريبا من الرسم الأيوني .

وليس مولده أو وفاته معروفًا ، ولكنه زها عام ٥٠٠ ق . م ، بعد فيثاغورس وزينوفان حيث يشير إليهما في شعره ، ويروي عن فيثاغورس أنه سمع كلبًا يعوى فعرف فيه صوت صديق له ؛ وقبل بارمنيدس الذي يشير إليه بدوره . ويحدد ديوجين لايرتوس وقت ازدهاره في الاوليمبياد التاسع والستين أى بين عامى ٥٠٤ ، ٥٠١ ق . م . فى حكم دارا الأول ، الذى امتد حكمه من عام ٥٢١ إلى ٤٨٥ ق . م . وقيل إن دارا دعا هرقليطس إلى الإقامة فى بلاطه ، غير أنه رفض الدعوة ، وكتب إليه يقول : « إننى أرهب المظاهر ، فأرجو قبول عذرى فى التخلف عن الذهاب إلى فارس ، وأنا رجل زاهد أقنع بالقليل ، ولا حاجة لى إلا بما يزود عقلى ^(١) » .

ويذهب « جومبرز » إلى أن هرقليطس باعتبار أنه كان من الأسرة المالكة كان يطمع فى العرش ، ومع أنه تنازل عن حقوقه لأخيه ، غير أنه كان يتدخل بين حين وآخر فى السياسة وفى حقوق العرش ، وأنه طلب من الأمير ميلانكوماس Melancomas التخلّى عن الحكم الذى اغتصبه بغير حق ^(٢) .

ويقال إنه نفّض يده من الاشتغال بالسياسة سخطا على دستور إفيسوس ، واعتزل من أجل ذلك فى الجبل . ثم شجع أهل بلده على محاربة الفرس وحثم عليها قائلا : إن من يطلب النصر فعليه بالصبر على الشهوات وكبح جماح النفس . وهو ينعى على أهل وطنه تخليهم عن هرمودورس حين نفاه دارا من إفيسوس ، مما يدل على روحه الوطنية العالية .

(١) أورد ديوجين لايرتوس خطابين لهرقليطس بتمامهما عند الكلام على سيرته . ويشك برنت فى صحتها ، وأكبر الظن أنها منتحلان .

(٢) جومبرز : مفكرو الاغريق ، المجلد الأول . الترجمة الانجليزية طبعة ١٩٤٩ ، ص ٦٠ .

ويرى سوتيون أن هرقلطس أخذ العلم على زينوفان ، وقد رأينا أن ريفو
يقبل هذه الرواية ، ولكن برنت يرفضها على أساس أن زينوفان ترك أيونية قبل
أن يولد هرقلطس . ويرجح أنه علم نفسه بنفسه ، فاطلع على مذاهب الطبيعيين ،
وعلى فلسفة فيثاغورس ، وعلى قصيدة زينوفان . وقيل إنه تعلم على يد هيباسوس
تلميذ فيثاغورس .

كتابه وأسلوبه :

[٦٠] وقيل إنه كتب كتاباً واحداً في ثلاثة أجزاء : فلسفي وسياسي وديني ،
اسمه « في الكل » Peri tu Pantos ، وأنه وهب الكتاب لمعبد أرطيميس .
وهناك أكثر من عنوان لهذا الكتاب ، مما جعل برنت وفريمان يشكان في معرفة
عنوانه . بل إن تقسيم الكتاب موضع شك أيضاً ، ويرجح أنه من عمل الإسكندرانيين
أو الشراح الرواقيين .

وقد اشتهر أسلوب الكتاب بالغموض حتى أصبح يضرب به المثل ، بل لقد أطلق
المتأخرون على هرقلطس بسبب ذلك اسم « الغامض » أو « المظلم » ho skoteinos .
واختلف القدماء والمحدثون في تحليل هذا الغموض .

فذهب ثاوفراسطس إلى أن اضطراب الكتاب وتناقضه إنما جاء من اختلال
عقل صاحبه . ونسب أرسطو صعوبة الكتاب إلى الخطأ في وضع علامات الترقيم .
ويقول « برنت » إن العصر الذي عاش فيه هرقلطس وما ساد من حروب كان
يقتضى اتباع ذلك الأسلوب . كما أن النهضة الدينية الجديدة جعلت نغمة سائراً قطاب
الفكر توقع على قيامة الدين والتنبؤ ، كما هي الحال في بندار . هذا إلى أن العصر

كان يمتاز بظهور الشخصيات الفردية البارزة ، ومن شأن الفردية العزلة ، وهذا ما فعله هرقليطس^(١) وفي ذلك يقول في الفقرة ٨ : إذا غنى الناس بالبحث عن الذهب فقد يجدونه ؛ وإذا انصرفوا عن البحث عنه فعليهم أن يقنعوا بالقش - ٥١ .

ويفسر « زلر » غموضه بأنه كان عميق الرأى جاد الفكر شديد الازدراء لأعمال معاصريه وآرائهم ، فأثر العزلة واختط طريقا مستقلا في التفكير . ثم أودع فلسفته كتابا موجز العبارة أشبه بالأمثال القصيرة ، وهذا الإيجاز هو سر الغموض ، وهو الذى أكسبه اسم الغامض . وكان يرى أن هذا الأسلوب أجدر بكرامة صاحبه وأدل على الصورة الصادقة لأفكاره ، لأن العقل يهتدى بالبصيرة أكثر مما يستدل بالمعاني ، ويصدق بالتركيب لا بالتحليل .

ويرى « بيجر » أن هرقليطس ابتكر أسلوبا فلسفيا جديدا عظيم الأثر من حيث إنه قاطع في معناه ساطع في عبارته . ولم يبق من الكتاب إلا بعض الفقرات ، فيما أن يكون الكتاب كله كان مكتوبا على هذا النحو ، وإما أنه كان زائرا بالحكم القصيرة فاقتبسها المتأخرون واكتفوا بها . ونحن نجد مثل ذلك في حكم أبوقراط ولكنها لا تبلغ أصالة هرقليطس ، ولعل جامع أمثال أبوقراط قد احتذى حذو هرقليطس . وكانت الحكمة القديمة مأثورة في الشعر وبخاصة في قصيدة « الأعمال والأيام » لهزيود .

وذهبت « كاثلين فريمان » إلى أن غموض هرقليطس يرجع إلى أسلوبه لا إلى عجز القراء عن الفهم ، وأنه قد قصد ذلك حتى لا يتداول الكتاب إلا أهل الرأى ولا

(١) ولكننا نلاحظ أن هرقليطس هو الوحيد من قدماء الفلاسفة الذى آثر حياة العزلة ، على العكس من ذلك يمتاز فلاسفة اليونان باتصالهم بالحياة العامة ومشاركتهم لها وتأثيرهم فيها ، ومن أجل ذلك لا يصلح تفسير برنت .

يقع في يد الجمهور والعامة ، كما اتهموا سولون في زمانه بأنه كتب شرائعه غامضة حتى يعجز القضاة عن العمل . ويحكى أن أوربيدس أعار الكتاب لسقراط ثم سأله رأيه فقال : ما فهمته عظيم ، وكذلك ما لم أفهمه . هذا إلى أن هرقليطس لاعتقاده في بلادة العامة وغبايهم أراد أن يلفت أنظارهم بهذه الأقوال المتناقضة التي تهدف إلى إيقاظ الأذهان أكثر من معرفة الحقيقة .

وقد بقيت عدة فقرات من كتابه ننقلها عن ترقيم برنت وترجمته . مع العلم أن كل مؤرخ يؤثر ترجمة خاصة .

النصوص :

[٦١] (١ - ٥٠) ^(١) من الحكمة ألا تصفوا إلى بل إلى كلتي ، وأن تقولوا بأن جميع الأشياء واحدة .

(٢ - ١) ومع أن هذه الكلمة Logos أزلية ، إلا أن الناس يعجزون عن فهمها عند سماعها ، كأنهم يسمعونها لأول مرة . ذلك أن الأشياء ولو أنها تجري مطابقة لهذه الكلمة ، إلا أن الناس يبدون كأنه لا تجربة لهم بالأشياء ، عندما يصفون الأسماء والأفعال ، كما أفعل ذلك في تفسير الأشياء حسب طبيعتها ونوعها . وهناك من الناس من لا يشعرون بما يفعلون وهم أيقاظ ، كما لا يشعرون بما يفعلون وهم نيام .

(٣ - ٣٤) حين يسمع المجانين فهم كالصم ؛ ومنهم من يشهد عليهم القول بالغبية وهم وجود .

(٤ - ١٠٧) العيون والآذان شهود سيئة للإنسان إذا كانت نفوسهم تفهم دون ألسنتهم .

(٥ - ١٧) لا يفهم كثير من الناس هذه الأمور التي تقع عيونهم عليها ، ولا

(١) الرقم الكبير يدل على ترقيم برنت ؛ والصغير يدل على ترقيم فريمان .

يلحظونها حين يُعلمونها ، ولو أنهم يظنون غير ذلك :

(٦ - ١٩) الذين لا يعرفون كيف يسمعون ولا كيف يتكلمون .

(٧ - ١٨) إذا لم تتوقع مالا يتوقع فلن تجده ، لأنه صعب ويشق على البحث .

(٨ - ٢٢) ينقب الباحث عن الذهب في الأرض كثيرا ، ولا يجد إلا القليل .

(١٠-١٢٣) تحب الطبيعة أن تختفى .

(١١-٩٣) إن الإله صاحب المعجزة في دلفي ، لا يتكلم ، ولا يخفى مراميه ، ولكنه يرمز .

(١٢-٩١) إن الكاهنة Sibyl^(١) صاحبة اللسان الذي يهذى فتتطرق بكلام جاد

غير مزوق أو منمق ، تسمع الناس صوتهما أكثر من ألف عام ، بفضل الإله الذي يوحى إليها .

(١٣-٥٥) إني لأمتدح كثيرا ما يرى ، ويسمع ، ويحفظ .

(١٤ -) يؤيد حجته بشواهد كاذبة .

(١٥-١١٠١) العين أصدق خبرا من الأذن .

(١٦-٤٠) كثرة الحفظ لا تعلم الحكمة ، وإلا لتعلم هزبود أو فيثاغورس ، وكذلك

زينوفان وهيكتايوس .

(١٧-١٢٩) لقد زاول فيثاغورس بن منيسارخوس البحث أكثر من غيره ، ثم

تغير مما اطلع عليه حكمة جمعها ونسبها إلى نفسه . وهذه صناعة لا ضرر منها .

(١٨-١٠٨) لم أجد أحدا ممن سمعت مقالاتهم يذهب إلى أن الحكمة منفصلة عن

جميع الأشياء .

(١٩-٤١) الحكمة شيء واحد . إنها معرفة ما به تتحرك جميع الأشياء في

جميع الأشياء .

(٢٠-٣٠) هذا العالم Kosmos^(٢) ، وهو واحد للجميع ، لم يخلقه إله أو بشر ،

(١) في الأساطير اليونانية أن كاهنة دلفي كانت تتلقى الوحي عن زيوس .

(٢) يترجمها برنت «العالم» وقد ناقش مدلولها وذكر أنها لا تبدل على النظام order فقط، =

ولكنه كان منذ الأبد ، وهو كائن ، وسوف يوجد إلى الأزل ، إنه النار ، التي تشتعل بحساب metra (بمقياس - بنسبة) وتخبو بحساب . .

(٢١-٣١) وهذه هي الصور التي تتحول إليها النار : أولا البحر ، ثم نصف البحر أرض ؛ ونصفه الآخر أعاصير [أو ينايع prester]^(١)

(٢٢-٩٠) هناك تبادل بين النار وبين جميع الأشياء كالتبادل بين السلع والذهب ، أو الذهب والسلع .

(٢٣-٣١) وتصبح الأرض بحرا ، وذلك طبقا لنفس القانون الذي تحولت إليه الأرض من قبل .

(٢٤-٦٥) [النار هي] الحاجة والإشباع .

(٢٥-٧٦) النار تحيا بموت الأرض ؛ والهواء يحيا بموت النار ؛ والماء يحيا بموت الهواء ؛ والأرض تحيا بموت الماء .

(٢٦-٦٦) عندما تغلو النار على جميع الأشياء فإنها سوف تحكم عليها وتدينها .

(٢٧-١٦) كيف يخفى الإنسان مما لا يسكن أبدا ؟ .

(٢٨-٦٤) البرق [أى النار] يحرك العالم [جميع الأشياء] .

(٣٠-١٢٠) الدب^(٢) عبارة عن حدود الصباح والمساء ، وفي مقابل الدب حدود أنوار زيوس رب السماء الصافية .

(٣١-٩٩) لو لم تكن الشمس موجودة لساد الليل ، لأن النجوم تستمد ضوءها منها

= حتى تستقيم مع فكرة النار فيما بعد . ويقول إن استعمال اللفظة في هذا المعنى فيثاغورى - أما كاثلين فريمان ، فقد ترجمت اللفظة « العالم المنظم » فجملت بين الدالتين .

(١) هذه الفقرة مجزأة عند برنت إلى رقم ٢١ ، ٢٣ - وعند فريمان في رقم ٣١ . أما عن ترجمة « بريستير » فقد اختلف في ترجمتها عن اليونانية ، وناقشها برنت مناقشة طويلة ص ١٤٩ عند الكلام عن الآثار الجوية في فلسفة هرقليطس ، ورجح أنها تعنى الهواء الساخن ، Whirlwind لا الينابيع Water - Spout كما ترجمتها فريمان .

(٢) يريد بالدب : مجموعة النجوم المعروفة بهذا الاسم .

(٣٢-٦) تتجدد الشمس كل يوم

(٣٣-٣٨) تنبأ طاليس بكسوف الشمس [فريمان : طاليس أول من بحث في علم الفلك] .

(٣٤-١٠٠) [الشمس علة تغير الفصول] ^(١) التي تنتج كل شيء .

(٣٥-٥٧) هزيود معلم كثير من الناس ، [الذين اعتقدوا أنه يعرف أموراً كثيرة] ^(٢) مع أنه لم يفهم الليل والنهار : إذ أنهما شيء واحد ^(٣)

(٣٦-٦٧) الله هو النهار والليل ، الشتاء والصيف ، الحرب والسلم ، الشبع والجوع ، ولكنه يتخذ أشكالاً مختلفة كالنار التي امتزجت بالتوابل سماها كل شخص حسب طعمها [فريمان : إذا امتزجت بدخان البخور سماها كل شخص حسب مزاجه] ^(٤)
(٣٧-٧) لو تحول كل شيء إلى دخان ، لميزته الأنوف .

(٣٨-٩٨) تسم الأرواح في هادس (الجحيم Hades) [فريمان: للأرواح حاسة الشم في الجحيم] .

(٣٩-١٢٦) الأشياء الباردة تصبح حارة ، والحارة تصبح باردة ، ويجف الرطب ، ويصبح الجاف رطباً .

(٤٠-٩١) إنها تفرق وتجمع ؛ وتزيد وتنقص .

(٤١-٤٢-٩١) لا يمكنك أن تنزل مرتين في النهر نفسه ، لأن مياهاً جديدة تغمرك باستمرار . [فريمان : ليس من الممكن أن تنزل مرتين في النهر نفسه ، لأنها تنفرق وتتجمع ثانية ، وتقرب وتنفصل] .

(٤٣) (أخطأ هوميروس في قوله : « لو أن التنازع زال من الآلهة والبشر » ولكنه لم ينظر إلى أنه كان يدعو إلى هلاك العالم ، فلو استجيب دعاؤه لذهبت جميع الأشياء ...

(٤٤-٥٣) الحرب ملك وأب كل شيء ، وهي التي جمعت بعض الأشياء آلهة

(١) زيادة عن فريمان (٢) إضافة عند برنت (٣) يذهب هزيود في قصيدته أنساب الآلهة إلى أن النهار ابن الليل . (٤) ترجمة فريمان أصح وتؤديها الفقرة التالية .

وبعضها الآخر بشراً ، وبعضها أحراراً وبعضها عبيداً .

(٤٥-٥١) يجهل الناس كيف يكون الشيء مختلفاً ومتفقاً مع نفسه ، فالإتلاف harmonia يقوم على الشد والجذب بين الأضداد ، كالحال في القوس والقيثارة .

(٤٦ -) الضد هو الخير لنا .

(٤٧-٥٤) الإتلاف الخفى أفضل من الظاهر .

(٤٨-٤٧) لا يجب أن نفكر في عظام الأمور كيفما اتفق .

(٤٩-٢٥) من يعشق الحكمة فلا بد أن يبحث في أمور كثيرة (١) .

(٥٠-٥٩) طريق القصار في تنظيف الأقمشة مستقيماً أو متعرجاً فهو طريق واحد

(٥١-٩) تؤثر الحير التبن على الذهب .

(٥١-٤) تبتهج الثيران حين ترى الكشنى (٢) [فريمان : إذا كانت السعادة

في اللذات الحسية ، فيجب أن نسمى الثيران سعداء حين يرعون الكشنى] .

(٥٢-٦١) أتقى ماء وأنجسه ماء البحر ، يشر به السمك فيجيا به ، ولا يمكن

أن يشربه الإنسان بل يهلكه .

(٥٣-١٣) يتمرغ الحنازير في الوحل ، والدواجن في التراب [فريمان : لا تلعب

في الطين . تحب الحنازير أن تتمرغ في الطين ولا تستحم في الماء] [٣٧ : تستحم الحنازير

في الطين ، والطيور في التراب أو الرماد]

(٥٤-١٣) يلعب في الوحل .

(٥٥-١١) تساق الأغنام إلى المرعى بالضرب .

(٥٦) = ٤٥ .

(٥٧) الصحة والمرض واحد .

(٥٨-٥٨) الأطباء الذين يقطعون جسم المريض ويحرقونه ويضمّدونه يتناولون

أجراً على ذلك لا يستحقّونه [فريمان : لأنهم يحدثون نفس الآلام كالمرض] .

(١) هذا شبيه بالمثل العربي : من طلب المعالي سهر الليالي .

(٢) نبات مر الطعم .

(٥٩) الزوجان كل ولا كل ، يرسمان معا وأحدهما تحت الآخر ، مؤتلفان ومتنافران . الواحد يتكون من جميع الأشياء ، وتخرج جميع الأشياء من الواحد .
(٢٣-٦٠) لم يكن الناس ليعرفوا اسم العدالة لو لم توجد هذه الأشياء [فريمان :
أى الأضداد] .

(١٠٢-٦١) جميع الأشياء بالنسبة إلى الإله جميلة وحق وعدل . ولكن الناس يعدون بعض الأشياء ظلم وبعضها الآخر عدل .

(٨٠-٦٢) يجب أن نعرف أن الحرب عامة لكل شيء وأن التنازع عدل ، وأن جميع الأشياء تكون وتفسد بالتنازع [فريمان : والضرورة] .

(٢١-٦٤) كل ما نراه ونحن أيقاظ موت ، كما أن كل ما نراه في النوم نائم .

(٣٢-٦٥) الحكيم فقط واحد ، إنه يرغب أن يسمى زيوس ولا يرغب .

(٤٨-٦٦) القوس ^(١) تسمى الحياة ، ولكن فعلها موت .

(٦٢-٦٧) الخالدون قانون ، والقانون خالدون ، وأحدهما يعيش بموت الآخر ، ويموت بحياة الآخر .

(٧٧-٦٨) موت الأنفس أن يصبح ماء ، وموت الماء أن يصبح أرضا . ولكن الماء يأتي من الأرض ، والنفوس من الماء .

(٦٠-٦٩) الطريق إلى فوق وإلى أسفل واحد ونفس الطريق .

(١٠٣-٧٠) البدء والنهاية في محيط الدائرة واحد .

(٤٥-٧١) لن تجد حدود النفس إذا بحثت عنها في أى جهة من الجهات ، ومهما يكن عمق المقياس Logos [فريمان : لن تجد في طريقك حدود النفس حتى إذا سرت إلى آخر الطريق ، لأن قانونها Logos شديد العمق] .

(٧٧-٧٢) سعادة الأنفس أن تصبح رطبة [فريمان : سعادة الأنفس ، أو بالأحرى موتها ، أن تصبح رطبة . ونحن نحيا بموت الأنفس ، وهى نحيا بموتنا]

(١) القوس باليونانية Bios وكذلك ، الحياة ، مع اختلاف علامة المد على حرفي الحركة (بيوس القوس ، بيبس الحياة) والمقصود أن القيثارة لا تدب فيها الحياة بغير القوس ، ولكن كثرة فعلها يهلك القيثارة .

(٧٣-١١٤) حين يشرب الرجل الخمر يقوده صبي أمرد ، ولا يعرف أين يذهب ،
وتكون نفسه رطبة .

(٧٤-٧٦-١١٨) النفس الجافة أحكم وأفضل .

(٧٧-٢٦) يشعل الإنسان النور لنفسه ليلا حين يموت ولا يزال حيا . والنائم
الذى انطفأت رؤيته ، يستضيء من الليت . أما المستيقظ فيستنير بالنائم [فريمان :
يشعل الإنسان النور ليلا إذ ينطفئ بصره . ويشبه وهو حي النائم كالميت ، ويشبه
وهو يقظ النائم] .

(٧٨-٨٨) ما يوجد فينا شيء واحد : حياة وموت ، يقظة ونوم ، صغر وكبر ،
فالأولى [من الأضداد] تتحول وتصبح الأخيرة ، والأخيرة تصبح الأولى .

(٧٩-٥٢) الزمان طفل يلعب بالهواء ، والقوة الملكية في يد الطفل .

(٨٠-١٠١) بحثت في نفسي .

(٨١-١٤٩) إننا نزل ولا نزل النهر الواحد ، إننا نكون ولا نكون .

(٨٢-٨٤ب) من الشاق أن تعمل لأسياد بالذات وأن تحكم منهم [فريمان : من
الشاق لهذه نفسها أى العناصر المكونة لبدن الإنسان - أن تعمل وتطيع] .

(٨٣-١٨٤) السكون من التغير [إضافة عند فريمان . النار العنصرية في جسم
الإنسان] .

(٨٤-١٢٥) حتى الشراب الممزوج ^(١) Kykeon يفصل إذا لم يحرك .

(٨٥-٩٦) الأجدر أن تطرح الجثث حتى لا تتلوث .

(٨٦-٢٠) حين يولدون يرغبون في الحياة وفي لقاء مصيرهم [الموت] ، ويخلفون
وراءهم أبناء يلقون مصيرهم بدورهم .

(٨٧-٨٩) قد يصبح الرجل جدا في ثلاثين عاما .

(٩٠-٧٥) الذين ينامون يعملون ويشاركون فيما يجري في السكون .

(٩١-١١٣) الفكر مشترك للجميع . [فريمان : ملكة التفكير مشتركة

لجميع] .

(٩١ ب - ١١٤) إذا تكلم الناس بالعقل فيجب أن يتمسكوا بما هو مشترك للجميع ، كما تتمسك المدينة بالقانون Nomos ، بل يجب أن يكون تمسكهم أشد . لأن جميع قوانين البشر مستمدة من قانون واحد ، إلهي ، يحكم كما يشاء ، ويشمل كل شيء . بل أكثر .

(٩٢ - ٢) ينبغي إذن أن يتبع الإنسان ما هو مشترك [للجميع - أى القانون العام] . ومع أن كلمتي Logos عامة إلا أن معظم الناس يعيشون وكأن لكل واحد حكمته الخاصة .

(٩٣ -) إنهم يتباعدون عما يخالطونه باستمرار .

(٩٤-٧٣) لا يجب أن نعمل ونتكلم كأنتنا نيام .

(٩٥-٨٩) للأيقاظ عالم مشترك [للجميع] ، ولكن النائم يعطف على نفسه في عالمه الخاص .

(٩٦-٧٨) طريق الإنسان يخلو من الحكمة ، وهى طريق الإله .

(٩٧-٧٩) يسمى الإنسان طفلاً بالنسبة إلى الإله ، كما هى الحال فى الطفل بالنسبة إلى الإنسان .

(٩٨-٩٩-٨٣-٨٢) أحكم الناس كالقرد بالنسبة إلى الإله ، كما أن أجمل القردة قبيح بالإضافة إلى الإنسان (١) .

(١٠٠-٤٤) يجب أن يحارب الناس من أجل قانونهم Nomos ، كما يدافعون عن أسوار مدينتهم .

(١٠١-٢٥) كلما كان الموت أعظم كان النصيب أكبر .

(١٠٢-٢٤) يمجّد الآلهة والبشر أولئك الذين يموتون فى الحرب .

(١٠٣-٤٣) الحاجة إلى الحد من الإفراط ، أكثر من إطفاء بيت يحترق .

(١٠٤-١١١-١١٠) ليس من الخير أن يحصل الإنسان على كل ما يرغب . المرض مطية الصحة والسعادة ، والجوع سبيل إلى الشبع ، والتعب طريق الراحة .

(١) انظر محاولة هيباس الأكبر لأفلاطون حيث يستعير الفكرة نفسها .

(١٠٥-١٠٧-٨٥) كببح جماع الشهوة عسير ، فإرضائها على حساب الروح .
(١٠٨-١٠٩-٩٥) من الخير إخفاء الطيش [الجهل] ولو أن ذلك عسير عند
الاسترخاء والسكر .

(١١٠-٣٣) الاستماع إلى نصيحة [فريمان : طاعة أمر] رجل واحد قانون
Nomos أيضا .

(١١١-١٠٤) ماذا عندهم من عقل أو حكمة ؟ إنهم يتبعون الشعراء ويقتدون
بالجمهور ، ولم يعلموا أن الأشرار كثيرون والأخيار قليلون . وحتى أفضل هؤلاء يؤثرون
شيئا واحدا على كل ما عداه : المجد الخالد [الشهرة الدائمة] بين البشر الفانين وينساق
الباقون كالأغنام .

(١١٢-٣٩) عاش [ولد] يياس ^(١) في برين ، وهو ابن تيتاموس Teutamos
وقد فاقته شهرته الآخرين . (ومن أقواله : معظم الناس أشرار) .

(١١٣-٤٩) [شخص] واحد أفضل من عشرة آلاف ، إذا كان أفضلهم .

(١١٤-١٢١) يحسن بأهل إفيسوس أن يشنقوا أنفسهم ، كل رجل بالغ منهم ،
وأن يتنازلوا عن مدينتهم للفتيان ، لأنهم نقوا هرمودورس أفضل رجال المدينة ، قائلين :
« لن نستبقى أحدا من الفضلاء ، فإن وجد فليذهب إلى آخر وبين آخرين » .

(١١٥-٩٧) ينبح الكلاب على الأغراب .

(١١٦-٨٦) الحكيم غير معروف بسبب قلة إيمان الناس . [فريمان أ كثر ماهو
إلهي تخطئه المعرفة بسبب عدم الإيمان] .

(١١٧-٨٧) يضطرب المجنون عند كل كلمة .

(١١٨-٢٨) أعظمهم منزلة لا يعرفون إلا المظاهر dekeonta التي يتمسكون
بها . ومع ذلك فإن الكاذب وشاهد الزور سينالان جزاءها .

(١١٩-٤٢) يجب أن يطرد هوميروس من سجل الشعراء وأن يضرب ، وكذلك
أرخيلوخوس Archilochos .

(١٢٠ -) اليوم كالغد .

(١٢١-١١٩) مصير الإنسان رهن بأخلاقه .

(١٢٢-٢٧) عندما يموت الإنسان يجد أشياء لم يكن يتوقعها ولو في الأحلام .

(١٢٣-٦٣) [عندما يكون الإله هناك] تنهض [الأرواح في الجحيم] وتقوم على حراسة الأحياء والموتى .

(١٢٤-١٤) الهائمون ليلا ، السحرة ، عبدة باخوس ، الميناديات^(١) Maenads ، والمريدون [الصوفية]

(١٢٥-٥-١٤) الأسرار التي يتبعها الناس ليست مقدسة .

(١٢٦-١٢٨) وإيهم [أى الهلينيون] ليعبدون هذه الصور [تمثيل الآلهة] كما لو كانوا يتحدثون إلى بيوتهم ، وهم لا يعرفون ما الآلهة أو الأبطال [فرمان : يعبد الإغريق أصنام الآلهة التي لا تسمع كأنها تسمع ، ولا تعطى كما أنها لا تسأل] .

(١٢٧-١٥) لو لم يكن احتفالهم بعيد الإله ديونيسوس حيث يرتغمون بالنشيد الفاللى Phallic hymn الخجل^(٢) ، ما كان في مسلكهم ما ينجل . ومع ذلك فإن « هادس » يشبه ديونيسوس الذي يحتفلون به بأنواع من الجنون والهذيان .

(١٢٩-١٣٠-٥) يطهرون أنفسهم بأن يلطخوا أنفسهم بالدم ، كما لو لطح المرء نفسه بالطين ليغتسل من الطين . ولو شوهده يفعل ذلك لهيل عنه محنون .

ترتيب النصوص :

[٦٢] انتزع « ديلز » هذه النصوص من كتب الرواة وأصحاب السير القدماء ، كما فعل في نصوص الكثيرين من الفلاسفة . وقد تعرض لترجمة هذه النصوص ، ودراستها ، وترتيبها ، وبيان الصحيح والمتحل فيها كثير من الباحثين أخيراً . وأعتمد « برنت » ترتيب النصوص الذي ذهب إليه « باي ووتر » Bywater ،

(١) النساء من عباد باخوس إله الخمر - والمقصود هم أتباع النحلة الأورفية أصحاب الأسرار .

(٢) نشيد لعضو التناسل الذكر .

ولم يرض عن ترتيب ديلز . وتبعت « فريمان » ترتيب ديلز ، ونقلت النصوص بأرقام مختلفة عن أرقام برنت . ويرجع الخلاف في الترتيب إلى جمع النصوص بالنسبة إلى الموضوعات . وقد رأينا أن نضع رقم برنت وإلى جانبه رقم فريمان ، مع العلم أن نصوص فريمان تبلغ ١٣٩ ، وهناك نصوص جاءت عند برنت وغير موجودة عند فريمان .

وقد نسأل أهذه عبارات هرقلطس أم تناولها الرواة بالتغيير ؟ ذلك أن الكتاب الأصلي مفقود ، مع أنه كان متداولاً في زمانه ، ومعروفاً للمشتغلين بالفلسفة . ومن العسير أن نعرف أى هذه العبارات كانت في أول الكتاب ، وأياها كانت في آخره . ولكننا نستطيع أن نثق في أن العبارات كما وردت هي لغة هرقلطس بحروفها ، لأن الرواة المتأخرين مثل ديوجين لايرتوس كانوا يجدون صعوبة في شرح أفكاره فأوردوا النصوص بذاتها ، ونقلوا من الكتاب الأجزاء التي تتصل بالانظريات التي يعرضونها ، فعملوا بذلك أقاويله في العلم الطبيعي أو الحكمة أو الدين أو السياسة ، وهكذا .

وكانت النزعة الفنية ظاهرة في أسلوب هرقلطس من جهة إظهار الإيجاز والحكمة والرمز والمقابلة ، وقد يمكن أن يفهم المعنى الذي يرمى إليه من الاطلاع على عباراته نفسها في اليونانية ، لأن نقلها يذهب بالمعنى الدقيق المقصود ، كما يعز على الشرح . ولذلك ينصح كثير من المؤرخين مثل زلر وبرنت وفريمان بالرجوع إلى الأصل ، وبخاصة لاختلاف التراجم . وهذا «بيجر» يترجم النص ترجمة جديدة حين يتحدث عن هرقلطس ، لأن ترجمة غيره لا ترضيه . وكذلك فعل كورنفورد في كتابه الأخير « مبادئ الحكمة » فهو يترجم النص ترجمة مخالفة ، مع وضع العبارة اليونانية .

وعلى الرغم من غوض هرقليطس وصعوبة أسلوبه أو فلسفته ، فقد كان معروفاً في الزمن القديم ، عارضه بارمنيدس ، وتعرض له أفلاطون بأسلوبه الساخر في محاورتي أقراطيلوس وتيتياتوس ، وعرضه أرسطو في كتاب مابعد الطبيعة . وفهم عنه أفلاطون مذهبه في التغير المتصل وأنه مبدأ الأشياء ، وفهم عنه النسبية في المعرفة . أما أرسطو فجعله من الطبيعيين وتحدث عن مذهبه في النار . على حين أن الرواقيين أخذوا مذهبه في القانون وفي الاحتراق العام . فإذا كنا مع المحدثين رأينا كل مؤرخ يؤول فلسفته على هواه ، فبعضهم يقف عند القدماء ويجعله من الطبيعيين الأولين ، وبعضهم الآخر يفسره تفسيراً جديداً . وسوف نحاول فهم هرقليطس من جملة النصوص التي بقيت مما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

موقفه من السابقين :

[٦٣] وكان هرقليطس يعرف السابقين عليه معرفة وثيقة ، قرأ لهم ، واطلع على آرائهم ومذاهبهم ، وتقدم جميعاً ، ولم يسلم من لسانه إلا يياس حكيم بريين (١١٢)^(١) ، ولعل ذلك يرجع إلى اتفاقهما في الرأي ، إذ كلاهما كان يحقر الناس ويرى معظمهم أشراراً .

وقد أشار إلى الشعراء وإلى رجال الدين وإلى الفلاسفة من جهة أثرهم في تعليم الناس . فحمل على الشعراء حملة شعواء ، وقال عن هوميروس : إنه يستحق الضرب (١١٩) ، ولم يفهم هزبود الليل والنهار مع أنه يعلم الناس بشعره (٣٥) . كل

(١) الأرقام التي نثبتهما تشير إلى نص هرقليطس .

ذلك لأن الشعراء يأخذون بالظن ولا ينفذون إلى الحقيقة الباطنة .

ولما كان أثر رجال الدين في الناس عظيماً ، فقد هاجمهم هرقليطس بشدة ، دون تمييز بين نحلة وأخرى ، ولكنه يخص أتباع ديونيسوس وأصحاب العبادة السرية بنصيب أوفر ، ويسميهـم السحرة ويصف أسرارهم بأنها غير مقدسة (١٢٤ - ١٢٥) وطعن كذلك في هذه الاحتفالات التي يخرج فيها الشعب عن وقاره في عيد الإله ديونيسوس ، ويبدو أنهم كانوا يرتكبون فيها كثيراً من الخمازى باسم الدين (١٢٧) . وهو ينعى على الناس عبادة الأصنام التي لا نسمع ولا تشكلم (١٢٦) ، كما يسخر من الطهارة التي تؤدي إلى التلطيف لا إلى التطهير (١٢٩) .

ولم يسلـم الفلاسفة من نقده اللاذع ، على أساس أنهم يحفظون أشياء كثيرة يعلونها لغيرهم دون أن يفهموها . وضرب مثلاً بفيثاغورس وزينوفان وهيكتايوس (١٦) . فهو لاء ليسوا حكماء بمعنى الكلمة ، إذ الحكيم هو الذي يبحث في أشياء كثيرة (٤٩) ، حتى يصل إلى معرفة قانون الأشياء Logos ، ذلك القانون الذي لم يعرفه أحد ، اللهم إلا هرقليطس وحده .

وقد وصف الجمهور ، أى المتعلمين عن الشعراء ورجال الدين والفلاسفة ، بأشد الصفات احتقاراً . فهم لا يفهمون الأمور التي تقع عيونهم عليها (٥) وليس عندهم عقل أو حكمة ، بل يتبعون الشعراء ويسايرون العامة ، وينساقون وراء المشهورين كالأغنام (١١١) ، وأن فرداً واحداً إذا كان حكيماً فاضلاً فهو أفضل من آلاف (١١٣) . ويبدو أن هرقليطس كان ساخطاً على أهل مدينته جميعاً بسبب ضعفهم السياسى ، ولأنهم نفوا هرمودورس - وهو أفضلهم - من المدينة (١١٤) .

فإذا كان هذا هو شأن الجمهور الذي ينساق وراء شهواته ، ولا يكبح جماح نفسه ،

ويأخذ الأمور بالظواهر فقط ، ويساق كالأغنام من الشعراء ورجال الدين والفلاسفة ، وكان هؤلاء أيضا بعيدين عن طريق الحكمة ، فأين هو هذا الطريق ؟ وما هي الحكمة ؟ ومن هو الحكيم ؟
الكلمة - القانون :

[٦٤] يفتتح هرقليطس كتابه بأن يطلب من الناس سماع «الكلمة» ، لا إلى ألفاظه هو ، إذ الحكمة تدل على أن جميع الأشياء واحدة . كيف يتفق ذلك النقد الشديد الذي وجهه إلى سائر الحكماء والشعراء مع طلبه الاستماع إلى «كلمته» . وقد بادر فقال إن هذه الكلمة ليست كلمته ، إنما هي كلمة أزيه ، صادقة على الدوام ، هي الحق مطلب جميع الحكماء ، ولكن الناس يعجزون عن فهمها لأنهم يأخذون بالظاهر . وهنا يزعم هرقليطس أنه قد عرف «الكلمة» ، لاعن طريق السمع ، بل عن طريق الإلهام . من أجل ذلك كانت لغته أشبه بلغة نبي أو رسول يريد أن يوقظ الناس من سباتهم (٢) . وكان معروفاً عند اليونانيين أن الكهنة في دلفي يتصلون بالآلهة ويعرفون الحاضر والمستقبل عن طريق الوحي ، وواقفهم هرقليطس ، ولاغرو فقد كان كاهناً في معبد أرطيميس ، فقال إن الإله في دلفي لا يصرح بل يرمز (١١) ، وأن الكاهنة تنطق بالحق بفضل الوحي الإلهي (١٢) . ولم يكن هرقليطس الوحيد من بين فلاسفة اليونانيين الذي التمس هذا الطريق لمعرفة الحق ، فالماثور عن سقراط أنه كان يغيب عن وعيه يستمع إلى هاتف باطن يسمى ديمون Demon . ولكن الجديد عند هرقليطس ، وعند سقراط كذلك ، أنه لا يريد أن ينساق الناس وراء كلمته انسياقاً أعمى ، بل يريد منهم أن يبحثوا هم عنها ، وهم لابد واصلون ، لأنها واحدة .

والكلمة في اليونانية تسمى لوجوس Logos ، وقد تطور معناها على مر العصور . واختلف المترجمون في نقلها ، فبعضهم يترجمها الكلمة Word مثل برنت وبيجر ، وبعضهم يترجمها

القانون Law مثل فريمان ، وبعضهم يبقيا كما هي فلا ينقلها مثل كورنفورد ، الذى يذهب إلى أن « الكلمة » كانت مألوقة فيما يختص بالأمور الدينية ، فهذا أرسطوفان فى تمثيلية الضفادع يقول : « فليصمت وليتعد كل واحد لا يعرف مثل هذه الكلمات ولا يكون طاهر القلب » . والخطاب موجه إلى فرقة المنشدين ، أى الكورس ، بأن يتعد كل من يجهل هذه اللغة .

وهناك صلة بين اللفظ والمعنى ، فالمقصود من الكلمة معناها لا حروفها المنطوقة ، ولكن اللفظ والمعنى متلازمان . ثم طلب الفلاسفة المعانى الكلية لأنها أدل على الحقيقة ، كما فعل سقراط . واعتمد التفكير على ربط الألفاظ فى قضايا ، وترتيب القضايا فى أقيسة ، وهذا هو المنطق ، وسمى المنطق Logic من الكلمة اليونانية لوجوس . وقد يكون التفكير عقليا محضا ، وقد يعتمد على شئ آخر غير العقل هو البصيرة . وفى الوقت الذى ظهر فيه هرقليطس كان بارمنيدس يعتمد على العقل وحده Nous ذلك العقل الذى كان أساس المنطق الخالص الذى لا يسمح بالتناقض ، أما هرقليطس فالعقل عنده بصيرة تعتمد على الإلهام ويسميه Phronein ، وهذا العقل يعنى فى ذلك العصر التفكير المستقيم ، أو العقل السليم ، الذى يتصل بالسلوك الخلقى . واللفظة من هذا الوجه أليق بالمعرفة الدينية والأخلاقية .

وتدل اللوجوس أيضا على معنى سياسى إلى جانب معناها الدينى والأخلاقى ، ويتضح ذلك من عبارات هرقليطس المختلفة التى يؤكد فيها اشتراك « الكلمة » بين جميع الناس (١٩١ - ٩١ ب - ٩٢ - ٩٥) . وليس الفكر عامًا فقط بل مشترك ، وبذلك يكون هرقليطس أول من فطن إلى الوظيفة الاجتماعية والسياسية للكلمة .

ومن هذا الوجه ، نعى الوجه الاجتماعى العام ، تصبح «الكلمة» هى القانون ، ولكن القانون فى الدولة Nomos شىء آخر ، بل هذه الكلمة الصادرة عن العقل الذى يسميه البصيرة تشمل القانون السياسى والقانون الإلهى أيضا . ومن أجل ذلك ترجم بعضهم لوجوس بالقانون لهذه الصفة المشتركة .

ولكن إذا كان الأمر كذلك ، وكانت الكلمة مشتركة بين جميع الناس ، فما الذى يعوقهم عن معرفتها ؟ هنا يلجأ هرقليطس إلى الرمز بالنوم واليقظة ، فيحدثنا عن الناس الذين يعيشون ويعيونهم مفتوحة ولكنهم كالنيام . أما الأيقاظ فقط فلهم عالمهم المشترك ، على حين يكون للنائم عالمه الخاص . (٩٥ - ٩٢) . وإنما يأتى العالم المشترك لأن الناس فى يقظة ، على أن تكون هذه اليقظة حقيقية ، فلا يعيش كل إنسان فى عالمه الخاص كأنه يحلم . وهناك مصدر آخر للعقل المشترك هو وجوده وجوداً محسوساً ، هو النار^(١) . فالنار عند هرقليطس تشمل كل شىء ، وفيها جزء من هذه النار ، وبسبب ذلك يكون عقلاً جزءاً من العقل الكلى ، ويستطيع تبعاً لذلك أن يدرك العقل أو القانون الذى يحكم العالم والأشياء . وكانت النحلة الأورفية ، والفيثاغورية بعدها ، تذهب إلى أن العقل البشرى يتلقى الوحي عن الحقائق الأزلية فى الأحلام مع النوم ، عندما تتحرر النفس من قيود البدن ، وأخذ أرسطو بتفسير يشبه ذلك . ولكن هرقليطس ينكر هذه السبيل ، لأن النائم قد أغلق أبواب عالمه على نفسه ، والإنسان لا يتصل بالحقيقة إلا عن طريق الحواس فى حالة اليقظة ، ولو أنه آمن بالوحي واعتقد فى معرفة الإنسان بالمستقبل .

(١) هذا هو تفسير كورنفورد فى كتابه مبادئ الحكمة ص ١٤٩ ، ولكن كاثلين فريمان ص ١١٦ ، ١١٧ تقول : إن هرقليطس لا يتحدث عن الوجود أبداً كأنه شىء مادى ، فهو حين يصف « الكلمة » يقول إنها شىء يمكن أن يعرف أى أنها القانون ، ولو أنه لا يفصلها عن النار .

جملة القول الذى يعرف « الكلمة » هو الحكيم ؛ والحكمة شىء واحد : إنها معرفة ما به تتحرك جميع الأشياء فى جميع الأشياء (١٩) . وليس بلوغ الحكمة يسيرا ، بل تحتاج إلى البحث فى أمور كثيرة (٤٩) . والحكيم واحد (٦٥) ، وينبغى على الإنسان أن يتبع ما هو مشترك للجميع (٩٢) حتى يصبح حكما . وعوائق الحكمة اتباع الجمهور ، واتباع العقائد القديمة عن الآلهة والتي جاء بها الشعراء ، وإيثار الناس المعيشة فى عوالمهم الخاصة ، وأخذ المعرفة عن طريق الحفظ لا عن طريق النظر فى النفس والتأمل فى داخلها . لذلك كان طريق الإنسان يخلو من الحكمة (٩٦) .

فالحكيم هو الذى يدرك القانون الذى يحكم جميع الأشياء . وقد فصل هرقليطس عمل القانون فى كل ناحية من نواحي العالم ، لأن القوانين الطبيعية والإنسانية مستمدة من القانون الإلهى (٩١ب) . ويسرى هذا القانون فى النار التى تشتعل بمقياس وتخبو بمقياس (٩١) ، وفى هذه الصور التى تتحول النار إليها فتصبح بجراثم أرضا ثم أعاصير (٢١) ، وفى هذا التبادل بين النار وبين جميع الأشياء طبقا لنفس القانون الذى تحولت إليه الأرض من قبل (٢٢) . والقانون يحكم هذا العالم الذى نعيش فيه والمركب من الأضداد ومن الائتلاف بينها . والقانون يسود جميع الخلقات ، فالخمر تؤثر التبن على الذهب (٥١) ، ويشرب السمك ماء البحر فيجيا به ويهلك الإنسان إذا شربه (٥٢) ، وتساق الأغنام بالضرب (٥٥) . والقانون موجود فى أنفسنا ، ويخضع له طريق المعرفة .

الائتلاف بين الأضداد :

[٦٥] عرضت مشكلة الأضداد للمدرسة الأيونية ، وللفيثاغوريين ، وكان لكل منهم رأى فى حلها . فأنكسمندريس بوجه خاص قال بمادة لانهاية تنشأ

عنها الأضداد المختلفة : النار والهواء والماء والأرض ، وكيفياتها الأربع : الحار والبارد والرطب واليابس . ففصل بين ذلك « المبدأ » أى المادة الأولى ، وبين الأضداد الموجودة فى الواقع ، ولم يبين كيف تخرج منها . وذهب فيثاغورس إلى نظرية التناسب أو الائتلاف العددي سواء فى الأشكال أو فى الموسيقى ، وهو تناسب رياضى بوجه خاص . أما بارميندس فسوف يضرب صفحا عن هذه الأضداد المحسوسة ، وينكرها ، ويبرهن تلميذه زينون على إبطال الكثرة والحركة ببراهين عقلية .

ولكن هرقليطس لا ينكر هذه الأضداد التى تدركها الحواس ، لأن طبيعة العالم مركبة من الأضداد . وقد ضرب لذلك أمثلة كثيرة ابتداء من أعلى الكائنات إلى أدناها . فالله هو النهار والليل ، الشتاء والصيف ، الحرب والسلم ، الشبع والجوع (٣٦) والأشياء الباردة ، تصبح حارة ، والحارة تصبح باردة ، ويحف الرطب ، ويصبح الجاف رطبا (٣٩) . وما يوجد فىنا فهو شئ واحد : حياة وموت ، يقظة ونوم ، صغر وكبر ، وكل من هذه الأضداد تتحول إلى الأخرى (٧٨) .

ولكن على خلاف الأيونيين والفيثاغوريين الذين التمسوا الوحدة خارج الكثرة وخارج الأضداد ، فإن هرقليطس يجد الوحدة فى الأضداد نفسها ، فهى كثيرة وواحدة فى آن واحد . فالمرض والصحة واحد (٥٧) والواحد يتكوّن من جميع الأشياء ، وتخرج جميع الأشياء من الواحد (٥٩) والحكيم واحد ويسمى زيوس (٦٥) . وتنشأ هذه الوحدة إمامن التجاور Synapsis ، وهى وحدة ميكانيكية وإما من الائتلاف Harmonia . ولكن هذا الائتلاف ديناميكى يختلف عن ذلك الائتلاف الرياضى الذى رأيناه عند فيثاغورس . ويمثل له هرقليطس بالقوس

والقيثارة ، فبينهما شد وتجاذب ، والقوس هى علة الحياة . ويجهل الناس كيف يكون الشيء متفقا ومختلفا فى آن واحد (٤٥) . فالظاهر لنا هو هذه الكثرة ، وهذه الأضداد ، أما الحقيقة فهى الوحدة ، ولكنها خفية لاتدرك بالحواس . ولذلك يقول : « الطبيعة تحب أن تختفى » . وليس من اليسير النفاذ إلى لب هذه الوحدة حتى لو بحث الإنسان كثيرا (١٠) ، مثله فى ذلك كالباحث عن الذهب ينقب فى الأرض كثيرا ولا يجد إلا القليل (٨) .

وقد فطن أفلاطون إلى أن هرقليطس إلى جانب مذهبه فى التغير المتصل ينشد الوحدة ، فقال فى محاوره السوفسطائى بعد أن بسط مذهب المدرسة الإبلية ما يلى : « ولكن هناك فيلسوف أيونى فى عصر متأخر ، وفيلسوف صقى ، وحدّا بين الكثرة والوحدة ، وأنّ الحقيقة تشملهما معاً ، وأنّ الحب والبغض يحفظهما » . والإشارة واضحة ، فالفيلسوف الأيونى هو هرقليطس ، والصقى هو أنبادقليس . وبذلك كان أفلاطون يعرف أنّ هرقليطس ذهب إلى أن الحقيقة واحدة وكثيرة فى آن واحد .

ولكن هل هذه الوحدة عقلية منطقية أو طبيعية ؟ .

أجمع القدماء على أن هذه الوحدة طبيعية مادية ، ترجع إلى النار التى يعدها المادة الأولى كما ذهب إلى ذلك الطبيعيون الأولون من المدرسة الملطية ، ولكنهم عجزوا عن تفسير اختلاف الأشياء وتضادها فقال أنكسمندريس « بالظلم » ، وقال هرقليطس إن هذا الاختلاف هو نهاية العدل dikê ، ولولا وجود هذه الأضداد ما عرف الإنسان اسم العدل (٦٠) ، وينبغى أن نعرف أن الحرب عامة لكل شيء ، وأن التنازع عدل ، وأن جميع الأشياء تكون وتفسد بالتنازع (٦٢) وهذا التفسير المادى هو الذى يذهب إليه برنت .

أما ييجر فيرى أن لب فلسفة هرقليطس هي «وحدة الأضداد». ومن قبل ذلك رأى هيجل ، وفلسفته تقوم على المركب من الضد وتقيضه ، أن وحدة هرقليطس وحدة منطقية ، وصرح بأنه تأثر في منطقته بفلسفة هرقليطس .

ولا يقف مبدأ وحدة الأضداد على الطبيعة بل على الإنسان وأعماله وحياته كذلك، فيلعب بذلك دوراً أهم من ذلك الذي يلعبه في الطبيعة . ومن جهة أخرى يفسر هرقليطس أعمال الطبيعة باصطلاحات إنسانية تحمل معنى الرمز ، فيقول: « الحرب ملك وأب كل شيء ، وهي التي جعلت بعض الأشياء آلهة وبعضها الآخر بشرا ، وبعضها أحرارا وبعضها عبيدا » (٤٤) وهو إلى ذلك يمجّد الحرب والذين يموتون في ساحتها (١٠٢) ، ويمثّل الناس على الحرب من أجل القوانين كما يحاربون دفاعاً عن استقلالهم (١٠٠) .

فالحرب في نظر هرقليطس هي التجربة الفلسفية الأولى . ويبدو أن تقاعس أهل مدينته عن الحرب دفاعاً عن حريتهم من المستعمرين أثر في نفسه ، وانعكس ذلك في تفكيره حتى ساد كل شيء ، وطبقه على مذهبه الفلسفي . وليس عند الجمهور شيء أعظم هولاً من الحرب ، فضرب بها المثل ، وجعلها أساساً لانقسام العالم إلى آلهة وبشر ، وإلى أحرار وعبيد ؛ ونحن نعلم قيمة هذه النظم الإغريقية التي تقسم العالم إلى آلهة خالدين وإلى بشر فانيين ، ومنزلة النظام الذي يسود فيه الأحرار ويشقى العبيد . فإذا كان هرقليطس قد مجّد الحرب التي تعدّلة هذا النظام ، فقد وضع إصبعه على الحجر الأساسي في ذلك النظام الديني والاجتماعي ، ودعا عن طريق الفكر إلى ثورة دينية وسياسية . فالحرب هي القانون ، هي الكلمة ، هي الله ، وقد صرح بذلك بقوله : « الله هو الحرب والسلام » .

والحرب تنازع بين شخصين ، بين فريقين ، وهى فى الطبيعة صراع بين الأضداد .
وقد توجد الوحدة فيخفى هذا النزاع ، ولكنه موجود ، وهو الحقيقة التى يجب على
الحكيم البحث عنها ، فلائتلاف الخفى أفضل من الظاهر (٤٧) . ويتخذ الصراع
طريقا صاعداً وطريقا هابطاً ، فإذا كان فى الطبيعة ، فأسماء النار وهى الحياة وأدناه
الأرض وهى الموت . ولكن الطريق صاعداً أو هابطاً فهو واحد ، كطريق القصار
فى تنظيف الأقمشة مستقيماً أو متعرجاً فهو واحد (٥٠)

النار :

[٦٦] وقد تحدثنا عن النار خلال عرضنا لمذهب هرقليطس دون أن
نفصل القول عنها ، ذلك أننا لن نستطيع لذلك تفصيلاً . فالنصوص الباقية بين
أيدينا لا توضح مذهبه توضيحاً كافياً ، فهو يبين الصور التى تتحول إليها النار :
البحر ، ثم الأرض ، ثم الأعاصير (٢١) وأن النار تحيا بموت الأرض ، ويحيا الهواء
بموت النار . . . (٢٥) . ونقل ديوجين لايرتوس مذهبه عن ثاوفراسطس فقال :
« زعم هرقليطس أن النار هى العنصر ، وأن جميع الأشياء تنشأ عنها بالتكاثف
والتخلخل . ولكنه لا يفسر شيئاً بوضوح . جميع الأشياء نشأت فى تضاد ، وهى كلها
فى جريان كالنهر . والعالم كل واحد نهائى ، نشأ من النار ، ويحترق مرة أخرى بالنار
خلال الأزل فى دورات معينة ، وذلك طبقاً لنظام الضرورة . ويتكون العالم من
الأضداد بطريق الحرب والتنازع ، أما احتراق العالم النهائى فيسمى الائتلاف والسلم .
ويسمى هرقليطس التغير الطريق الصاعد والطريق الهابط ، وزعم أن العالم يتكون
من هذين الطريقين . فإذا تكاثفت النار أصبحت رطوبة ثم ماء ثم أرضاً ، وهذا هو
الطريق الهابط . . . »

ومن ذلك يتضح أنه لم يكن بعيداً فى العلم الطبيعى عن فلاسفة أيونية ، وقد
رأينا أن أنسكسمانس رتب العناصر ابتداء من الهواء الذى يتكاثف فيصبح ماء

ثم أرضا ، والذي يتخلخل فيصبح نارا . أما هرقليطس فقد بدأ من النار . ولعله آثر القول بالنار لأنها وهى مشتعلة تكون دأمة التغير ، ولصلتها بالحياة ، فإن جوهر النار يتحول على الدوام إلى دخان وتغذيه نار جديدة .

وإذا نظرنا إلى العالم فهو نار متصلة دأمة التغير . وهذا العالم لم يخلقه إله أو إنسان ، ولكنه كان منذ الأبد ، وهو كائن ، وسوف يوجد إلى الأزل ، إنه النار التى تشتعل بحساب وتخبو بحساب (٢٠) .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن هرقليطس قال بنظرية الاحتراق العالم ، ولكن هذا الرأى يرجع إلى الرواقيين ، ولا يوافقهم عليه جمهرة المحدثين .

التغير المتصل :

[٦٧] وإذا كانت حقيقة الأشياء فى تضادها ، فهناك حقيقة أخرى لا تقل عنها هى أن جميع الأشياء دأمة الجريان ، دأمة التغير والتحول . وهذا هو خلاصة مذهب هرقليطس كما فهمه أفلاطون ، والذي يعبر عنه فى نصوصه بقوله : « لا يمكنك أن تنزل مرتين فى النهر نفسه لأن مياهها جديدة تغيرك باستمرار » (٤١) . فى أقراطيلس وفى تيتياتوس أن جميع الأشياء panta rhei فى حركة دأمة كماء النهر فى مجراه . وكذلك يصفه أرسطو بالوصف نفسه ، أى جميع الأشياء فى حركة . الحق كان هرقليطس متلائما مع روح العلم الأيونى حين وقف عند الحركة الدأمة والتغير المتصل ، كما يقول ييجر . ذلك أن العلم ينبغى أن يبدأ بالمشاهدات والتجارب ، أى بالاعتماد على الحس الذى يدل على هذا التغير . ومع أن هرقليطس لم يشتغل كفلاسفة أيونية بالتجارب العلمية إلا أنه انتهى إلى النتيجة المحتومة لمن يشتغل بالعلم دون غيره ، أى عدم إنكار التغير المحسوس . ولكن التسليم بهذا التغير يجعلنا نعجز عن إدراك

« وجود » الأشياء ، لأني ما تكاد تقف عندها حتى تراها قد انتقلت وذهبت وجاء غيرها ، كمياه النهر المتدفقة باستمرار الدائمة الجريان ، فلا يوجد شيء اسمه نهر ، « إننا ننزل ولا ننزل النهر الواحد ، إننا نكون ولا نكون » (٨١) ولو أن هرقليطس وقف عند هذه المرحلة دون أن يلتمس لها حلا ما أمكنت المعرفة ، إذ كيف نعرف شيئا ليس له وجود ؟ وبذلك يكون من أئمة الشكاك ، كما أخطأ في فهمه بعض المحرثين ، ولكنه حل المشكلة حلاً لا يقل في صراحته وفي قوته عن تصويره للتغير . تلك هي وحدة الأضداد عند من يرى فلسفته تقوم على هذه الوحدة ، أو النار الأولى عند القدماء الذين فهموا مذهبهم على ذلك النحو ، للعلاقة الوثيقة بين النار المشتعلة وبين التغير المتصل . وقد ناقشنا الرأي الأخير ورأينا أن الحقيقة الأولى ليست في النار ، بل في الكلمة أو القانون الذي يجمع بين الأضداد ، وهو قانون خفي في الطبيعة ، وكلما كان أخفى كان أصدق . وهذا كله لا ينفي أن الوجود متغير ، وأن إدراكنا له يجب أن يكون في تغيره وكثرته وفي وحدته في آن واحد . وذلك على العكس من معاصره بارمنيدس الذي التمس الوجود في شيء ثابت ساكن .

المعرفة :

[٦٨] تقوم المعرفة على الحواس التي يذكر هرقليطس منها ثلاثة: البصر والسمع والشم ، وأهمها جميعا البصر ، ثم السمع . فالعين أصدق خبرا من الأذن (١٥) . والشم له علاقة وثيقة بدخان النار ، فلو تحول كل شيء إلى دخان لميزته الأنوف (٢٧) ولو امتزجت النار بالبخور لساها كل شخص حسب مزاجه (٣٦) . والأرواح في الجحيم تبقى لها حاسة الشم (٣٨) . ولكن الحواس لا تحكم على الأشياء ، فهي لا تعدو أن تكون نوافذ للمعرفة ، ولذلك كان إدراكنا في اليقظة

أفضل من إدراكنا في النوم ، لأننا في النوم نقطع صلتنا بالعالم الخارجى ، ماعدا استنشاق الهواء . ولكن الحواس لاتفيدنا إلا معرفة الظاهر المتغير ، أما معرفة الكلمة أو القانون فالذى يدركه هو العقل أو البصيرة . وعلينا أن نبحث فى أنفسنا عن ذلك العقل ، ويمكن بذلك أن نعرف حقيقة القانون ، لأن العقل الذى فىنا جزء من العقل الإلهى . غير أن اقتصار الفيلسوف على النظر فى نفسه فقط لا يؤدى إلى كمال المعرفة ، إذ أن الحقيقة فى إدراك وحدة الأضداد فى جميع الأشياء ، وفى المشاركة مع غيرنا من الناس ، لأن الفكر عام مشترك .

وحيث كانت الحقيقة مؤلفة من طرفين أو ضدين ، فهى نسبية إذا نظرنا إليها فى شطر منها فقط ، أو فى نوع من أنواع الكائنات دون النظر إلى العالم بأسره . فجميع الأشياء بالنسبة إلى الإله جميلة وحق وعدل ، وبالنسبة إلى البشر بعضها ظلم وبعضها الآخر عدل (٦١) ويسمى الإنسان طفلا بالنسبة إلى الإله ، كما هى الحال فى الطفل بالنسبة للإنسان (٩٧) . وأحكم الناس كالقرد بالنسبة إلى الإله ، كما أن أجمل القروذ قبيح بالإضافة إلى الإنسان . (٩٨) . وهذا هو الشأن فى سائر الصفات وبخاصة الأخلاقية والجمالية ، فحقيقتها فى هذه العلاقات التى تصل بين بعضها وبين بعضها الآخر ، وفى خضوعها إلى نسبة ثابتة أو إلى مقياس ثابت . ومعرفة هذه النسبة الثابتة التى تربط بين الأضداد هى الحكمة .

حياته وقصيدته :

[٦٩] نشأ بارمنيدس بن فيرس Pyres في إيليا Elea ، وهي مدينة إغريقية أنشأها المهاجرون في غرب إيطاليا عام ٥٤٠ ق . م ويحدثنا ديوجين لايرتوس أنه زها في الأولمبياد التاسع والستين أى بين ٥٠٤ و ٥٠٠ ق . م . ولكن أفلاطون في محاوره بارمنيدس ، يصور فيها لقاء سقراط حين كان شابا ببارمنيدس الشيخ وتلميذه زينون بمناسبة زيارة أثينا في العيد الأكبر المسمى بنائيناى Panathenaea ، وكانت سن بارمنيدس حول الخامسة والستين ، وزينون حول الأربعين وسقراط في العشرين فإذا عرفنا أن سقراط توفي عام ٣٩٩ فيكون زمان المحاوره عام ٤٥٠ ق . م ، وبذلك يكون بارمنيـدس قد ولد عام ٥١٥ ، وازدهر عام ٤٨٥ ، أو ٤٧٥ ق . م .

وقد ناقشنا من قبل تلمذة بارمنيدس لزينوفان ورجحنا عدم أخذه عنه . ونحن نجد قدماء الرواة مثل ديوجين وسوتيون يصلون بين بارمنيدس وبين الفيثاغوريين ، ويذكرون اسم أحدهم بالذات وهو أمينياس Ameinias ، وكان فقيرا ولكنه من الأشراف الذين ابتنى له بارمنيدس بعد وفاته قبرا تخليدا له . ولما كان المذهب الفيثاغورى غامضا للسرية التي أحاط بها فيثاغورس تعاليمه ، تلك التعاليم التي لم يكشف عنها إلا فيلولاوس في عصر متأخر ، فلا يمكن الجزم بصلة بارمنيدس بالفيثاغوريين . وقد درس كورنفورد العلاقة بين المذهبين في كتابه « أفلاطون و بارمنيدس » ، وعقد الفصل الأول عن المذهب الفيثاغورى لبيان الصلة بينه وبين بارمنيدس . وتبعه في ذلك

الأستاذ راقن Raven^(١) في كتابه عن الفيثاغوريين والإيليين ؛ ويسلم بهذه الصلة معظم المحدثين . وسنعرض لهذه الصلة عند الكلام عن المذهب .

وشارك بارمنيدس في سياسة مدينته ، ويقول سبيسيديوس ، ابن أخت أفلاطون ورأس الأكاديمية بعد وفاته ، إنه شرع قانونا لمدينة إيليا . ويذهب ديوجين لايرتوس إلى أن حكام إيليا كانوا يجعلون المواطنين يحلفون كل سنة باحترام القوانين التي وضعها لهم بارمنيدس .

وإذا استبعدنا زينوفان من قائمة الفلاسفة ، كان بارمنيدس أول من اتخذ الشعر أداة للتعبير عن الفلسفة ، على عكس المدرسة الأيونية التي اصطفت النثر . ولم يحذو بارمنيدس إلا أنبادقليس ، ولكن شاعريته كانت موضع نقد شديد من أرسطو . وقد احتفظ سمبليقيوس^(٢) Simplicius بمعظم القصيدة بألفاظها في شرحه لها . واحتفظ سكستوس إمبريكوس ، وهو من الشكاك الذين عاشوا في القرن الثالث الميلادي ، بجزء من القصيدة وبخاصة الافتتاح ، مع التعليق عليها .

واختلف المفسرون في تحليل اتخاذ الشعر أداة للتعبير عن فلسفته . ويذهب فلوطرخس إلى أن جمال النظم يضاف على الموضوع طلاوة تذهب بجفاف النثر ، كأن بارمنيدس كان يشعر بوعورة الفلسفة وعدم رونقها ، فاحتاج أن يضيف عليها لباس الوزن ليجعلها مقبولة سائغة . ولعله كان يرى في فلسفته وحيا إلهيا لا يليق أن يصاغ إلا في الأسلوب الملائم لكلام الآلهة وهو الشعر ، ولا غرو فهو يستهل القصيدة بحديث على لسان الإلهة التي ترحب به وترشده إلى عالم الحقيقة . وقيل إن الشعر أداة تعليمية

(1) Pythagoreans and Eleatics, 1948 .

(٢) أصله من صقلية ، عاش في القرن السادس بعد الميلاد وهو من شراح أرسطو ولجأ إلى بلاط كسرى عقب اضطهاد الامبراطور جستنيان للفلاسفة .

يسهل على الشباب حفظه ، ولذلك حفظ زينون مذهبه شاباً ، ودافع عنه فيما بعد .
غير أن منزلة بارمنيدس ترجع إلى شاعريته وخياله وفنه أكثر من مجرد النظم الذى
يعتمد الوزن ، فليس الغرض إذن هو التعليم . ويذهب ييجر إلى أن المهاجرين
الأيونيين فى جنوب إيطاليا وجدوا اللهجة الدورية هى السائدة ، فأثر بارمنيدس
الكتابة بأسلوب يفهمه جميع الإغريق على اختلاف لهجاتهم ، ولجأ إلى أسلوب
هوميروس وهزiod بوجه خاص ، حتى يمكن أن يفهمه جميع الأغريق فى سائر
المدن . وهذه ترجمة الجزء الباقى لدينا من القصيدة ، وعلى هذا النص نعتد فى تحليل
فلسفته .

القصيدة :

(١)

[٧٠] قادتني الأفراس (١) التى كانت تحملنى بعيداً إلى حيث هنا قلبى ، وأوقفتنى
[الآلهة] (٢) عند ذلك الطريق (٣) المشهور (٤) الذى يهذى الحكيم العارف بسائر
المدن (٥) . وأسرعت بى الأفراس الحكيمة تبحر عربى فى ذلك الطريق والعذارى
[والعرائس] ترشد إليه . وتطير الشر من الرحى فى تجويف العجلة ، وصرت صريراً
كأنه الزمر (لأن عجنتين دائرتين على كلا الجانبين كانتا تدفعانها) ثم ضاعفت العذارى
بنات الشمس Helios من سرعتى ، وكشفن بأيديهن النقاب عن رؤوسهن (٥) ،
ليحملننى إلى النور ، وقد خرجن من مسكن (٦) الليل .

إلى حيث كانت بوابات طريقي الليل والنهار ، وقد سدت بعوارض من فوق ،
وعتبة من حجر من تحت ، وأغلقت البوابات اللداهبة فى الهواء بأبواب عظيمة ، واحتفظت

(١) برنت : العربية (٢) زيادة فى ترجمة فريمان (٣) ييجر : طريق الإلهة

(٤ - ٤) ييجر : الذى يهذى ذلك الذى يعرف دون خطأ أين يذهب .

(٥) برنت : وجوهن (٦) فريمان : قصر .

العدالة dikê ذات العقاب ^(١) الشديد في يديها بمفاتيحها . وخطبتها العذارى بألفاظ عذاب يعرّينها بإزالة العوارض عن البوابات بغير إبطاء . فلما انفتحت الأبواب كشفت عن فضاء واسع ، ثم عادت مساميرها البرونزية إلى مواضعها . وفي هذا الطريق المستقيم أتجهت بي العذارى يقدن العربة والأفراس ، حيث استقبلتني الإلهة بترحاب ، وأخذت يدي اليمنى بين راحتيها ، وخطبتني بهذه الألفاظ :

مرحى أيها الشاب ، يارفيق المهاديات ^(٢) الخالعات ، اللاتي أرشدن عربتك إلى بيتي . مرحى ... لقد أرسلت في هذا الطريق بالأمر الإلهي Themis ^(٣) والعدالة Dikê لا القدر السيئ (وإنه حقا لطريق بعيد عن أقدم البشر) ^(٤) . جئت تبحث في كل شيء : عن الحق الثابت المستدير ، كما تبحث عن ظنون البشر الفانين التي لا يوثق بها . ولكنك لابد أن تعلم هذه الأمور أيضا (أي الظنون) ، وكيف تنظر في جميع الأشياء التي تظهر (أي المظاهر) وتبحث فيها .

ولكن عليك أن تتبعد بفكرك عن هذا الطريق من البحث ، ولا تجعل الإلف مع التجارب الكثيرة تدفعك إلى أن تلتقي على هذا الطريق عينا مبصرة ، أو أذنا واعية ، أو لسانا ناطقا ، بل احكم بالجدل ^(١) Logos على ما أنطق من براهين ، فلا يوجد أمامك سوى طريق واحد مذكور .

طريق الحق

(٢)

انظر بعقلك نظراً مستقيماً إلى الأشياء ، وإن كانت بعيدة فهي كالقريبة

(١) برنت : الانتقام (٢) أي العذارى سائقات العربة (٣) ثيميس ابنة السماء والأرض ، وأم الساعات والحظوظ ، وهي ربة نظام الأشياء طبقاً للقانون والعرب ، وفي ترجمة فريمان divine command ، وعند برنت الحق right ، ولم يترجمها بيجر (٤) إضافة عند فريمان . (٥) لوجوس هنا بمعنى الجدل لا بمعنى الكلمة عند هرقليطس . وعن هذا المعنى البارمنيدي أخذ سقراط (برنت) .

ولن تستطيع أن تقطع ما هو موجود عما هو موجود ، فـ [الأشياء] لا تفرق نفسها ولا تجتمع .

(٣)

كل شيء واحد من حيث أبدأ لأنني سوف أعود إلى المكان نفسه .

(٥، ٤)

أقبل الآن لأخبرك ، واسمع كلتي وتقبلها . هناك طريقتان لا غير للمعرفة يمكن التفكير فيهما، الأول أن الوجود موجود To eon = Tt is ولا يمكن أن يكون غير موجود ، وهذا هو طريق اليقين ، لأنه يتبع الحق . والثاني أن الوجود غير موجود ، ويجب ألا يكون موجودا ، وهذا الطريق لا يستطيع أحد أن يبيحه ، لأنك لا تستطيع معرفة اللاوجود ولا أن تنطق به^(١) ، لأن الفكر والوجود واحد ونفس الشيء^(١) .

(٦)

ما^(٢) يلفظ به ويفكر فيه يجب أن يكون موجوداً^(٢) ، لأنه من الممكن أن يكون الوجود موجوداً ، ومن المستحيل أن يوجد اللاوجود. إنني أمرك أن تتأمل هذه الأمور ، وأنه ترجع عن ذلك الطريق [الأول للبحث] وعن هذا الطريق الآخر أيضا الذي يضل فيه البشر ، ولا يعرفون شيئا ناظرين إليه بوجهين ، لأن الارتباك الموجود في صدورهم بضلل عقولهم حتى لقد يعيشون كالصم والعمى والطعام الذين لا يميزون ، فيذهبون إلى أن الوجود موجود ، واللاوجود موجود ، وأن الوجود واللاوجود شيء واحد^(٣) ، وإلى أن كل شيء يتجه في اتجاهات متضادة^(٣)

(٧)

لأنه لا يمكن أبدا إثبات أن اللاوجود موجود ، وعليك أن تصرف نظرك عن هذا الطريق من البحث .

(١-١) هذه الترجمة عن ييجر . أما برنت فيترجم العبارة كما يأتي : لأن ما يمكن أن يعقل وأن يوجد شيء واحد . وعند فريمان : فأني يعقل وأن يوجد شيء واحد . (٢-٢) هكذا عند برنت وكورنهورد ، أما فريمان فنسدها « يجب على المرء أن ينطق وبفكر بأن الوجود موجود »
(٢-٣) كورنهورد : وإلى أن هناك طريقا لجميع الأشياء يدور على نفسه .

(٨)

فلم يبق لنا إلا طريق واحد نتحدث عنه ، وهو أن الوجود موجود . وفي هذا الطريق علامات كثيرة تدل على أن الوجود لا يكون ولا يفسد ، لأنه كل ووحيد التركيب mounogenes ، [ووحيد unique - كذا في ترجمة كورنفورد ويفسرهما أى الوحد من نوعه - وعند برنت واحد متصل continuous one] لا يتحرك ، ولا نهاية له . وأنه لم يكن ، ولن يكون ، لأنه الآن كل شيء ، مجتمع ، واحد ، متصل . فأى أصل لهذا الوجود تريد أن تبحث عنه ؟ وكيف ومن أى أصل نشأ ؟ إنى لن أسمع لك بالقول أو التفكير أنه نشأ من اللاوجود ، لأن اللاوجود لا يمكن أن يعبر عنه أو يفكر فيه . وأيضاً إذا كان قد نشأ من اللاوجود ، فما الضرورة التى جعلته ينشأ متأخراً عن وقته أو قبل ذلك ؟ فهو إما أن يكون قد وجد مرة واحدة ، أو لم يوجد أصلاً . ولن تسلم قوة اليقين فى أنفسنا بأن شيئاً خرج إلى الوجود من اللاوجود ، اللهم إلا من الوجود ذاته . ولذلك فإن العدالة لم تخفف قيودها وتسمح للوجود بأن يكون أو يفسد ، بل العدالة تشد الوجود بقيد وثيق . ويتوقف الحكم على هذه الأمور على ما يأتى : « هل الوجود موجود أو غير موجود ؟ » لهذا يلزم بالضرورة أن تتجاهل أحد الطريقين لأنه لا يمكن التفكير فيه أو التعبير عنه (إذ هو طوبى غير صادق) وأن نأخذ الطريق الثانى لأنه طريق الوجود والحقيقة . وما مصير الوجود فى المستقبل ؟ أو كيف يمكن أن يوجد ؟ إذا جاء إلى الوجود فليس بموجود . وكذلك إذا وجد فى المستقبل . وبذلك نزول الصيرورة ولا يتحدث أحد عن الفساد .

وليس الوجود منقسماً ، لأنه كل شيء متجانس ، ولا يوجد هنا أو هناك أى شيء يمكن أن يمنعه من التماسك ؟ وليس الوجود فى مكان أكثر أو أقل منه فى مكان آخر ، بل كل شيء مملوء بالوجود ، فهو كل متصل لأن الموجود متماسك بما هو موجود .

وأيضاً فإنه لا يتحرك من جهة حدوده القوية الأسر ، بلا بداية ولا نهاية ، لأن الكون والفساد [أى ما يظهر وما يختفى] قد أبعدا ، إذ أبعدهما اليقين الصادق . إن الوجود ذاته يظل فى المكان نفسه ، باقياً بنفسه ، ثابتاً على الدوام ، لأن الضرورة تمسكه داخل قيود النهاية التى تحيط به ، فقد حكم القانون الإلهى ألا يكون الوجود بغير نهاية ، فهو لا يحتاج إلى شيء ؛ أما إذا كان لانهاية [فريمان : من جهة المكان] فإنه يحتاج إلى كل شيء .

وما تفكر فيه ، وما من أجله يوجد التفكير ، شيء واحد ، لأنك لا تجد تفكيراً في غير الوجود الذي تعبر عنه بالكلام . إذ ليس شيء موجوداً ، ولا سوف يكون موجوداً ما خلا الوجود ، مادام القدر قد قيده ليكون كلاً لا يتحرك . وبناء على ذلك ليست جميع الأشياء إلا أسماء أطلقتها البشر عليها ، واعتقدوا في صدقها ، مثل : الكون والفساد ، الوجود واللاوجود ، النقلة في المكان ، وتغير اللون الساطع .

وحيث كان له [أى للوجود] حد بعيد ، فهو كامل من جميع الجهات ، مثل كتلة الكرة المستديرة المتساوية الأبعاد من المركز ، لأنها ليست أكبر أو أصغر في هذا الاتجاه أو ذاك ، ولا يعوقها شيء عن بلوغ النقط المتساوية عن المركز ، وليس الوجود أكثر أو أقل وجوداً في مكان دون آخر ، بل هو كل لا انفصال فيه . ولما كان الوجود متساوياً من جميع الجهات فإنه يباغ الحدود بشكل متجانس .

طريق الظن

وإذ قد بلغت هذا الموضع فإنني أقفل باب الكلام الصادق Logos والفكر المتعلق بالحق . وعليك من الآن فصاعداً أن تتعلم آراء البشر ، مصغياً إلى التسلسل الخادع لألفاظي .

لقد تعود البشر تسمية صورتين ، ويجب أن يمسكوا عن ذكر إحداها عند الانحراف عن الحق [كورنفورد : إذا ذهبوا بعيداً] . وقد ميزوا بينهما من حيث تضادهما في الصورة ، واستدلوا عليهما بعلامات مختلفة . إحداها النار في السماء ، وهي نار رقيقة ، لطيفة ، متجانسة من جميع الجهات ، ولكنها تختلف عن الأخرى . وهذه الصورة الأخرى تضادها تماماً : إنها الليل الظلم ، جسم ثقيل كثيف . وإنني واصفة لك نظام هذا العالم كما يظهر ، حتى لا يسبقك تفكير أى إنسان .

(٩)

ولما كانت جميع الأشياء تسمى النور والليل ، وأطلقت الأسماء على كل صنف من الأشياء طبقاً لقوة dunamis كل منهما [يريد النور والليل] ، ففي كل شيء [كورنفورد : فالكل مملوء] مقدار متساو من النور والليل اللامرئ ، إذ لكل منهما نصيب .

(١١، ١٠)

وستعرف طبيعة السماء ، وجميع العلامات الموجودة فيها ، والأثر الفسد لاشتعال الشمس الساطعة الضوء ، وكيف نشأت [أى الأجرام السماوية] إلى الوجود . وستعلم كذلك طبيعة القمر ووجوهه وأعماله فى سيره . وستعرف أيضا السماء التى تحيطنا ، من أين نشأت ، وكيف جعلتها الضرورة تمسك حدود النجوم . وكيف نشأت الأرض ، والشمس ، والقمر ، والسماء المشتركة للجميع ، والمجرة ، وأوليمبوس البعيد ، وقوة النجوم الساطعة .

(١٢)

لقد امتلأت الحلقات الأضيى بالنار غير المتزجة ، وما يليها من حلقات بالليل ، ويندفع من بينهما أجزاء من اللهب [أى النار] . وفى وسطها توجد الإلهة التى تدبر جميع الأشياء ، ذلك لأنها أصل كل نسل وتنامل ، فهى التى تسوق الأنثى للائتلاف مع الذكر ، وتدفع الذكر إلى الصلة بالأنثى .

(١٣)

وأول ما أبدعت من الآلهة هو الحب Eros .

(١٤)

[القمر] يضىء ليلا بنور يستمد من خارج ، دائرا حول الأرض .

(١٥)

[القمر] ينظر دائما نحو أشعة الشمس .

(١٦)

وكما أن الأعضاء [فريمان : الأطراف الهائلة] تبرز فى كل إنسان ، كذلك العقل يبرز فى البشر . لأن العقل الذى يفكر واحد ، وهو تركيب الأعضاء فى كل شخص من الناس ، لأن زيادة [النور أو الليل] هى التى تكون العقل .

(١٧)

الصبيان إلى اليمين ، والبنات إلى الشمال .

(١٨)

وهكذا طبقا لآراء البشر [أى للظن] نشأت هذه الأشياء ، ولا تزال حتى الآن ، وسوف تكون وتفسد . وأطلق الناس على كل شيء اسما ثابتا يميزه .

الافتتاح :

[٧١] تنقسم القصيدة ثلاثة أقسام ، مقدمة ، وطريق الحق ، ثم طريق الظن . ولا ريب أن القصيدة كانت أطول من المقدار الموجود لدينا الآن ، ولكن مقدمتها على الأقل كاملة . وتعد هذه المقدمة أشبه بالافتتاح الموسيقى للأوبرا ، ذلك الافتتاح الذى يهيب الجولتميلية . وقد درج القدماء على إغفال النظر فى المقدمة ، وعدوها اتباعا شكليا محضالما جرت عليه عادة الشعراء الذين درجوا على مخاطبة الآلهة واستلهم وحيهم ، كما درج شعراء العرب على الوقوف على الأطلال . ولكن دراسات المحدثين أثبتت أن بارمنيدس اتبع هذا الأسلوب عن قصد ، وأنه يعارض فى ذلك هزIOD بوجه خاص الذى كان يستوحى ربات الشعر اللاتى علمنه الحقيقة ، وكذلك فعل بارمنيدس ولكنه يستوحى « ربة واحدة » لم يفصح عن اسمها ، ويصرح بأن كل ما تعلمه إنما جاء على لسانها ، وقد تعلم منها الحقيقة الخاصة بالوجود فى مقابل المظاهر التى يزعم البشر معرفتها ، فالأصل فى معرفة الحقيقة إلهى ، أكثر مما يستطيع البشر تحصيله .

وتتخلص هذه الصورة الشعرية فى أن بارمنيدس كان يركب عربة تجرها أفراس وتقودها العرائس بنات الشمس إلى حيث الأبواب التى تفصل بين النهار والليل أو النور والظلمة ، حتى إذا اجتاز ذلك الطريق الإلهى حدثته الإلهة وأوحت إليه دون غيره من الناس بالحق . وقد حاول سكستوس إمبريكوس فى الزمن

القديم أن يفسر رموز هذه الصورة الشعرية فذهب إلى أن العربة والأفراس رمز إلى أعضاء الحس التي تعلمنا عالم الظواهر ، وأن عجلات العربة كالآذان ، وما يصدر عنها من صوت كالزمر هو السمع . أما بنات الشمس اللاتي خلن عن وجوههن النقاب فإنها العيون . وقد شبه أفلاطون في محاوره «فيدر» الجسم والنفس بعربة يجرها جوادان هما الشهوة والغضب ، ويقودها سائق هو العقل ، ولكن تشبيه أفلاطون يختلف عن رمز بارمنيدس . ثم أين العربة والأفراس بعد أن استقبلته الإلهة وأخذت تعلمه ؟ إذا كانت حقا ترمز للحواس وما تجلبه من معرفة ، فقد أمرته الإلهة أن يعدل عن العين المبصرة ، والأذن الواعية ، وأن يحكم بالعقل وحده . إذن فما هي الصلة بين تجارب الحواس وبين أحكام العقل ؟ هذه هي المشكلة التي بسطها بارمنيدس ولم يحلها ، ونظر فيها الذين جاءوا بعده .

وإذا تعمقنا النظر في هذه المقدمة رأينا أن بارمنيدس يشير إلى معظم السابقين ويرفض مذاهمهم . فالإشارة إلى العجل وما يصدر عنه من شرر ترجع إلى المدرسة الأيونية ، والإشارة إلى الليل والنهار تذكر بالمدرسة الفيثاغورية وماعقدته من تقابل بين الأضداد ، والتي ذكر أرسطو منها عشرة ، نذكرها فيما يلي :

النهائي	اللانهائي	الفرد	الزوج
الوحدة	الكثرة	اليمن	الشمال
الذكر	الأنثى	السكون	الحركة
المستقيم	المتعرج	النور	الظلمة
الخير	الشر	المربع	المستطيل

وهو يشير كذلك إلى هرقليطس متهاكما ، وذلك حين يقول : إن البشر يجمعون

بين طريقى الحق والظن ، فينظرون بوجهين ، أى تارة إلى الحق وتارة إلى الظن ،
ويذهبون إلى أن الموجود واللاموجود شئ واحد . فما معنى الطريق ، وما الطريق
الذى يؤثره بارمنيدس .

الطريق :

[٧٢] تحدث بارمنيدس فى القصيدة أكثر من مرة عن الطريق Hodos ،
فهناك الطريق المألوف عند غيره من الحكماء الذين يطوفون بالمدن ويتلقون العلم من
الأفواه ومن التجارب ، ولكنه يسلك طريقاً آخر إلهياً هو ذلك الذى سارت فيه العرية
ترشدها العذارى بنات الشمس حتى بلغ الحد الفاصل بين الليل والنهار . أما طريق الليل
والظلام فهو طريق البشر ، وأما طريق النور الذى فتحت له أبوابه - وهنا نلاحظ أنه لم
يهتد إلى الطريق بعقله هو بل بعناية الإلهة - فهو طريق مستقيم يودى إلى الحق
الثابت ، على العكس من طريق البشر الذى يقف عند الظن . وليس أمام طالب
الحقيقة إلا طريق واحد ، هو طريق العقل الذى يبحث فى الوجود الثابت ، أما طريق
الظن فيضل فيه البشر .

ومن الواضح أن بارمنيدس يشبه طريق المعرفة بالطريق المادى الذى يمشى فيه
الناس على أقدامهم . وقد تطورت الفكرة واشتقت المناهج العقلية من الطرق ، وآية ذلك
الصلة بين اللفظتين فى اليونانية *hodos* ، *methodos* . أما فى اللغة العربية فاستعمال
الطريق يدل على المعنيين الحسى والعقلى معاً ، بل والصوفى أيضاً .

ولعل هذه العناية الشديدة بإبراز فكرة الطريق هى التى جعلت بعض المؤرخين
يذهبون إلى أن بارمنيدس هو مؤسس المنطق ، فعند كورنפורد أنه « نبي المنطق » .

وأساس المنطق الاعتماد على مبادئ عقلية ينبغي أن نسلم بها تسليماً مثل مبدأ الهوية identity ، ومبدأ عدم التناقض non-contradiction ، وبذلك يمكن استخلاص النتائج من المقدمات التي نضعها . هذا على العكس من معاصره الكبير هرقليطس الذي جمع في الحقيقة بين الأضداد ، ولذلك تهكم عليه بارمنيديس بقوله إنه ينظر بوجهين . وقد اعتمد المنطق الأرسططاليسي على مبدأ عدم التناقض وأخذ به العالم أكثر من عشرين قرناً من الزمان ، ولا يزال هذا المنطق سارياً حتى اليوم على الرغم من ظهور ألوان أخرى من المنطق تعتمد على مبادئ خلاف مبدأ عدم التناقض . وإنما يتيسر التفكير المنطقي الدقيق حين يتصور المرء المعاني ، وبخاصة المعاني الكلية ، في الذهن منفصلة عن الوجود الخارجي . وهذا ما فعله بارمنيديس ، إذ قابل بين الفكر والوجود ، بين المعقول والمحسوس . ومن أجل ذلك قال عنه الأستاذ رى Rey في كتابه شباب العلم اليوناني ما نصه : « أما أن يكون [بارمنيديس] أصل كل فلسفة تختص بالعقل والجدل والمنطق ، فأمر لاشك فيه . وأما أن يكون أصل منهجنا العلمي من حيث يتميز عن المناهج الفلسفية ، بل ويقابلها ، فالأمر أشد تعقيداً ويحتاج إلى نظر » ^(١) .

وقد ناقش الأستاذ رى فكرة المنهج العلمي ، وانتهى إلى أن فلسفة بارمنيديس النافذة كانت حجر الأساس في المناهج العلمية حتى اليوم . ذلك أن المنهج العلمي يستند إلى مشاهدة الظواهر المحسوسة ، ولكنه لا يقف عندها ، ولا يعتمد عليها وحدها ، ولكنه يرتفع منها إلى معقولات كلية ، إلى قوانين ثابتة ، إلى صيغ عامة

(1) Rey : Lajeunesse de la science Grecque, p 147.

رياضية ، هي أعلى من المحسوس وأسمى منه ، وتدرك بالعقل لا بالحس . فإذا رجعنا إلى بارمنيدس رأينا أنه يقابل بين العالم الحسى وبين العالم العقلى ، ويجعل المظاهر الحسية أثراً لحقيقة معقولة لا تدرك إلا بالعقل . وبذلك حل الأستاذ رى مشكلة بارمنيدس أهو مَادى أم مثالى ، إذ جمع فيه بين المادية والمثالية ، وأعلى حد تعبيره إنه مَادى ولا مثالى .

وهذا يقتضى منا أن ننظر فى الوجود البارمنيدي ، أو فى الجانب الميتافيزيقى من فلسفته . وقبل أن نمضى فى هذا النظر نود أن نتابع مناقشة الجانب المنطقى من فلسفته فى ضوء جديد ، هى تلك الزاوية التى يبصر منها برتراند رسل فلسفة بارمنيدس ، اعتماداً على بعض نصوصه التى يقول فيها : « من المستحيل أن تعرف اللاوجود أو تنطق به لأن الفكر والوجود شيء واحد » . وهناك نصوص أخرى يقرن فيها بين مانكر فيه ، ومانعبر عنه باللفظ ، فهناك صلة قوية بين التفكير واللغة ، بين المعنى واللفظ . وإذا أردنا أن نتم الحلقة أيضاً ، فيجب أن نضيف إلى المعنى واللفظ الشيء الخارجى الذى يقابل المعنى الذهنى مثال ذلك ، الشمس المحسوسة الموجودة فى السماء ، يقابلها فى الذهن معنى Concept الشمس ، ثم تنطق بلفظة الشمس المركبة من الشين والميم والسين للدلالة على هذا المعنى . وقد فطن بارمنيدس إلى العلاقة الوثيقة بين المعانى والألفاظ ، إذ فى الواقع نحن لا نفكر إلا فى أبواب من اللغة . وليس المنطق إلا عمل العقل حين يربط الألفاظ ليخرج منها بنتائج جديدة . وعند برتراند رسل أن بارمنيدس يريد إثبات الوجود من الألفاظ ، لأنك لا تنطق إلا إذا كان الشيء موجوداً . فهى فلسفة فى أساسها « لفظية » . ويشارك الأستاذ رى برتراند رسل فى هذه النظرة حيث يقول : « إنها فى أساسها نظرية اللفظ Théorie du verbe

- [الكلمة] بكل ما في هذا الاصطلاح من قوة لغوية - أكثر منها نظرية
المعنى « idée »^(١) .

الحقيقة .

[٧٣] وإذا كان بارمنيدس - كما قد قيل - نبي المنطق ، فهو كذلك نبي
الميتافيزيقا ونبي الحقيقة Aletheia التي بين طريقها ، وخلصها في هذه العبارة
المشهورة « الوجود موجود » . فما هي صلة الوجود بالحقيقة ؟ وهل يقصد بارمنيدس
الحديث عن الوجود أو الموجود ؟ وإذا كان المقصود هو الموجود ، فهل هو موجود
مادى أو مثالى ؟ وهل نعد قوله إن الوجود موجود تحصيل حاصل ، أو أنه أضاف
بذلك معنى جديدا ؟ .

ونبدأ بالإجابة عن السؤال الأخير لأنه يتصل اتصالا وثيقا بالمنطق الذى عرضنا له في
الفقرة السابقة ، ولبدأ هام يعد أساساً من أسس المنطق نعى مبدأ الهوية . الواقع أن
محور المنطق القديم كله يدور حول هذا المبدأ أو إن شئت حول المبدأ الثانى المعروف
بعدم التناقض . ويعبرون عن المبدأ الأول بالرموز بقولهم $a = a$ ، أو a هو a .
وعن المبدأ الثانى بقولهم a لا يساوى a - ، أو a ليس a . ولم يكن القدماء
يفرقون في الرابطة بين المساواة والهو ، ويعدونهما شيئا واحداً ، مع أن المساواة من
المعاني الرياضية ، والهو [وهى التى يعبر عنها فى اللغات الأجنبية بفعل الكينونة
مثل A is A لإثبات الوجود فى الحمل] . ولنصرب مثلاً محسوساً ، فنقول « الماء [هو]
سائل » $Water [is] liquid$ ، فإن منطقة العرب جعلوا الرابطة « هو » بديلاً
عن فعل الكينونة أو الوجود فى اللغات الأجنبية . والرابطة متصلة بالموضوع وهو

الماء ، أى أن الماء « موجود » سائل ، إذ لو كان الماء غير موجود ما أمكن أن نصفه أو نحمل عليه صفة السيولة . ولكن هل يوجد من يزعم أن الماء غير موجود ؟ نعم ، فى ذلك العصر الذى كان يعيش فيه بارمنيدس كان هرقليطس يقول إن الشئ غير موجود ، ولا يمكن أن يوجد ، لأنك لا تنزل مجرى النهر مرتين بشكل واحد ، لأن مياهاً جديدة تغمرك باستمرار . ويقول أيضاً إنك تكون ولا تكون . فهرقليطس فيلسوف الصيرورة المتغيرة على الدوام . ولا يعنينا الحل الذى رآه بلوغ الحقيقة من خلال هذه الأضداد وهذا التغير المستمر ، لأن ذلك الحل لم يعجب أحداً من القدماء . جملة القول إذا كان الشئ المحسوس دائماً التغير ، يكون ثم يفسد ، يظهر ولا يلبث أن يختفى ، فهو إذن غير موجود . والعقل يريد أن يطمئن إلى شئ ثابت يفكر فيه ، ويستطيع أن يطلق عليه اسماً أو لفظاً ، ولا يتسنى ذلك فى الأشياء التى ندركها بالحواس ، بل فى تلك التى ندركها بالعقل . ومن أجل ذلك استبعد بارمنيدس طريق الحواس أى طريق الظن ، لأن الأشياء فيه لا تكون موجودة ، وسلك طريق الحق ، لأنه الطريق الذى تكون الأشياء فيه موجودة . فإذا شئت أن تعرف وجود الموجودات فعليك بذلك الطريق ، « لأنك لا تستطيع معرفة اللاوجود ولا أن تنطق به ، لأن الفكر والوجود شئ واحد » .

الوجود :

[٧٤] فالعقل لا الحواس هو المرجع فى المعرفة ، وهو يقع فى مقابل الوجود الخارجى ، وهو الذى يمكن أن يدرك هذا الوجود . ومن هذا الوجه يعد بارمنيدس مؤسس الميتافيزيقا ، من حيث إنها تقابل بين الفكر والوجود ، ثم أصبح موضوع الفكر « نظرية المعرفة » ، وموضوع الوجود « نظرية الوجود » ، أو

الأنتولوجيا . Ontology . وأنت ترى أن هذا الفرع من الميتافيزيقا إنما يرجع إلى البحث في الموجود الذى عبر عنه بارمنيدس باليونانية بقوله « on » أى الموجود الواحد فى مقابل كثرة الموجودات Ta onta كما نصورته المدرسة الأيونية وغيرها من المدارس ، وسلمت بوجودها .

وكانت عبارة بارمنيدس فى اليونانية مصدر اختلاف بين المترجمين ، وبين الشراح ، فهو يقول to eon ، أى الموجود ، كأنه يريد الشئ المحسوس الخارجى ، فكيف ذهب المترجمون إلى ترجمتها « الوجود موجود » ، وكان الأولى أن يقولوا « الموجود موجود » أو « الشئ موجود » أو « هو موجود » . It is الواقع كما ذكرنا من قبل أن مجرد تصور الموجود يدل على وجوده ، فقولنا الوجود موجود ليس من قبيل تحصيل الحاصل ، بل فيه إضافة معنى جديد هو إثبات الوجود للشئ . أو إن شئت قالشئ الموجود يحمل فى طياته معنى وجوده ، فالموجود ووجوده واحد . ولكن إثبات لفظة « الموجود » يدل على اتجاه الذهن إلى الشئ المادى ، سواء أكان هذا الشئ المادى محسوساً وكانت الموجودات كثيرة ، أم كان هذا الشئ المادى واحداً لا غير ويشمل سائر الموجودات . وهذا هو تفسير « برنت » حين يحمل الفرض الذى يقصده بارمنيدس من عبارته الموجود الواحد المادى ، حتى ليصفه بأنه « أب المادية » . Father of Materialism . ولكن قوما آخرين فسروا فلسفته تفسيراً آخر وزعموا أنه بعيد البعد كله عن المادية ، وأنه لا يقصد بأى حال الموجود المادى الواحد ، بل الوجود ، أو على أقل تقدير الموجود المعقول ، فالواحد عنده صورة أو مثال ، ولذلك كانت فلسفته مثالية . ونحن نميل إلى رأى الأستاذ رى القائل بأنه لا مادى ولا مثالى ، أو هو هذا وذاك

في آن واحد . والحق أن بارمنيدس لم يكن يعرف المذهب المادى أو المذهب
الثالى ، ولكننا نحن الذين نحمل فلسفته فوق ما تطيق ، ونصوغها في ضوء هذه
المذاهب .

ولا نستطيع أن نقالى فنقول إنه فعل مثل ديكارت فثبت الوجود بعد إثبات
الفكر في عبارته للشهورة « أنا أفكر إذن أنا موجود » ، ولكنه وصل بينهما
إلى حد التوحيد ، فالفكر والوجود شيء واحد ، وإذا فكر الإنسان في شيء فهو
موجود ، وإذا لم يستطع أن يفكر فيه فهو غير موجود « لأنك لا تستطيع معرفة
اللاوجود ولا أن تنطق به »

وقد وصف بارمنيدس موجوده بأوصاف كثيرة هي التي دفعت برنت ومن ذهب
مذهبه إلى القول بمادية رأس المدرسة الايلية .

فالوجود - كما نرى من النصوص - كامل ، لا يكون ولا يفسد ، ولا يتحرك ،
ولا نهاية له ، وليس منقسما ، وكل متجانس ، وهو كرة مستديرة متساوية الأبعاد من
مركزها . وجدير بمثل هذه الصفات أن تنطبق على الكائن المادى ، وبخاصة القول
بأنه « كرة » ، ونحسب أن الكرة من جملة الماديات . فإذا كان الأمر كذلك ، فما هي
حجة المثاليين أو الواقعيين في الزعم بأن بارمنيدس ليس ماديا ؟ حجتهم أنه لا يصف
الموجود في عالم الحق ، بل في عالم الظن ، وليس للموجود في عالم الحق إلا صفة واحدة هي
الوجود ، أما سائر الصفات فإنها سلبية ، « لا » يتحرك « لا » ينقسم ، « لا » بداية له
و « لا » نهاية ، « لا » يكون و « لا » يفسد ، وهكذا ، فإذا كان قد أطلق عليه أنه كرة
فذلك لأن الكرة لا بداية لها ولا نهاية وهي أكل الأشكال الهندسية ، فضلا
عن أنه يصف الوجود الحقيقي بالكرية على سبيل التشبيه والمثال لاعلى سبيل الحقيقة ،

أما ما نطلقه على الأشياء من أسماء فليست إلا مسميات أطلقها البشر . هذا والمذهب المادى يعتمد على المحسوس ويتخذ معيارا للحقيقة، وليس الأمر كذلك عند بارمنيدس، لأن العقل عنده هو المعيار .

وينبغى أن ننبه على حقيقة أخرى تتضح لنا من نصوصه ، هى أنه لا يقابل بين الفكر والوجود بحيث يفصل بينهما فصلا حاسما ، بل على العكس يجمع بينهما ، أى بين المدرك والمدرك ، بين العاقل والمقول ، لأن « ما نفكر فيه وما من أجله يوجد التفكير شىء واحد ، لأنك لا تجد تفكيرا فى غير الوجود الذى تعبر عنه بالكلام » .

وقد يظهر أن هذه الآراء مغرقة فى التفلسف البعيد عن الحياة المنقطع عن الواقع ، مع أننا قلنا فى ابتداء هذا البحث إن الفلسفة اليونانية كانت حية تسير البيئة ، وتجد لها صدى فى البيئة وتلائم حاجات . ولم تكن فلسفة بارمنيدس ميتة ، بل اتصلت بالجمهور وأثرت فيه ، وذلك عن طريق تلميذه زينون الذى اضطلع بتفسير نظرياته والدفاع عنها ، فضلا عن أنها أثارت فكر أفلاطون وأرسطو فيما بعد وفلسفتها عماد كل فلسفه حتى العصر الحديث . هذا إلى أنه مؤسس الميتافيزيقا وهى لب الفلسفة وجوهرها . فإذا كان حيا ، فهو كذلك بأفكاره التى تزال قائمة حتى اليوم .

حياته :

[٧٥] عرفنا من قبل أن زينون ذهب إلى أثينا مع بارمنيدس حول عام ٤٥٠ ق. م ، وكانت سنة في الأربعين ، وذلك في العيد المسمى بنائيناي ، وهو عيد مشهور يزور فيه الأجانب مدينة أثينا ، ونجد طيماوس في المحاورة المعروفة باسمه يند على أثينا هو وهرمقراطس في تلك المناسبة أيضا . وقد علمنا ذلك من افتتاح محاورة بارمنيدس ، حيث يروي الحوار شخص اسمه سيفالوس السكلازوميني ، الذي سمع من أنطيفون ما دار بين بارمنيدس وزينون وسقراط من حوار ، ولم يكن أنطيفون نفسه حاضرا ولكنه حفظ الحوار عن فيثودورس Pythodorus ، وهو أحد قواد أثينا الذي ذهب إلى صقلية عام ٤٢٧ بدعوة من لينتينس Leontines . وفي محاورة ألقبيادس أن فيثودورس وكالياس دفع كل منهما مائة دينار أجرا لتعلمهما ^(١) . ويروي فلوطرخس أن بركليس سمع فلسفة زينون ، الذي استقر في أثينا بعض الزمن في أكبر الظن . ولا يمكن الجزم بصحة محاورة بارمنيدس تاريخيا ، إذ يذهب النقاد إلى أن تأليف الحوار وترتيب اللقاء بين الفلاسفة الثلاثة في بيت فيثودورس هو من خيال أفلاطون . وهذا هو نص الرواية على لسان أنطيفون في محاورة بارمنيدس :

(١) محاورة ألقبيادس ١١٩ ، ١ - حيث يطعن سقراط على بركليس قائلا إنه لم يستطع أن يعلم ولديه الحكمة ، بل ولا أي أثيني أو أجنبي ، على العكس من ذلك على سبيل المثال فيثودورس بن ليزولوقس وكالياس بن كاليادس ، فإنهما اكتسبا الحكمة من صحة زينون ، فدفع كل منهما لقاء ما تزود به من حكمة وشهرة مائة « ميناي » أي ما يساوي مائة دينار .

« وفد زينون وبارمنيدس ذات يوم إلى أثينا لحضور عيد بنائيناي الكبير . وكان بارمنيدس مهيبا ، متقدماً في السن ، يكاد شعره أن يكون خالص البياض ، ولعله كان في الخامسة والستين من العمر . أما زينون فيبلغ الأربعين ، طويل جذاب ، ويقال إنه كان صاحب بارمنيدس . وكانا يجلسان مع فيثودورس خارج الأسوار في سيراميكوس^(١) . ثم حضر سقراط وعدد قليل غيره في شوق للاستماع إلى زينون وهو يقرأ كتابه الذي أحضره معهما الزائران لأول مرة في أثينا . وكان سقراط في ذلك الحين شابا صغيرا . وكان زينون يقرأ بنفسه ، ولم يكن بارمنيدس حاضرا إذ انصرف في تلك اللحظة ، ولم يكده يفرغ من قراءة الحجج ، حتى دخل فيثودورس ومعه بارمنيدس ، وأرسطوطاليس الذي أصبح فيما بعد أحد الثلاثين ، وبذلك لم يسمعا إلا جزءاً يسيراً من الكتاب . ومع ذلك فإن فيثودورس كان قد سمع زينون يقر . عليهم قبل ذلك » .

هذه هي الصورة التي يقدمها لنا أفلاطون لزينون ، فهو أجنبي عن أثينا وفد إليها ، واستقبله فيثودورس أحد قواد أثينا في منزله ، فأخذ يستمع إليه ، ويتعلم على يديه بالأجر ، كما يحدثنا أفلاطون في محادثة أقيادس ، وكانت هذه بداية عصر السفطائيين الذين يعلمون الحكمة بالأجر . وكانت للفلسفة في ذلك الزمان منزلة عظيمة ، فما نحن نرى حكام أثينا وأصحاب الرأي فيها يستقدمون الفلاسفة ويستضيفونهم في بيوتهم ، ويغدقون عليهم الأموال ، ويستمعون إليهم ويتعلمون على أيديهم ، ويستمتعون بكتبهم ، ويهيئون لأصدقائهم الاستماع إليهم . وظلت هذه حال الفلسفة من الحياة الحرة في بيوت الخاصة والمناسبات حتى ، أنشئت المدارس المنظمة فيما بعد وعلى رأسها أكاديمية أفلاطون ومدرسة المشائين .

(١) Ceramicus أحد أحياء أثينا .

وحكى الرواة المتأخرون سيرة زينون ، فذهب أبولودورس إلى أنه زها في الأولمبياد التاسع والسبعين ، بين عامى ٤٦٤ و ٤٦٠ ق . م ، وأنه ابن تليوتاجوراس Teleutagoras . ويقال إنه شارك في سياسة مدينة إيليا ، فهبأ لها حكومة صالحة . ويذهب سترابون إلى أنه كان من الفيثاغوريين ، ولا غرابة في ذلك ، فقد رأينا أن بارمنيدس أستاذه قد تلقى العلم على أمنياس الفيثاغورى ، بل إن الفلسفة الإيلية لتعد فرعاً من تلك المدرسة الكبرى . ويقال إنه تأمر على طاغية إيليا نيارخوس ، ولكن أمره انكشف ، وقبض عليه ، وعذب عذاباً شديداً ليفضى بأسماء شركائه من المتأمرين ، إلا أنه رفض أن يبوحيهم .

كتبه :

[٧٦] اعترض سقراط على زينون في شرحه لفلسفة بارمنيدس ، وأقام اعتراضه على أساس أن بارمنيدس يقول : « إن الكل واحد » وأن زينون يقول : « الأشياء ليست كثيرة » ، وهناك فرق بين القولين . فأجاب زينون معتذراً بأن كتابه كان يهدف إلى الدفاع عن أدلة بارمنيدس ضد أولئك الذين يسخرون من تلك الأدلة مبينين أن القول بالواحد يفضى إلى متناقضات كثيرة . فالكتاب ردٌّ على القائلين بالكثرة ، وأن قولهم هذا يؤدي كذلك إلى متناقضات كثيرة . وأنه ألف الكتاب في شبابه في ضوء هذه الروح الجدلية ، ثم نسخها بعض الناس على الرغم منه ودون علمه بحيث لم يستطع النظر فيه . وبذلك يتضح من محاوراة أفلاطون هذه الحقائق ، وهى أن زينون كان يقرأ كتابه هو الذى يدافع فيه عن فلسفة أستاذه ، وأنه كتبه في شبابه دون أن ينضج ولم يكن على استعداد أن يذيعه ، وأنه حمله معه إلى أثينا مما يدل على أن الكتاب لم يكن متداولاً أو معروفاً .

ويحدثنا ديوجين عن عدة كتب لزينون ، ويسجل سويدياس عناوين هذه الكتب ، ولكن أكبر الظن أنها من وضع الإسكندرانيين المتأخرين. وأتمهر كتبه هو ذلك الذي هاجم فيه الفلاسفة في أربعين حجة ، وكان يقرؤه في أثينا ، ويعرف باسم « المهاجمات » أو « تهافت الفلاسفة » Epicheirêmata ، ويقوم منهجه فيه على قياس الخلف ، وإيقاع الخصم في التناقض ، ومن أجل ذلك سماه أرسطو « مؤسس الجدل » .

وقيل إنه كتب بعض محاورات ، ويقول سمبليقيوس في شرحه لكتاب الطبيعة لأرسطو عندما تعرض لزينون ، إن أرسطو يشير إلى حجة وردت في محاورة بين زينون وبروتاجوراس . ويقول برنت إن لقاء الفيلسوفين ممكن ، ولكن اتخاذ زينون شخصيته طرفاً في الحوار أمرٌ لم يظهر في التأليف إلا في عصر متأخر .

منهجه : الجدل :

[٧٧] وقد تبين من كلام زينون أنه ألف كتابه للدفاع عن مذهب بارمنيدس ، واتباع لذلك منهجا خاصا ، هو الذي سماه أرسطو الجدل . والجدل قياس مؤلف من مقدمات يسلم بها الخصم ، والغرض منه إخماد الخصم المعاند ، وقد يكون الغرض الوصول إلى معرفة الحقيقة . ذلك أن المجادل حين يسلم بالطرف الآخر من النقيضين ، ثم يثبت استحالة قبوله لما يترتب عليه من خلف ، فإنه يثبت بذلك صحة النقيض الأول . وهذا ما كان يفعله زينون ، فقد رأينا أن قضية بارمنيدس هي « الكل واحد » ، وقد هاجمها معاصروه ، وسخروا منها ومن صاحبها ، فراح زينون يسلم لهم بأن « الأشياء كثيرة » وبين لهم ما يترتب على التسليم بهذه القضية من خلف

وتناقض ، وبذلك تصح القضية الأولى ، وهى أن الشكل واحد .

وقد قيل إن زينون بهذا النهج أو هذا الجدل كان سفسطائيا . وكان للسفسطائى معنيان ، أحدهما أنه معلم فلسفة وبيان ، يأخذ على ذلك الأجر ، ويهتم الاهتمام كله بتأييد قضيته حقا كانت أم باطلا . والمعنى الثانى هو الذى تطورت إليه السفسطة أو المغالطة ، نعى أنه قياس باطل ، ويعلم صاحبه بطلانه ، ولكنه يريد مغالطة الخصم والتمويه عليه . ولم يكن زينون سفسطائيا على كلا المعنيين ، ولو أنه كان معلما محترفا يتناول الأجر ، كما رأينا ، لأنه لم يهدف إلى نصرته مذهب بآى سبيل ولو بالمغالطة واتخاذ المقدمات الكاذبة الوهمية ؛ ولكنه فتح الباب أمام السفسطائيين فأخذوا بطريقته وانحرفوا بها ، فهو من هذه الناحية معلم السفسطائيين ، ولكنه ليس مسئولاً عن انحرافهم . أما جدل زينون فقام على المنطق ، وعلى المبادئ العقلية التى تيسر للمنطق وجوده وأهمها مبدأ عدم التناقض ، فهو من هذا الوجه مكمل للطريق المنطقي الذى سار فيه بارمنيدس ، ولا غرابة أن يسميه أرسطو مؤسس علم الجدل ، من حيث إنه كان يعلم بإحدى قضايا خصومه ويستنتج منها نتيجةتين متناقضتين ، ويثبت بذلك بطلانها .

وقد احتفظ سمبليقيوس بنص جدله عن إبطال الكثرة بعباراته نفسها . وساق أرسطو بعض حجج زينون فى إبطال الحركة ، وصاغها فى لغته الأرسطية .

إبطال الكثرة :

[٧٨] إذا سلمنا أن الأشياء كثيرة ، فيترتب على ذلك (أ) إما أنها نهائية فى العدد

(ب) وإما أنها لا نهائية فى العدد . والنتيجتان متناقضتان . وبيان هذه الحجة كما يلي :

(أ) إذا كانت الأشياء كثيرة فلا بد أن عددها هو هو ، لا أكثر ولا أقل ،
وإذا كان عددها هو هو ، فهي نهائية .

(ب) إذا كانت الأشياء كثيرة ، فهي لانهائية العدد ، إذ بين كل شيئين شىء آخر ،
وهكذا إلى ما لا نهاية . [وهذه الحجة يسميها أرسطو القسمة الثنائية dichotomy]

وحجة أخرى في إبطال الكثرة على أساس أن الأشياء إما أن تكون لامتناهية
الصغر أو لامتناهية الكبر . ذلك أن الأشياء إذا كانت كثيرة فهي عدد من
الوحدات ، وهذه الوحدات إما أن يكون لها عظم أو ليس لها عظم .

(أ) فإذا لم يكن لها عظم (أى بغير طول وعرض وعمق) فإنها إذ أضيفت إلى
غيرها لم تكن أكبر ، لأن ما لا عظم له لا ينتج عنه شىء أعظم منه .

(ب) وإذا كان للأشياء عظم ، فلكل شىء حجم محدود ، أى طول وعرض
وعمق ، وكان لكل جزء من الوحدة حجم ، وبين كل جزء وبين الآخر مسافة .
وكل شىء يمكن أن ينقسم إلى أجزاء لانهائية لكل منها حجم . ولما كانت
الأجزاء تنقسم إلى ما لا نهاية له ، فمجموعها عظيم إلى ما لا نهاية له .

وشبيه بذلك ما أورده أرسطو في كتاب مابعد الطبيعة ، قال : ^(١)

« وأيضاً إن كان هذا الواحد غير منقسم ؛ فهو على ما يرى زينون ليس بشىء ألبتة ؛
لأنه يزعم أن الشىء الذى لا يزداد عند الزيادة عليه ، ولا ينقص إذا نقص منه ، فليس ذلك
من الهويات . فمعلوم أن الهويات على زعمه عظم ؛ فإن كانت الهويات عظما فهو عظم
جرمى ، لأن العظم الجرمى هو الهوية بجميع الجهات . وأما سائر الأشياء ، فمنها ما إذا
ركبت كان منها عظم ، ومنها ما إذا ركبت لم يكن منها عظم على قوله ؛ فإنه يزعم أن
البسيط والخط إذا ركبا كان منهما عظم ، وأما النقطة فلا يكون منها عظم ألبتة .

(١) ما بعد الطبيعة ١٠٠١ ب ٧ ، والترجمة قديمة عن كتاب تفسير ما بعد الطبيعة لابن رشد طبعة
الأب بويج ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ الجزء الأول .

فلما كان زينون يعنت في قوله ، ويرى رأيا ملتبسا ، وغير ممكن أن يكون شيء لا ينقسم ، فيجب علينا أن نجيب على هذا القول ببعض الإجابة ، فنقول : إن الواحد إذا زيد عليه شيء لا يكون أكبر ولكنه يكون أكثر ، فذلك لا يجب أن يكون عظما .

ومن الواضح أن زينون يحاول أن يبطل بهذه الحجة الواحد الفيثاغورى، وكثرة الوحدات التى يتألف منها العالم فى مذهبهم ، لأن العالم عندهم أعداد. وقد بين أرسطو المغالطة فى حجته بأنه يخطئ فى فهم الواحد الحسابى أى العدد ، الذى يختلف عن الجسم الطبيعى ، فزيادة العدد كثرة وزيادة الجسم عظم ، لأنه يعظم أو يكبر .

إبطال الحركة :

[٧٩] وأورد أرسطو^(١) أربعة حجج عن زينون فى إبطال الحركة .

(١) الملعب - لا يمكنك اجتياز الملعب [حلبة السباق] ، إذ لا يمكن اجتياز عدد لامتناه من النقط فى زمان متناه ، فلا بد أن تحتاز نصف المسافة قبل اجتياز المسافة كلها ، وكذلك لابد من اجتياز نصف نصف المسافة أولا ، وهكذا إلى ما لانهاية له ، لأن المسافة تنقسم إلى ما لانهاية له .

(٢) أخيل والسلحفاة - لا يمكن أن يسبق أخيل السلحفاة ، إذ لابد أن يصل أولا إلى المكان الذى بدأت منه السلحفاة تسير، ولكن السلحفاة تكون قد تحركت عندئذ ، ويجب على أخيل أن يلحقها ، وهكذا كلما اقترب منها سبقته .

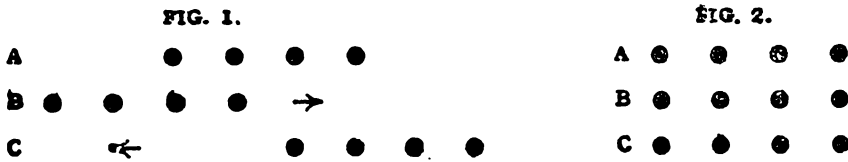
(٣) السهم - ولا يمكن أن يتحرك السهم ، إذ يجب أن يحتاز مسافة يمكن أن تنقسم إلى ما لانهاية له فى زمن نهائى .

(١) كتاب الطبيعة ٢٣٩ ١ - وانظر علم الطبيعة لأرسطوطاليس ترجمة أحمد لطفى السيد ،

(٤) **الاجسام الثلاثة** - إذا فرضنا ثلاثة أجسام a ، b ، c ، وكان a ساكناً ،

b ، c يتحركان في جهتين متضادتين بسرعة واحدة ، فإذا تقابل الجميع ، كان b قد قطع ما يساوى طول a ، c ، فالزمن الذى يحتاج إليه b ليجتاز c ضعف الزمن الذى يحتاج إليه في اجتياز a . ولما كان الزمن الذى يقطعه b ، c حتى يصل إلى مكان a واحداً ، فالنتيجة أن ضعف الزمن يساوى نصفه .

[انظر الشكل]



قيمة زينون :

[٨٠] ينفي زينون الكثرة والحركة تأييداً لمذهب أستاذه في الوجود الواحد

الثابت ، وقد خيل إلى بعض المفكرين أن حججه ضرب من العبث الفكرى ، أو الترف العقلى ، أو التلاعب بالألفاظ ، غير أننا إذا حملنا هذه الحجج على محمل الجد رأينا أنها كانت عميقة الأثر في تطور العلم والفلسفة ، لأنها تبحث في الصلة بين المقولات الثابتة الموجودة في عالم العقل ، وبين المحسوسات المتغيرة الظاهرة لنا في عالم الحس ، كما تتناول طبيعة المكان والزمان ، والنهاية واللانهاية ، وبعض المفهومات الرياضية مثل النقطة والخط والعدد والوحدة .

وترجع الحجج إلى مبدأ القسمة الثنائية ، سواء أكانت في دحض الكثرة أو الحركة . وهو حين ينكر الكثرة إنما يهاجم بوجه خاص الفيثاغوريين الذين كانوا يتصورون العالم مركباً من أعداد . وقد ألزمهم الحجة بأن افترض أن العدد إما

وحدة لا تنقسم ، فالأشياء تتكون من وحدات لانهاية ، إذ لانهاية للأشياء ، فضلا عن وجود مسافة بين كل وحدة وأخرى . وإما أنه ينقسم ، فيمكن بذلك أن ينقسم إلى ما لانهاية له ، أو إلى شيء لا طول له ولا عرض ولا عمق ، أى إلى صفر . وإذا جمعنا الأصفار كان الناتج منها أصفارا .

والخلاصة أن الموجود كما رأى بارمنيدس واحد ومتصل ومطلق ولا يقبل القسمة ، وهذا الواحد كل متجانس ، فهو ملاء ، لا يتحرك ، لأن كل حركة تفضى إلى انقسام وانفصال ، أى إلى انفصال الأجزاء بعضها بالنسبة إلى بعضها الآخر ، فالحركة دليل الكثرة ، والسكون آية الوحدة . ونحن ثبت استحالة الحركة ونبين تعارضها مع العقل ، إنما نبين في الوقت نفسه وحدة الموجود ونؤيد مذهب بارمنيدس . ولما كانت كل حركة مركبة من مواضع متتابعة كثيرة ، فهذه المواضع إما لا متناهية بسبب قسمتها إلى ما لانهاية له ، وإما أنها تقف عند مواضع نهائية لا تنقسم . وفي كلتا الحالتين يوجد تناقض .

فإذا كانت الحركة مستحيلة فذلك لأن المسافة ، وهى جزء من المكان ، يمكن أن تنقسم إلى ما لانهاية له . وقد رد أرسطو على هذه الحجة بأن المكان نهائى ، أما الزمان فقط فهو لانهاى . مهما يكن من شيء فإن طبيعة المكان والزمان منذ أن أثارهما زينون ، ووضع فيهما أرسطو كلمته ، لم تستقر الفكرة عنهما حتى اليوم ، فديكارت ، وليبنز ، ونيوتن ، وكانط ، وأينشتاين ، لكل منهم مذهب يخالف مذاهب الآخرين . وهذا كانط مثالا يزعم أن المكان والزمان فى أنفسنا نفرضهما فرضا على الأشياء الخارجية حين ندركها ، وليست لهما حقيقة وجودية خارجية .

وإذا كان القدماء قد رفضوا نظرية زينون في انقسام المسافة إلى ما لا نهاية وسخروا منه ، فإن الرياضيين المحدثين ، والفضل في ذلك يرجع إلى لينتز ، قد رأوا أن هذا الانقسام واقعي ، ولا بد من حسابه ، ومن هنا نشأ هذا الحساب اللانهائي ، أو ما يسمى بحساب التكامل والتفاضل *infinitesimal calculus*.

هذا وقد رد أنكساجوراس على زينون بحجتين ، الأولى أن المعاني تتحرك في العقل ، لأن التفكير حركة بين المعاني ، والثانية عدم وهمية الإحساس ، لأن الحواس حقيقية . وسوف نعرض لمذهب العقل ومذهب الحقيقة والظاهر فيما بعد .

مهما يكن من شيء فهذا الجدل العقلي يؤدي إلى لذة ، بل إلى نشوة ، حتى أصبحت السعادة الحقيقية في هذا الاستغراق العقلي . وترجع المشكلة الكبرى التي أوضحها زينون في التعارض بين أحكام العقل وشهادة الحس . فهل يتعارض العقل مع الحواس؟ وإذا أمكن التوفيق بينهما فكيف يكون ذلك؟ الواقع أن الفلسفة اليونانية آمنت بالعقل ، وحين اصطدمت بالظواهر المحسوسة المتناقضة استبقت حكم العقل ، وقضت على الحس بالوهم واستبعدته . وهذا هو السر في تماسك العلم اليوناني ، ووضوح الفلسفة عندهم واتصافها بالمنطق ، أي بانطباق الفكر مع نفسه وعدم تعارضه .

والفضل في ذلك كله يرجع إلى زينون .

حياته :

[٨١] أصله من ساموس في أيونية ، ولكنه ألحق بالمدرسة الإيلية ، ويعد المدافع الثاني عن مذهب بارمنيدس . ويروى فلوطرخس أن مليساوس بن إيثاجينس Ithagenes لعب دوراً سياسياً في مدينته ساموس ، إذ قاد الأسطول وهزم به الأثينيين عام ٤٤١ ق. م . ولنا نعرف عن حياته أكثر من هذه الحادثة ، والتي بسببها جعلوا سنة ازدهاره عام ٤٤١ ق. م . وأكبر الظن أنه كان من المدرسة الأيونية فتأثر بمذهبهم الطبيعي ، ثم أصبح تلميذاً لبارمنيدس ، فيما يقال ، وذلك بالنظر إلى النصوص الباقية من كتابه المسمى « الوجود » أو « في الطبيعة » . هذا وقد ألف أحد المتأخرين في القرن الأول كتاباً بعنوان « مليساوس وزينوفان وجورجياس » ونسب خطأ لأرسطو ، ولكنه احتفظ فيه بكثير من حجج مليساوس .

النصوص :

[٨٢] ^(١) (١ - ١) إذا كان اللاوجود موجوداً ، فماذا يمكن أن يعبر عنه كشيء حقيقى ؟ .

(١) ما كان موجوداً فهو موجود منذ الأبد ، وسيوجد إلى الأزل ، لأنه إذا ظهر إلى الوجود فيجب أن يكون لا شيء قبل وجوده . فإذا كان لا شيء ، فلن ينشأ شيء من لا شيء .

(١) مترجمة عن برنت ، وعن فريمان .

(٢) ولما كان الوجود لم يتكون ، بل هو موجود ، دائم ، أزلى ، فليس له بدء ولا نهاية ، فهو بغير نهاية [حد] . فلو أن الوجود لم يكن ثم كان ، لكان له بدء ونهاية . ولكنه إذا لم يكن له أول ولا آخر ، وكان منذ الأبد وإلى الأزل ، فليس له بدء ولا نهاية . إذ من المستحيل أن يكون شيء ماداماً بغير أن يكون موجوداً .

(٣) وأيضاً ، كما أن الوجود موجود على الدوام ، فلا بد أن يكون على الدوام لانهاية في العظم .

(٤) ولا شيء له بدء أو نهاية أبدى أو لانهاية .

(٥) لو لم يكن الوجود واحداً ، لكان محدوداً بشيء آخر .

(٦) لأنه إذا كان لانهاية ، فيجب أن يكون واحداً ، إذ لو كان الوجود اثنين ما كان لانهاية ، لأن أحدهما يحيط بالآخر [بحد الآخر] .

(٧) لذلك كان الوجود أبدياً ، لانهاية ، واحداً ، وكلا متجانسا . ولا يمكن أن يفسد ولا أن يعظم ، ولا يحس بالألم أو الحزن ، إذ لو أصيب بأى أمر من هذه الأمور ، فلن يكون واحداً ، لأنه يتغير فلا يصبح الحق كلا متجانسا ، بل ما كان من قبل يفسد [يختفى من الوجود] ، وما لم يكن يكون [يظهر إلى الوجود] . والآن إذا تغير الوجود بمقدار شعرة واحدة في عشرة آلاف سنة ، فسوف يهلك [يفسد] الوجود جميعه في مجموع الزمان .

وأيضاً فلا يمكن أن يتغير نظامه ، لأن النظام الذى كان منبثاً فيه من قبل لن يهلك ، ولن ينشأ نظام جديد . وحيث لن يضاف إلى الوجود شيء ، ولا يختفى منه شيء ، ولا يتغير ، فكيف يتغير نظام الشيء الحقيقى ؟ لأن أى شيء يتغير فهذا دليل على تغير النظام .

ولا يخضع الوجود كذلك للألم ، لأن الألم إذا أصاب شيئاً فلن يكون موجوداً . إذ الشيء الخاضع للألم لا يكون موجوداً دائماً ، ولا يكون فيه القوة كالشيء الموجود كلا . ولن يكون كذلك متجانسا مادام متألماً ، لأنه يحس بالألم من إضافة شيء إليه أو طرح شيء منه ، وعندئذ لن يكون متجانسا . وكذلك لن يشعر الموجود إذا كان كلا بالألم ، لأن ما وجد كلا حقيقياً يختفى ، وما لم يوجد يظهر إلى الوجود . وهذه الحجة نفسها تنطبق على الحزن كما تنطبق على الألم .

وليس شيء خلاء ، لأن الخلاء لا شيء ، واللاشيء لا يمكن أن يوجد . ولا يتحرك الوجود ، لأنه لا يتجه أي جهة ، بل الوجود ملاء . إذ لو كان خلاء ، لاتبه فهو الخلاء ، ولما كان الخلاء غير موجود ، فلن يتجه إلى أي مكان .

ولا يمكن أن يكون الوجود كشيء أو متخلخل ، إذ يستحيل أن يكون المتخلخل مملوءاً كما كان كشيء ، بل المتخلخل أقل ملاء من الكثيف .

فهذا هو الطريق الذي يجب أن نميز به بين ما هو ملاء وما ليس ملاء . ولو أن شيئاً من الأشياء كان يحتوي على مكان لشيء آخر محتويه فليس ذلك الشيء ملاء . أما إذا لم يكن به مكان لشيء آخر ولا يحتوي شيئاً آخر فهو ملاء .

يجب إذن أن يكون الوجود ملاء ما دام الخلاء غير موجود ، فإذا كان الوجود ملاء فلن يتحرك .

(٨) فهذه الحجة هي أعظم برهان على أن الوجود واحد لا غير . وهذه براهين أخرى كذلك . إذا كان العالم كثيراً ، فيجب أن تكون الكثرة من جنس الواحد . إذ لو كانت الأرض والماء والهواء والحديد والذهب والنار موجودة ، وكان بعض الأشياء حياً والبعض الآخر ميتاً ، وكانت الأشياء سوداء وبيضاء وضاراً ما تقول عنه الناس إنه حقيقي - لو كان الأمر كذلك ، وكنا نبصر ونسمع حقاً ، فيجب أن يكون كل شيء كما يظهر لنا أول الأمر ، ولا يتغير ولا يتبدل ، بل يجب أن يكون كل شيء كما كان . ولسكننا نقول الآن إننا نرى ونسمع ونفهم صواباً ، ومع ذلك فظن أن الحار يصبح بارداً ، والبارد يصبح حاراً ، وأن الصلب يتقلب لينا ، واللين صلباً ، وأن الحي يموت ، ويتولد الحي من الميت ، وأن هذه الأشياء جميعاً تتغير ، وأن ما كان ، وما هو كائن الآن مختلفان كل الاختلاف . ونحن نظن أن الحديد وهو صلب يبلى عند احتكاكه بالإصبع ، وكذلك الذهب والحجر وكل ما يظهر أنه صلب ، وأن الأرض والحجر مكونان من الماء . ويترب على ذلك أننا لانرى ولا نعرف الحقائق الوجودية . وليست هذه الحجج متمسكة ، فقد قلنا بوجود أشياء كثيرة أزلية ولها صور وقوى ، ومع ذلك يظهر لنا أنها جميعاً تخضع للتغير ، وأنها تتبدل عما نراه في كل وقت . فمن الواضح إذن أننا لم نبصر صواباً ، وأن هذه الأشياء التي تبدو لنا ليست كثيرة . لأنها لو كانت حقيقية ما تغيرت ، إذ يبقى كل شيء هو هو كما بدا لنا ، لأنه ليس أقوى مما هو

حقيقى . أما إذا تغير الوجود ، فإنَّ ما كان يخفى ، وما لم يكن يظهر إلى الوجود . وبناء على ذلك إذا كانت الأشياء كثيرة ، فلا بد أن تكون من نفس طبيعة الواحد .

(٩) فإذا كان الوجود موجوداً ، فلا بد أن يكون واحداً ؛ وإذا كان واحداً فلا يمكن أن يكون جسماً ، إذ لو كان له جسم فلا بد أن يكون ذا أجزاء ، ولن يكون واحداً .

(١٠) إذا انقسم الوجود فإنه يتحرك ، وإذا تحرك فليس موجوداً .

فلسفته :

[٨٣] يقدم « جومبرز » الكلام عن مليسوس قبل زينون ، مع أن زينون ألصق ببارمنيدس وأقرب منه ، وإنما فعل ذلك لأن مليسوس كان أشهر في الزمن القديم . وقد انبرى التلميذان لتأييد مذهب الأستاذ ، وسوق الأدلة على صحته ، كلٌّ على طريقته . أما زينون فقد تحدثنا عن منهجه الجدل . ولكن مليسوس يسير على طريقة أخرى ، فهو يبدأ بقضية بارمنيدس في شطرها الثانى أى أن اللاوجود غير موجود ، ويؤكددها ، وينفى اللاوجود على أساس أننا لا يمكننا التعبير عنه . ثم يستطرد إلى الوجود فيبين صفاته ويؤكد هذه الصفات ببراهين جديدة .

وأول صفة للوجود أنه أزلى ، ولو لم يكن كذلك لخرج الوجود من اللاوجود ، وهذا باطل .

والصفة الثانية أنه لانهائى . والأرجح أن مليسوس يرمى إلى مذهب الفئاضورين الذين كانوا يتصورون الأعداد أصل الأشياء ، والعدد محدود أو نهائى ، أى للشئ حدود تحده ، ونهايات ينتهى عندها . وقد هاجم بارمنيدس فكرة الواحد المحدود ، فذهب إلى أن الموجود لانهائى من جهة المكان فهو كلٌّ متصل لانهاية له ؛ أما

مليسيوس فإنه يضيف إلى هذه الصفة أنه لانهاى من جهة الزمان أيضا ، فهو أبدي أزلى ، أى لأول له منذ بدء الزمان ، ولا آخر له فى نهاية الزمان . وإذا كان مليسيوس قد رفض الشيء المحدود ، فذلك أن الموجود إذا كان محدوداً فلا بد أن يكون خارج حدوده اللاوجود ، وهذا هو الفرض الذى استبعده من قبل .

والصفة الثالثة أنه لاجسمانى ، وذلك فى قوله : « إذا كان الوجود موجوداً فلا بد أن يكون واحداً ، وإذا كان واحداً فلا يمكن أن يكون جسماً ، إذ لو كان له جسم فلا بد أن يكون ذا أجزاء . . . » . وقد قيل عن الوجود البارمنيدي إنه مادمى حتى لقد ذهب برنت إلى أنه « أب المادية » ؛ ولكن مليسيوس ينفى الجسمية عن الموجود ، ولو أنه يصفه بالامتداد اللانهاى . وقد فهم سملبقيوس ذلك عن مليسيوس فوصف موجوده بأنه لاجسمانى ، ولو أن أرسطو يذهب إلى عكس ذلك . والمسألة موضع خلاف بين المؤرخين المحدثين .

والصفة الرابعة استحالة التغير ، إذ لو تغير الوجود ما كان متجانساً ، ويختفى ما كان موجوداً ، ويظهر ما لم يكن موجوداً . ويضرب مثالا طريفاً على استحالة التغير فيقول : بأن الوجود إذا تغير بمقدار شعرة واحدة فى عشرة آلاف سنة هلك الوجود جميعه على مر الزمان .

والصفة الخامسة الحياة ، فالوجود عنده حى ولكن دون أن يحس بالألم والحزن ، وصفة الإحساس من الصفات التى يستعيرها مليسيوس من الكائنات الحية ، ولم يخلعها بارمنيديس أو زينون على الوجود . ولكنه يزعم أن هذا الإحساس ثابت . وهى من الصفات التى سوف تصادفنا فيما بعد عند إله أرسطو الحرك الذى يتحرك . والصفة الخامسة نفى الحركة عن الوجود ، لأن العالم ملاء ، والتكاثف والتخلخل مستحيلان ، وهذه غمزة موجهة إلى الفلاسفة الأيونية .

والصفة السادسة نفي الكثرة ، كما فعل زينون من قبل ؛ ولكنه ينظر إلى شهادة الحواس قائلاً إننا نعتمد على شهادتها وثق بها مع أنها تحدثنا أن الأشياء تتغير ، فالحديد يبلى عند احتكاكه بالإصبع ، وكذلك الذهب والحجر ، وهي تحدثنا أن الحار يصبح بارداً والبارد ينتقلب حاراً ، ومن أجل ذلك يجب أن نرفض شهادة الحواس لأنها لا تنبئنا عن « الحقيقة » ، إذ لو كانت تقدم لنا حقائق ما تغيرت . ولما كانت الحواس تخبرنا عن أشياء غير حقيقية ، وكانت هذه الأشياء كثيرة ، فينبغي أن نرفض الكثرة كما ندركها بالحواس . فما قيمة الحواس وإلى أي حد نعتمد عليها في المعرفة ؟ هذه أسئلة تضرب من الفلسفة إلى الصميم ، وقد أثار غبارها مليسوس ، وسوف تكون موضع بحث شديد وجدل طويل عند السفسطائيين فيما بعد .

حياته :

[٨٤] لسنا نعرف شيئاً موثقاً به عن حياة أنبادقليس ، فقد أكثر الرواة من ذكر الأساطير حول سيرته ، حتى لقد زعم بعضهم إنه ادعى الألوهية ، وحياته في الواقع مزيج من العالم والفيلسوف والشاعر والطبيب والسياسي . بل يصفه برتراند رسل وغيره بالشعوذة ، وأكبر الفن أنه برىء من هذه التهمة ، وإنما المسئول عنها المتأخرون الذين أحاطوا سيرته بالأساطير كأى شخص عظيم .

وأصله من مدينة أكراجاس Akragas من أعمال صقلية ، وأنه زها عام ٤٤٤ حسب رأى أبولودورس أو عام ٤٥٠ ق . م ، ويذهب أرسطو إلى أنه عاش حتى بلغ الستين ، وقيل إنه مات في السابعة والسبعين ، وزعم آخرون أنه عمر حتى التاسعة والتسعين . وهويتم إلى أسرة من النبلاء ، فأبوه يسمى ميتون Meton ، وجده يسمى أنبادقليس أيضاً وفاز في الألعاب الأولمبية عام ٤٩٦ .

ويقال إنه شارك في سياسة مدينته ، واتخذ جانب الحزب الديمقراطي ، وحارب حكم الطغيان ، وحث الشعب على انتخاب حاكم ديمقراطي ، وهاجم الحزب الأولجاركى المكون من ألف شخص . وذكر أرسطو أن الشعب رغب أن ينصبه ملكاً ، ولكنه رفض التاج . ومما يروى عن نزعتة الديمقراطية أنه كان يوزع بعض ثروته

(١) في الملل والنحل لشهرستانى « أنبادوقليس » ، وفي أخبار الحكماء للقفطى « أيذقليس » ، وفي عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة « بندقليس » والغالب أن الذين يسمونه بالذال يحرفون الاسم عن النسخ .

على الفتيات من الفقيرات ليقدمنها بائنة عند الزواج . وقد أدى هذا النشاط الشعبي إلى سحق حزب الأقلية فعمل على منع رجوعه من بعض رحلاته خارج أكراجاس ، فذهب إلى البلوبونيز .

ومن المعجزات التي أضيفت إليه أنه أعاد الحياة إلى امرأة انقطع تنفسها ووقف نبضها ثلاثين يوماً . ويقال إنه ابتدع طريقة تضعف أثر الرياح الشرقية بتعليق جلود الحيوانات على الشجر . والغالب أن مقدرته العلمية في الطب ومعارفه العلمية الطبيعية هي التي أشاعت عنه هذه الأساطير . ويرى ساتيروس أن جورجياس حضر بعض الأعياء السحرية ، وكان جورجياس السفسطائي تلميذا لأنبادقليس . ويعمل برنت هذه الشهرة بما اصطنعه أنبادقليس من ضروب التطهير مبشراً بالدين الأورفي الجديد ، الذي كان منتشرأ انتشارأ كبيرأ في أكراجاس .

وهذه الصلة بين جورجياس ، وهو من أعظم خطباء السفسطائيين ، وبين أنبادقليس ، هي التي جعلت أرسطو يصفه بأنه مؤسس علم الخطابة ، كما وصف زينون بأنه مؤسس علم الجدل . ويزعم جالينوس أن أنبادقليس مؤسس المدرسة الإيطالية في الطب ، وهي تلك المدرسة التي يرفعها إلى مصاف مدرسة قوس وقنيدس . وبقيت المدرسة الطبية موجودة أيام أفلاطون وأرسطو ، وكانت توحد بين العناصر الأربعة وبين الحار والبارد والرطب واليابس ، كما ذهبت إلى أننا نتنفس من خلال مسام الجسم ، وأن حركة التنفس متصلة أوثق الاتصال بحركة الدم ، وأن القلب مركز الإحساس وليس المخ .

ومن الواضح بعد النظر في قصيدته أنه أخذ بعض آرائه عن المدرسة الإيلية ، ولذلك يقال إنه كان تلميذ بارمنيديس أو زينوفان ، وبخاصة لأنه نظم فلسفته شعراً على نسقهما ، وقد أخذ كذلك عن الفيثاغوريين .

وتروى في وفاته قصص كثيرة ، منها أنه شق نفسه ، ومنها أنه غرق في البحر ، ومنها أنه قفز إلى فوهة بركان إتنا واختفى ، فأثبت بذلك ألوهيته .

وقد نظم فلسفته شعراً في قصيدة من كتابين ، أحدهما « في الطبيعة » ، والآخر « في التطهير » . وقيل إن أبياتهما بلغت خمسة آلاف . وانتقد أرسطو شعره وضرب به المثل في الرداءة قائلاً أن ليس بينه وبين شعر هوميروس من شبه إلا الوزن ، وأنه لم يكن شاعراً بل عالماً ، وأن شعره لا يصلح أداة للتعبير عن أفكاره العلمية بسبب غموضه . وكانت شخصية أنبادقليس مثار اختلافات في النظر والتقدير منذ قديم الزمان حتى اليوم ، ولكنه كان معروفاً ومقدراً في الزمن القديم في جلته عنه الآن . وقد رأينا كيف حط أرسطو من منزلته الشعرية وتحامل عليه . أما لو كريتوس Lucretius ، وهو شاعر روماني عاش في القرن الأول قبل الميلاد ، وله قصيدة طويلة تسمى « في الأمور الطبيعية » اصطنع فيها آراء أبيقور والمدرسة الذرية ، فكان من أعظم المعجبين بأنبادقليس وعده الناطق بلسان الطبيعيين كما أعجب بشعره كذلك . وليس من سبيل إلى إنكار أثر فليسوف العناصر الأربعة في تاريخ الفلسفة ، فقد ظل العلماء والفلاسفة يأخذون بهذه النظرية إلى أن بينَ لافوازييه في القرن الثامن عشر فسادها .

ودرسه المحدثون من جانب آخر ، هو التناقض في شخصيته الدينية كما يصورها في قصيدة التطهير Katharmoi وهي التي يخاطب فيها أهل أكراجاس ، وشخصيته العلمية التي تتضح في قصيدة « الطبيعة » التي يوجهها إلى تلميذه بوزانياس . ويذهب زلر إلى أنه لا رابطة بينهما . ويقول ديلز وكذلك بيدرز^(١) إنه ألف القصيدتين في زمانين مختلفين يمثلان طورين مختلفين من حياته ، ويعبران عن حالته النفسانية ،

(١) Bidez عالم بلجيكي اختص بالدراسات الفلسفية القديمة ، وله كتاب عن أنبادقليس ألفه عام ١٨٩٤ وله كتاب عن سيرة فريريوس تلميذ أفلوطين ، وقد اعتمدنا على ذلك الكتاب عندما كتبنا مقدمة لإيساغوجي وتحدثنا عن حياة فريريوس .

فهو إما قد ابتدأ حياته متدينًا ثم انقلب مفكرًا متحرر العقل ، وإما أنه على العكس سُمّ التفسير المادى للطبيعة فألقى نفسه فى أحضان النحلة الأورفية التى بصورها فى قصيدة « التطهير » . غير أن هذا الضرب من التفكير أخذ يخضع لبعض الدراسات النفسانية الحديثة التى تصور المزاج الدينى متقلبًا مفاجئًا لا يعتمد على حساب دقيق وأسباب يمكن ضبطها . وأفضل دراسة له هى تلك التى قام بها العالم الإيطالى ايتورى بنيونى Ettore Bignone فى كتابه عن أنبادقليس الذى نشره عام ١٩١٦ ، وحاول أن ينفذ إلى الوحدة النفسية الموجودة وراء هذا التناقض الظاهرى .

مهما يكن من شىء فإن أنبادقليس يمثل التعارض الذى كان موجوداً بين الثقافات المختلفة فى صقلية وجنوب إيطاليا فى منتصف القرن الخامس ، ويعكس فى نفسه صورة الفلسفات المتباينة التى وفد بعضها من الشرق ، ونشأ بعضها الآخر فى الغرب ، وحاول أن يوفق بين العلم الطبيعى الذى ازدهر فى أيونية ، وبين الميثافيزيقا التى أعلنها بارمنيدس ، وبين التقوى التى تنقسم بها النحلة الأورفية . ولم يكن يستطيع أن يحقق هذا التوفيق العجيب إلا خيال الشاعر وسعة أفقه ، فلا غرابة أن يتخذ أنبادقليس الشعر أداة للتعبير عن هذه الفلسفة الشاملة للمتناقضات . ولم تكن الهوة بين الشعر والفلسفة سحيقة كما هى اليوم ، فقد كان هوميروس وهزiod فيلسوفين إلى حد ما كما كانا شاعرين . وإذا كان بارمنيدس فى استهلال قصيدته قد ذهب بطرق باب ربة الشعر وإلهة الحكمة بطلب منها أن تفيض عليه بالعلم لأنه عاجز عن الاهتداء بعقله إلى المعرفة ، فإن أنبادقليس على العكس من ذلك يلتمس منها أن تُقبل عليه وتهبه شيئاً من حكمتها . فالمعرفة عند أنبادقليس لا تتوقف على الإلهة ، بل على تحصيل المرء بطريق الحواس والنظر العقلى ، مما نجده فى ابتداء قصيدة الطبيعة ، التى نقلناها بتمامها . أما قصيدة التطهير فسوف نشير إلى محتوياتها فقط .

[٨٥] قصيدة « في الطبيعة » :

(١) أرغنى سمعك ، أى بوزانياس^(١) Pausanias ، يا ابن أنخيظس Anchites الحكيم .

(٢) فالتقى^(٢) المنتشرة على أطراف الجسم محدودة ، والأعباء التى تحملها كثيرة ، وتنوء بها أفكار العقل . وهى (أى الحواس) لا تدرك إلا قدراً محدوداً من الوجود فى أثناء حياتها ، إذ يقضى عليها سريعاً بالفناء ، كما يتبدد الدخان عالياً فى أجواز الفضاء . ولا يعتد كل امرئ إلا فيما أدركه صدفة متوجهاً كل وجهة فى عجلة ، ثم يفخر بأنه اهتدى إلى معرفة الكل : وهذه الأمور قل أن تبصر بالعين ، أو تسمع بالأذن ، أو تدرك بالعقل . أما أنت ، وقد طرقت هذه السبيل ، فلن تتعلم أكثر مما يستطيع العقل البشرى أن يعلمه .

(٣) (٣) أن تحتفظ [بها] داخل قلبك الأبكم^(٤) .

(٤) أيتها الآلهة ، أبعدى عن لسانى حماقة هؤلاء الناس ، وألهمى شفقى القديستين أن تنطقا فى صفاء وتدقق . وأنت ياربى الشعر المعشوقة يابيضاء الذراعين ، أتوسل إليك أن تلهمينى سماع ما يأذن به القدر^(٥) بسامعه لأبناء النهار ، مبعدة عربقى المطهمة عن العالم المقدس .

ولا تدعى باقات المجد والإجلال التى يقدمها البشر تحملك على الأخذ بأيديهم ورفعهم من الأرض ، فتنطقين بما لا يسمح به القانون الإلهى ، ويتربعون بذلك على عرش الحكمة .

أقبل الآن ، وانظر بجميع ما عندك من قوى ، لترى السبيل الذى يبدو فيه كل شئ واضحاً . ولا ترفع من شأن البصر على السمع ، أو تعلو من أمر السمع على شهادة اللسان (أى الذوق) ، ولا ترفض التصديق كذلك بأى طرف من أطراف جسمك فيه طريق للإدراك ؟ وعليك أن تستفيد من كل ما يجعل الأشياء واضحة .

(١) بوزانياس هو تلميذ أنبادقليس الذى يوجه إليه الخطاب ويعلمه . (٢) أى أعضاء الحس ، وفى ترجمة فريمان : وسائل الإدراك . (٣) هذا الترقيم عن برنت ، وهناك خلاف يسير عند فريمان . (٤) فريمان : الصامت . (٥) فريمان : القانون الإلهى .

(٥) ولقد جرت عادة الأضعف [عقلا] ألا يثق في الأقوى . ومع ذلك عليك أن تتعلم ، كما أمرتني ربة الشعر الصادقة ، هذه الأمور ، حين تنفذ كلماتي إلى صميم قلبك .
(٦) ولتسمع أولا الأصول الأربعة للأشياء : زيوس Zeus الساطع ، وهيرا Hera حاملة الحياة ، وإيدونيوس Aidoneus ، ونستيس Nestis التي فاضت دموعها فتكونت ينابيع الرطوبة للمخلوقات .

(٧) [العناصر] غير مخلوقة .

(٨) وإنى مخبرك عن شيء آخر أيضا : لا تخلق طبيعة ^(١) Physis أى موجود من الكائنات الفاسدة ، ولا نهاية له بالموت ، بل امتزاج وتبادل لما مزج من قبل . وليست « الطبيعة » إلا اسما أطلقه الناس عليها .

(٩) ولكن الناس يقولون عن هذه [العناصر] عندما اختلطت في هيئة إنسان وظهرت إلى النور ، أو في هيئة نوع من الحيوان التوحش ، أو النبات ، أو الطير ، إنها خرجت إلى الوجود ، وعندما تنفصل يقول الناس عنها الموت الحزين . وإنهم ليخطئون في استعمال الألفاظ التي يستوجبها الحق Themis . واسكني سأتابع العرف ^(٢) Nomos وأستعمل هذه الألفاظ .

(١٠) الموت المنتقم .

(١١) ما أحققهم ! . . . وما أقصر بصرهم ، إذ يظنون أن ما لم يوجد من قبل يظهر إلى الوجود ، وأن الموجود يفنى تماما .

(١٢) ولا يمكن بأى حال أن يظهر شيء إلى الوجود مما ليس بموجود ، ولا أن يفسد ما هو موجود ، فهذا أمر مستحيل ، ولا يمكن سماعه ، لأنه موجود دائما على أى وجه تتصوره .

(١٣) لا جزء من الكل خلاء ، أو مملوء أكثر مما يجب .

(١٤) فلا خلاء في الكل ، إذ أين ذلك الشيء الذى يمكن أن يضاف إليه ؟ .

(١٥) لا يجب على الحكيم أن يعتقد في قلبه هذه الأمور ، وهى أن الناس ماداموا

(١) الطبيعة هنا بمعنى الجوهر Substance ، وفي تفسير سمبليوس بمعنى النمو (٢) العرف هنا بمعنى القانون البشرى ، أو الناموس Nomos ، في مقابل الحق ، أى القانون الإلهي Themis .

على قيد الحياة فهم أحياء ويخضعون للحظ الحسن والحظ السيئ . أما قبل أن يتكون البشر [من العناصر] وبعد انحلالهم ، فهم لا شيء على الإطلاق .

(١٦) [المحبة والغلبة ^(١) Philia, Neikos] كما كان موجودين من قبل ، فإنهما سوف يوجدان ، ولن يخلو - فيما أعتقد - منهما الزمان الأزلى .

(١٧) سأحكى لك طريقين ^(٢) : لقد نما في وقت فأصبح واحداً بعد أن كان كثيراً ، وفي وقت آخر انقسم وأصبح كثيراً بعد أن كان واحداً ؛ فهناك خلق مزدوج للأشياء الكائنة الفاسدة ، وفناء مزدوج كذلك . فاتحاد جميع الأشياء يؤدي إلى ظهور جنس الأشياء الفانية وفساده ، وإلى اختفاء جنس آخر ، كلما انفصلت العناصر وانقسمت الأشياء . وهذه العناصر لا تتوقف أبداً عن التبادل المستمر ، فتتحد في بعض الأحيان تحت تأثير المحبة حتى يصبح كل شيء واحداً ، وفي بعض الأحيان الأخرى تتحرك الأشياء كل وجهة بسبب قوة الغلبة المنفرة . وهكذا تظهر الأشياء إلى الوجود ، ولا تطول حياتها ، طالما كانت طبيعتها أن تنمو واحدة بعد الكثرة ، ثم ينفصل الواحد ويتكون منه الكثير . ولكن مادام تبادلها المستمر لا ينقطع على الدوام ، فإنها تظل دائماً لا تتحرك (لا تتغير) دائرة مع دوران الوجود .

أقبل واضح إلى قولى ، واعلم أن التعلم يزيد في حكمتك . وكما أخبرتك من قبل كاشفاً عن مقالى سأحكى لك طريقين . لقد نما في وقت فأصبح واحداً بعد أن كان كثيراً ، وانقسم في وقت آخر وأصبح كثيراً بعد أن كان واحداً - النار ، والماء ، والأرض ، والهواء العالى غير المحدود ، وأيضا الغلبة البغيضة البعيدة عنها المساوية لوزن كل منها ، والمحبة للوجود في وسطها المساوية لها في الطول والعرض . تأملها الآن بعقلك ، ولا تدع عينك البصرة تبتعد عنها . إنها المحبة التى يظن الناس أنها منبثة في أطراف الأشياء الكائنة ، وهى السر في ظهور أفكار الحب عند الناس وأعمالهم اللاتقة ، فيسمونها الفرحة وأفروديت Aphrodite . هذه المحبة لم يرها أحد من البشر ، وهى تتحرك داخل [العناصر ؟] وخارجها . أما أنت فعليك أن تنصت لأقوالى الصادقة المتسلسلة . فهذه [العناصر] جميعا متساوية ، وذات أعمار واحدة ، ومع ذلك فلكل واحد

(١) الغلبة ترجمة العرب القدماء ، وقد تفيد التنازع أو الكراهية ، وكلا اللفظتين أضعف من المعنى الأصلى وفي الإنجليزية Strife وفى بعض الأحيان Hate . (٢) برنت : قصتين

منها ميزة وطبيعة خاصة ، ثم تسود على مر الزمن . ولا يظهر إلى الوجود أو يختفي من الوجود شيء خلاف هذه العناصر ، لأنها لو كانت فاسدة على الدوام ما كانت موجودة الآن . وماذا يمكن أن يزيد في الكل ، ومن أين تنشأ الزيادة ؟ وكيف يمكن أن تفسد ما دام لا شيء من هذه الأشياء خلاء ؟ فلا يوجد إلا هذه [العناصر] فقط ، ولكنها تتداخل فتصبح الأشياء المختلفة في الأوقات المختلفة ، وتتشابه على الدوام .

(١٨) المحبة Philia .

(١٩) العشق [المحبة القوية] Philotês .

(٢٠) هذا الصراع بين المحبة والغبة واضح في جرم الأطراف الكائنة الفاسدة . ففي بعض الأحيان تتجمع جميع الأطراف وهي أجزاء الجسم بطريق المحبة عند ازدهار الحياة . ومرة أخرى تقطع بالغلبة الشريرة ، ويهم كل جزء منها وحده على شاطئ الحياة . وهذه هي الحال في النباتات والأسماك التي تعيش في الماء ، وفي الحيوانات التي تسكن الجبال ، وطيور البحر التي تطير بأجنحتها .

(٢١) أقبل الآن وانظر إلى الأشياء التي تشهد على ما قلت سابقا ، لئلا أكون قد قصرت في بيانها الأول . انظر إلى الشمس الساطعة والشمعة بحرارتهما في كل مكان ، وإلى الخالدات ^(١) [الأجرام السماوية] للغمورة في أشعتها وضوئها البراق . انظر إلى المطر الداكن البارد الفامر كل شيء . وتنبت من الأرض الأشياء التي ترتكز على ظهرها صلبة . فإذا سادت الغلبة تغيرت هيئة هذه الأمور جميعا وانفصلت ؛ وإذا سادت المحبة اتصلت واشتاق بعضها إلى بعض .

ذلك أن جميع الأشياء التي تتكون من هذه العناصر ، الأشياء التي كانت ، وتكون ، وسوف تكون الأشجار النابتة ، والرجال ، والنساء ، والدواب ، والطيور ، والأسماك التي تعيش في الماء ، بل الآلهة المخلدون ذوو الفضل العظيم .

فهذه العناصر هي وحدها التي توجد ، ولكنها حين تتداخل تتخذ أشكالا مختلفة . فكم يغيرها الامتزاج ؟ .

(١) يشير إلى القمر وغيره من الأجرام المركبة من عنصر الأثير والتي تتلقى الضوء من الشمس اللتهبة (برنت)

(٢٢) وهذه الأشياء كلها - الشمس والأرض والسماء والبحر - تتصل في ائتلاف بأجزائها التي انفصلت عنها وتوجد في أطراف الكائنات . وبالمثل كذلك جميع الأشياء الأكثر ملاءمة للامتزاج فإنها تتشابه ، وتوحد أفروديت فيما بينها بالحب . أما تلك الأشياء التي يعظم اختلافها في الأصل والامتزاج ، والهيئة التي تنطبع فيها ، فهي شديدة التنافر ، ولا تميل أبداً إلى الامتزاج ، وفي غاية الحزن لخضوعها لحكم الكراهية ، لأن الكراهية أصل وجودها .

(٢٣) وكما أن المصورين ينقشون قرايين المعبد بالألوان - أولئك الذين اتبعوا طريق الحكمة فبرعوا في صنعهم - حين يأخذون قطعة من كل لون في أيديهم، ويمزجونها لونا واحداً متناسبا ، فيزيدون من لون وينقصون من لون آخر ، ويبدعون منها أشكالا تشبه جميع الأشياء ، مصورين الشجر والرجال والنساء والحيوانات والطيور والأسماء التي تعيش في الماء ، بل الآلهة المخلدين ذوى الفضل العظيم ... كذلك لا تسمح للخداع^(١) أن يستولى على عقلك فتعتقد بوجود أصل آخر للكائنات الفاسدة التي تظهر موجودة لا يحصها العد . ولكن اعلم هذا عن يقين ، لأنك سمعت القول عن الإلهة [ربة الشعر]^(٢)

(٢٤) أن تنتقل من قمة إلى أخرى ، ولا تتبع إلى النهاية طريقا واحداً من التفكير .

(٢٥) الحق يمكن أن يُنطق به مرتين .

(٢٦) إنها تسود مع دورة الزمن ، ثم يفنى بعضها في بعض ، وتزيد عندما يحين القضاء . ذلك أنها وحدها هي التي توجد ، ولكنها حين تتداخل تصبح الناس والأنواع الأخرى من الحيوان . وهي تتحد حيناً بتأثير المحبة في كل منظم ، وتتفرق في كل جهة حيناً آخر بقوة الغلبة للنفرة ، وتظل كذلك حتى تهدأ حين تنمو مرة أخرى في كل واحد . وهكذا فمن حيث إنها تقوى على بلوغ الواحد من الكثرة ، ثم يتفرق الواحد ويصبح كثيراً ، فمن هذا الوجه تظهر إلى الوجود ولا تستقر حياتها . أما من حيث لا يبطل تبادلها^(٣) الدائم ، فإنها تظل على الدوام لا متحولة [لامتغيرة] في الدورة^(٤) .

(١) في ترجمة فريمان الخداع deception ، وفي ترجمة برنت الخطأ error (٢) كذا في

تفسير برنت . (٣) برنت : تغيرها (٤) برنت : الدائرة .

(٢٧) [الكرة Sphairos الخاضعة للمحبة] وهناك [في الكرة] لا تتميز أطراف الشمس ، ولا بأس الأرض الشديد ، ولا البحر ، بل تناسك الكرة داخل ثوب الائتلاف ^(١) Harmonia ، كروية ، ومستديرة ، مبتهجة بوحدها ^(٢) moniê الدائرية .

(٢٧) ليس فيها غلبة ولا تنازع غير منظور في أطرافها .
(٢٨) ولكنها [أى الإلهة] متساوية الأبعاد في جميع الجهات ، وبغير نهاية ، كروية ، ومستديرة ، مبتهجة بعزلتها الدائرية .

(٢٩) ولا يخرج من ظهرها فرعان ، إذ ليس لها قدمان ، ولا ركبتيان سريعتان ، ولا أعضاء للتناسل ، ولكنها كانت كرة متساوية الأبعاد من كل جهة .

(٣٠ - ٣٩) ولكن عندما ترعرعت الغلبة في أطرافها (أى في أطراف الإلهة) وهبت تطلب حقوقها في تمام الزمن الموقوت لها (أى المحبة والغلبة) بالقسم العظيم ... إذ تزلزلت أطراف الإلهة واحداً بعد الآخر .

(٣٢) الاتصال يربط بين شيتين .

(٣٣) كما يشد عصير التين اللبن الأبيض .

(٣٤) مازجا دقيق الشعير بالماء .

(٣٥ - ٣٦) والآن سأعود إلى الأغنية التى أنشدتها من قبل ، مستمدا الحجة من الحجة . لما بلغت الغلبة أقصى أعماق الدوامه ، وتوسطتها المحبة ، انضمت جميع الأشياء فيها فأصبحت واحداً فقط . ولم تفعل ذلك كلها دفعة واحدة ، بل انضمت بمحض إرادتها من جهات مختلفة ، حتى إذا أخذت فى الامتزاج ، ابتعدت الغلبة إلى الأطراف البعيدة . ومع ذلك لا تزال كثير من الأشياء غير ممتزجة إلى جانب الأشياء الممتزجة ، وهى تلك التى لم تزل الغلبة العالية تستبقيها ، ما دامت الغلبة لم تنزل تماماً خارج حدود الدائرة ، بل كان بعضها موجودا فى الداخل ، وخرج بعضها من أطراف الكل (الكرة) . وبمقدار ما كانت تندفق إلى الخارج ، ظل مجرى خاله رقراق من تيار المحبة الصادقة ينساب إلى الداخل . وسرعان ما انقلبت تلك الأشياء التى كانت خالدة من قبل

(١) فريمان : غلاف الأسرار (٢) يفسرها برنت بالوحدة أو العزلة solitude لا السكون rest ، وفى تفسير فريمان أى الراضية بحالتها المكففة بذاتها .

فأصبحت فانية ، وتلك التى كانت غير متمزجة أصبحت متمزجة ، كل منها يتبادل طريق الآخر . حتى إذا امتزجت تناثرت أنواع من الكائنات لا يحصىها العد . مصوغة في صور من كل شكل تعجب الناظرين .

(٣٧) [النار تزيد النار] ^(١) والأرض تزيد في جرمها ، والهواء [Aether] ^(٢) يزيد جرم الهواء .

(٣٨) أقبل الآن أخبرك أولاً عن مبدأ الشمس Helion archên والعناصر التى نشأت عنها جميع الأشياء التى تراها الآن : الأرض ، والبحر الصاخب بالموج ، والبخار الرطب ، والأثير التيتانى Titan Aether الذى يمسك بدائرتة حول جميع الأشياء .

(٣٩) لو كانت أعماق الأرض غير محدودة ، وكذلك الأثير (الهواء) الشاسع الذى لانهاية له ، وهو قول أحقق تلفظت به شفاه كثير من الناس ، مع أنهم لم يروا إلا جزءاً قليلاً من الكل

(٤٠) الشمس للتوهجة ، والقمر الوديع .

(٤١) ولكن ضوء الشمس يتجمع ويستدير حول السماء العظيمة .

(٤٢) والقمر يحجب أشعة الشمس كلما مر من تحتها ، ويلقى على الأرض ظلايساوى فى العرض وجه القمر الشاحب ^(٣) .

(٤٣) حتى إذا ضربت أشعة الشمس وجه القمر العريض ، عادت فى الحال مسرعة لتبلغ السماء .

(٤٤) [الشمس بعد دورتها حول الأرض تعكس الضوء السماوى] ^(٤) وترسله إلى أولمب هادئة الحيا .

(٤٥ - ٤٦) يدور حول الأرض ضوء مستدير من الخارج . وكما أن سرية العجلة

[العربة] ^(٥) تدور حول هدفها البعيد [كذلك القمر يدور حول الأرض] ^(٦)

(٤٧) لأنه (أى القمر) يحدق فى الدائرة المقدسة للشمس المقابلة له .

(٤٨) الأرض هى التى تجلب الليل عندما تتوسط أشعة [الشمس] ^(٧) .

(١) زيادة عند فريمان (٢) الأثير عند فريمان ، والقصود عنصر الهواء (٣) فريمان : عين القمر اللامعة (٤) إضافة عند فريمان (٥) كذا عند فريمان Chariot (٦) إضافة عند فريمان (٧) إضافة عند فريمان .

- (٤٩) الليل الذى يعيش وحيدا أعمى العين .
- (٥٠) وتجلب إيريس ^(١) Iris من البحر رياحا أو زوبعة مطيرة .
- (٥١) وتتصاعد [النار] سريعا إلى فوق .
- (٥٢) وتشتعل نيران كثيرة تحت سطح الأرض .
- (٥٣) إذ يتفق أن يهب الهواء Aether فى ذلك الوقت، وكثيرا ما يكون مخالفا .
- (٥٤) [وصعدت النار بالطبع إلى فوق] ^(٢) ولكن الهواء هبط على الأرض
بجذوره الطويلة .
- (٥٥) البحر رشح [عَرَق sweat] ^(٣) الأرض .
- (٥٦) وتجمد الملح تحت ضغط أشعة الشمس .
- (٥٧) وبرزت عليها (أى على الأرض) رؤوس كثيرة لارقاب لها ، وهامت أذرع
منفصلة لا أكتاف لها ، وزاغت عيون وحيدة تشتاق إلى رؤوس .
- (٥٨) وهامت أطراف بغير أنيس :
- (٥٩) وكلما امتزج الخالد بالخالد [أى المحبة والغلبة] ^(٤) اجتمعت هذه الأشياء
كيفما اتفق ، ونشأت أشياء أخرى كثيرة .
- (٦٠) كائنات تدب وتزحف كثيرة الأيدي .
- (٦١) وتولدت مخلوقات كثيرة لها وجوه وصدور تنظر إلى جميع الجهات ، ثيران
[ماشية] ^(٥) لها وجه البشر ، وبشر لهم رؤوس الثيران ، ومخلوقات امتزجت فيها
طبيعة الأنثى بالذكورة يغطى الشعر ^(٦) أطرافها .
- (٦٢) أقبل الآن واسمع كيف أن النار عندما انفصلت تولدت فى الليل جماعات
الرجال والنساء الباكيات ، لأن قصتي لا تتعد عن الموضوع ولا تغفل البحث . لقد نشأت
عن الأرض أولا صور غير متميزة فيها جزء من الماء والنار ، ودفعت النار فى شوقها أن

(١) إيريس رسول الآلهة من السماء وتمثلها الأساطير فى هيئة قوس قزح . (٢) زيادة
عن فريمان (٣) كذا فى التراجم الإنجليزية . (٤) فى تفسير فريمان . (٥) كذا عند فريمان
(٦) كذا عند فريمان skierois ، أما برنت فيقرأ اللفظة steirois أى عقيم .

تبلغ ما يشبهها هذه الصور ، ولكنها لم تظهر في هيئة بدن جميل له أطراف أو صوت أو أعضاء كالتى تخص الإنسان .

(٦٣) ولكن مادة الأطراف [أطراف الطفل] تنقسم فيما بينهما ، جزء في بدن الرجل [وجزء في بدن المرأة]

(٦٤) ثم جاءت إليه الشهوة تذكره عن طريق البصر .

(٦٥) ثم تدققت [بذور الذكر والأنثى] ^(١) في الأجزاء النقية ، وكون بعضها النساء ، وهى تلك التى اتصلت بالبارد [أما التى اتصلت بالحر فأنشأت الرجال] ^(٢) .

(٦٦) المروج التى قسمتها أفروديت .

(٦٧) لأن أشد أجزاء البطن حرارة هى التى تنتج الذكور ، ولذلك كان الرجال سمر البشرة ، أقوىاء البنية ، وأشعث شعرا .

(٦٨) وفى اليوم العاشر من الشهر الثامن يصبح [الدم] أبيض متغفنا [أى لبنا] .

(٦٩) الولادة المزدوجة (أى النساء اللاتى يلدن في الشهر السابع والتاسع) .

(٧٠) الشيمة (الغشاء حول الجنين) .

(٧١) فإذا كان يقينك عن هذه الأمور ناقصا فكيف نشأت من امتزاج الماء والأرض والهواء والنار صور وألوان جميع هذه الكائنات التى ألفت أفروديت بينها .

(٧٢) وكذلك كيف نشأت الأشجار الباسقة وأسمالك البحار

(٧٣) بل فى ذلك الوقت الذى أغرقت فيه قفريس ^(٣) kypriis الأرض بماء المطر ، وعينت بإعداد الصور idea ، ثم أعطتها للنار السريعة لتجعلها صلبة .

(٧٤) [أفروديت] تهدى أفواج الأسماك الصامتة .

(٧٥) هذه [الحيوانات] التى تألفت كثيفة من الخارج متخلخلة من الداخل ، بعد أن تلقت هذا الضرب من الرخاوة على يد قفريس .

(١) إضافة عند فريمان (٢) إضافة عند فريمان .

(٣) أحد أسماء أفروديت عندما ذهبت إلى جزيرة قبرس .

- (٧٦) وأنت ترى ذلك في أصداف البحر الصلبة ، والقواقع ، والسلاحف ذات الذيل ^(١) . وإنك لترى فيها الأرض تستقر على سطح اللحم (الجلد) ^(٢) .
- (٧٧ - ٧٨) الرطوبة هي التي تجعل الشجر دائم الخضرة مثمراً طول العام .
- (٧٩) وأول كل شيء تحمل أشجار الزيتون النامية البيض ^(٣) .
- (٨٠) وهذا هو السر في أن الرمان يغيب في نضجه ، والتفاح يكثر عصيره .
- (٨١) الحمر ماء لحاء الشجر بعد أن يتخمر في الخشب .
- (٨٢) وكذلك الحال في الشعر ، والأوراق ، وريش الطير ، والأظافر التي تنمو على الأطراف القوية .
- (٨٣) ولكن شعر القناذل مدبب كالشوك وينتفش على ظهرها .
- (٨٤) وكما أن الإنسان إذا أراد اجتياز الطريق في ليل عاصف جهز مصباحاً ، وأشعل فيه نارا ، ووضعه في زجاج يحميه من الريح ويفرق هبات الرياح ، ولكن النور يشع من خلاله كلما كان نافذاً ، ويضيء أطراف الطريق بأشعة لا تنقطع . كذلك النار الأولى [العنصرية] ^(٤) للنبتة في الأغشية والأنسجة الدقيقة تخفى نفسها في حدقة العين المستديرة ، وينفذ من هذه الأنسجة منافذ عجبية . وإنها لتحجز الماء العميق المحيط بالحدقة ، ولكنها تسمح للنار أن تمر من الداخل إلى الخارج لأنها أكثر لطافة .
- (٨٥) ولكن شعلة [العين] اللطيفة ممزوجة بجزء يسير من الأرض .
- (٨٦) صاغت أفروديت الإلهية منهما [أي هذين العنصرين النار والأرض] عيونا لا تسلك من النظر .

(٨٧) بعد أن ثبتت أفروديت هذه العيون بأربطة من الحب .

(٨٨) تحدث الرؤية الواحدة بكلا العينين .

(٨٩) اعلم أن تيارات تنبثق من جميع الأشياء التي ظهرت إلى الوجود .

(١) الذيل: عظم ظهر السحلفاء ، وفي حياة الحيوان للدبيري أن السحلفاء البحرية جلدها الذيل الذي

يصنع منه الأمشاط . (٢) في ترجمة برنت .

(٣) يريد الثمر . (٤) كذا في ترجمة برنت ،

(٩٠) كذلك يجتذب الحلو الحلو، ويتجه المر إلى المر ، ويُقبل الحامض على الحامض ، ويأثلف الحار بالحار .

(٩١) للماء أكثر ميلا إلى الائتلاف بالحجر ، ولكنه لا يمتزج بالزيت .

(٩٢) النحاس يختلط بالصفيح .

(٩٣) صبغة الزهرة القرمزية تمتزج بالنسيج الرمادي .

(٩٤) وينشأ اللون الأسود في أعماق النهر من الظل ، ويرى مثل ذلك في الكهوف العميقة الغور .

(٩٥) حين نشأت [العيون] أول نشأة بيد قفريس (١) .

(٩٦) وتلت الأرض الطيبة في فجواتها العريضة جزأين من ثمانية أجزاء عن نستيس Nestis الساطعة ، وأربعة عن هفايستوس Hephaistos ، فتولدت العظام البيضاء التي امتزجت برابطة الائتلاف Harmonia الإلهية (٢) .

(٩٧) [انكسر] (٣) العمود الفقري .

(٩٨) وبعد أن ألقت الأرض مرساها على شاطئ أفروديت [الحب] اتصلت بهذه الأشياء بنسب متساوية : بهفايستوس ، والماء ، والأثير اللامع ، وقد زيد نسبة الأرض فيها أو تنقص . ونشأ عن هذه الأشياء الدم وصور اللحم الأخرى .

(٩٩) [الأذن نوع من] الناقوس . إنها ميزاب اللحم .

(١٠٠) هذا هو طريق الشهيق والزفير لجميع الأشياء . جميع الكائنات لها أنابيب من اللحم لادم فيها وتنتشر على سطح البدن . وتوجد عند نهايات هذه الأنابيب مسام كثيرة تشق سطح الجلد كله حتى تحتجز الدم في الداخل وتسمح للهواء النقي أن يمر فيها . وهكذا عندما يتراجع الدم الرقيق ، يندفع الهواء في موجة دافقة ، حتى إذا عاد الدم زفر الهواء . وكما أنه حين تلعب فتاة بساعة مائية (٤) Klepsydra مصنوعة من البرونز البراق ، فتضع فم الأنبوبة على صفحة يدها الجليمة ، وتغمس الساعة في الماء الفضي الذي

(١) فريمان : تعليل يفسر به أنبادقليس سبب رؤية بعض الحيوانات بالنهار وأخرى بالليل .

(٢) روى أرسطو هذه الآيات في كتاب النفس ، وقد ترجمتها من قبل عند نقل ذلك الكتاب ص ٣٢

(٣) فريمان : اكتسب شكله الراهن عندما لوى الحيوان رقبته فانكسر . (٤) ليس المقصود الساعة المائية بل آلة كانوا يستعملونها لاجتذاب السوائل من الآنية .

لا يفيض إليها . ولكن جرم الهواء الموجود في الداخل والذي يضغط على الثقوب الكثيرة يحجز الماء إلى أن ينكشف تيار الهواء المضغوط . وعندئذ يندفع الهواء إلى الخارج ، ويتدفق مقدار متساو من الماء إلى الداخل . كذلك حين يشغل الماء قاع الإناء البرونزي ، وتقفل فتحته بيد الإنسان ، ويحاول الهواء في الخارج أن ينفذ إلى الداخل حاجزا الماء خلفه عند عنق الإناء عند السطح ، إلى أن تسمح الفتاة بيدها أن يدخل الهواء ، عندئذ يحدث عكس ما حدث من قبل ، فكما يندفع الهواء إلى الداخل يخرج مقدار متساو من الماء . كذلك حين يندفع الدم الرقيق خلال الأطراف إلى الداخل ، يندفع تيار من الهواء . ولكن حين يجري الدم عائدا كما كان يزفر الهواء بمقدار متساو .

(١٠١) [الكلب] يتحسس بأنفه بقايا أطراف الحيوانات ، ورائحة أرجلها التي بقيت على الحشيش اللين (١) .

(١٠٢) وهكذا جميع الحيوانات لها نصيب من التنفس والشم .

(١٠٣ ، ١٠٤) كذلك العقل في جميع الكائنات بإرادة القضاء وبمقدار ما اجتمعت أكثر الأشياء تخلصا في وقوعها .

(١٠٥) [القلب] الموجود في بحر من الدماء التي تجري في جهتين متضادتين ، [والقلب] هو المكان الذي يسميه الناس العقل ، لأن الدم الموجود حول القلب هو العقل في الإنسان .

(١٠٦) لأن عقل الإنسان ينمو في اتجاه المادة الموجودة أمامه (٢) .

(١٠٧) إذ من هذه [العناصر] تتكون جميع الأشياء وتتصل ببعض ، ويفكر الإنسان بها ، ويحس بالذلة والألم .

(١٠٨) وبمقدار ما تتغير طبائعها [في أثناء النهار] كذلك يتخيل الناس عنها أفكار مختلفة [في أحلامهم] .

(١٠٩) بالأرض نرى الأرض ، وبالماء نرى الماء . وبالأثير نعرف الأثير الإلهي ، وبالنار نعرف النار الملهكة . وبالحب ندرك الحب ، وبالغضب ندرك الغضب الشديد (٣) .

(١) يشير إلى كلب الصيد الذي يستطيع وحده تمييز رائحة الحيوان بعد ذهابه .

(٢) برنت : لأن حكمة البشر تنمو حسب ما هو موجود أمامهم . (٣) نقلها أرسطو في كتاب النفس ٤٠٤ ب ١١ - ١٥ - انظر ترجمة كتاب النفس لأحد فؤاد الاخواني ص ١٢ .

(١١٠) فلذا حفظت [هذه الحقائق] في أعماق عقلك ، وتأملتها برغبة صادقة ، وعناية الدرس الخاصة ، حملتها معك طول حياتك ، وحصلت منها على حقائق أخرى كثيرة . لأن هذه الأمور من شأنها أن تنمو بذاتها في قلبك ، والقلب هو الذى يميز طبيعة كل شخص . أما إذا عزمت على تحصيل غير ذلك من الأمور التافهة التى يحصلها آلاف الناس فتفسد عقولهم ، فلا ريب أن تسارع هذه الحقائق إلى مفارقتك على مر الزمن ، لأنها تشتاق أن تعود مرة أخرى إلى نوعها . ذلك لأن جميع الأشياء فيها عقل [حكمة] ^(١) وجزء من التفكير . فاعلم هذا عن يقين .

(١١١) تعلم جميع العقاقير النافعة في دفع الأمراض وعلاج الشيوخوخة . ولن أفضي بهذا كله إلا لك وحدك . سأعلمك كيف تصد قوة الرياح الدائبة التى تهب على الأرض وتقلع الزرع ؛ ثم - إذا رغبت - كيف تغير سير الرياح . وكيف تجعل للناس الموسم جافا بعد المطر الغزير ، ثم كيف تقلب الصيف الجاف أنهارا تتساقط من السماء وتغذى الشجر . وكيف تعيد الميت من الجحيم Hades إلى الحياة .

المعرفة :

[٨٦] يعد أنبادقليس أقدم الفلاسفة الذين حاولوا تفسير نظرية المعرفة تفسيراً كاملاً . وقامت نظريته على أساس أن « الشبيه يُعرف بالشبيه » ، فما دام الإنسان يرى الأشياء المختلفة كالجبل والبحر والشجر والرياح ويدركها ، وكانت هذه الأشياء المختلفة مركبةً من عناصر مختلفة هى النار والهواء والماء والأرض ، فلا بد أن تكون النفس المدركة مركبة من هذه العناصر أيضاً ، لأن « الشبيه يعرف بالشبيه » . وهو فى ذلك يقول : « بالأرض نرى الأرض ، وبالماء نرى الماء ، وبالأثير نعرف الأثير الإلهى ، وبالنار نعرف النار الملهكة » (١٠٩) وقد اعترض أرسطو على هذا المذهب المادى فى النفس - والنفس مصدر المعرفة - بأن المرجع الأخير فى المعرفة هو « التناسب »

(١) فى ترجمة برنت wisdom .

بين العناصر ، وليست العناصر وحدها ، والمقصود بالتناسب الامتزاج بين العناصر ؛ فهل يكون هذا الامتزاج أو التناسب شيئاً جديداً يختلف عن العناصر ، أو هو العناصر ؟ ومن الانتقادات الطريفة التي يوجهها أرسطو إلى أنبادقليس أن التسليم بأن العنصر في النفس هو الذي يعرف شبيهه ، يؤدي إلى أن يكون الحجر موجوداً في النفس لأننا ندرك الحجر ، وهكذا ^(١) .

جملة القول يستدل أنبادقليس من معرفة الإنسان للأشياء المختلفة ، حسية كانت أو عقلية ، على أن النفس والعقل مادبان مركبان من العناصر ذاتها التي تتركب منها الأشياء المختلفة ، وذلك على أساس مبدأ أن الشبيه يعرف الشبيه .

ولم يكن أرسطو الوحيد الذي انتقد في القديم أنبادقليس ، فهذا ثاوفراسطس يعرض مذهبه في الإحساس وفي التفكير مع كثير من التفصيل ، ثم الرد عليه .

ولما كان طريق المعرفة هو الحواس ، فليس من الميسور أن يبلغ الإنسان معرفة الحقائق الكلية للأشياء لسببين : الأول أن الحواس محدودة لا تدرك إلا قدراً محدوداً من الوجود ، والثاني أن الحياة قصيرة لا تكفي في تحصيل الحقيقة عن طريق الحواس . والحقيقة « لا تبصر بالعين أو تسمع بالأذن ، أو تدرك بالعقل » ، كما يقول في استهلال القصيدة . من أجل ذلك لا بد من طريق آخر يضاف إلى الحواس والعقل ، وهو طريق الإلهام ، الذي تهبه الآلهة للإنسان ، كما فعل بارمنيدس من قبل ، غير أن بارمنيدس يسعى إلى الإلهة ويذهب إلى مقرها ، أما أنبادقليس فيجلس مكانه حتى تأتي ربة الشعر إليه .

ولا نستفاد المعرفة من حاسة واحدة ، بل من تعاون الحواس جميعا ، وعلينا أن نقبل ما تجلبه لنا الحواس على أنه صادق ، بشرط أن نطبق إدراك كل حاسة على الأخرى ، وهذا هو السبيل للوثوق من صدقها .

ومع أنه كان يعد الحواس في منزلة واحدة ، إلا أنه غنى بالبصر عناية خاصة ، كسائر فلاسفة الإغريق . والعين التي تبصر كالمصباح الذي يضيء بالنار المشتعلة في داخله ، والتي تخرق الزجاج المحيط به . كذلك العين فيها نار داخلية تخرق الأغشية ، كما تخرق الشعلة الزجاج . ولكن العين ليست مركبة من النار فقط بل يحيط الماء بالحدقة ، وتمتزج أيضا بجزء من الأرض ، وذلك حتى يمكن أن ندرك الأرض بالأرض والماء بالماء .

ولما كانت المحسوسات بعيدة عن العين التي تبصرها ، أو الأذن التي تسمعها ، فقد افترض أنبادقليس صدور سيال ينبثق بين العين والمحسوس ، ولكنه لم يبين هل هذا السيال يصدر عن العين ليلتقي بالشيء الخارجى ، أو أن هذا السيال أو الشعاع يخرج من الشيء ليلتقى بالعين وينفذ من خلال ما يسميه بالأنايب أو المنافذ . ومن جملة اعتراضات أرسطو أن العين لو كانت مركبة من النار لأبصرت جميع الحيوانات في الليل .

والأذن كالناقوس ، تستقبل الهواء المتحرك في الخارج وتقرع طبلة الأذن . غير أنه لم يبين ماذا يحدث داخل الأذن حتى يتم السمع .

ويرجع الشم إلى التنفس ، إذ تتطاير جزئيات من الأجسام مع الهواء الذى نستنشق ، ولذلك إذا أصيب المرء بالزكام أصبح تنفسه عسيرا ، وكذلك الشم .

واللذة والألم من قبيل الإحساسات ، إذ تحدث اللذة من ملاقة الشبيه بالشبيه ، ويحدث الألم من مقابلة الضد . ويمترض ثاوفراسطس بقوله : إن اللذة والألم يختلفان عن البصر والسمع وسائر الحواس ، والدليل على ذلك أننا نحس ، ويكون الإحساس مصحوبا في الغالب بالألم .

والعقل كالإحساس كذلك ، لأنه يتوقف على إدراك الشبه . والدم هو آلة التفكير ، لأن الدم أكثر أجزاء الهدن ملائمة لامتزاج العناصر . وأعظم الناس ذكاء أولئك الذين تعادل في دماهم نسبة العناصر ، وأقلهم ذكاء الذين تضطرب النسبة في دماهم . وإذا كانت العناصر مائلة إلى التخلخل كان صاحبها بطيء التفكير والحركة ، أما إذا تكاثفت العناصر وتقاربت أجزاؤها فإن صاحبها يكون سريع الحركة ، يهمل بفعل كثير من الأعمال ولا ينجز منها شيئاً . وإذا تناسبت العناصر في جزء من الجسم أصبح الشخص موهوباً في هذه الناحية ، وهو يعلل بذلك براعة بعض الناس في الخطابة لاعتدال امتزاج العناصر في الخنجرة واللسان ، ومهارة أصحاب الحرف والصناعات لتناسب الامتزاج في اليدين . واعترض ثاوفراسطس على هذه النظرية بقوله : ليست اليد أو اللسان أو امتزاج الدم المتناسب فيهما هو مصدر المهارة وعلة الامتياز والقدرة ، بل هو شخصية الإنسان الذي يأمر يده ، ويحرك لسانه .

والقلب مركز التفكير ، وليس المخ ، كما ذهبت إلى ذلك عدة مدارس طبية قديمة أيضاً . والسبب في ذلك أن القلب ينبوع الدم ، أو بحد تعبيره : « القلب موجود في بحر من الدماء ، وهو المسكان الذي يسميه الناس العقل ، لأن الدم الموجود حول القلب هو العقل في الإنسان » (١٠٥) . وحيث كان أبقراط ليس من الماديين ، فلا غرابة أن يزعم أن « العقل في جميع الكائنات » (١٠٤) ، وأن « جميع الأشياء فيها عقل وجزء من التفكير » (١١٠) .

العناصر الأربعة :

[٨٧] وقد لعبت نظرية العناصر الأربعة دوراً عظيماً في الطبيعة والكيمياء بل

وعلم النفس حتى القرن الثامن عشر ، فكانوا يفسرون الأمزجة بمقتضاها ، وهذا

مراجعة ناري ، وهذا هوائي ، وهذا مائي وهذا ترابي ، وودج هذا التقسيم إلى كتب فلاسفة العرب ، وأخذوا به ، واصطنعوا لللفظة اليونانية فقالوا الأسطقات الأربعة^(١) Stoicheion ، على أن أنبادقليس لم يضع هذه اللفظة ، بل هي من وضع متأخر . أما هو فكان يستعمل لفظة الجذور Rhizomata وهي التي تترجم في اللغة الانجليزية بلفظة Roots . وأول استعمال للأسطقات نصادفه عن أفلاطون في مجاورة طلياموس ، حيث يتحدث عن علة العالم كيف نشأ ، فيقول كيف كانت الطبيعة قبل خلق العالم :

« طبيعة النار والماء والهواء والأرض ، ناظرين إلى هذه الطبيعة في ذاتها وأى صفات لها قبل وجود العالم . ذلك أن أحدا حتى الآن لم يفسر لنا أصلها . ولكننا نصفها كما لو كنا نعرف من قبل ماذا يمكن أن تكون النار أو أى جسم من هذه الأجسام ، فنقول إنها المبادئ ، ونفترض أنها أسطقات الكل Stoicheia tou pantos ولا يليق بنا أن نشبهها بالمقاطع »^(٢) .

فأصل معنى الأسطقات الحروف الأبجدية التي منها تتكون الألفاظ ذات المعاني ، ثم نقلت إلى معنى العناصر .

يتضح من ذلك أن فكرة الأسطقات تطورت من جهة أصل لفظها . وكذلك تطورت من جهة معناها ، فهي كما بسطها أنبادقليس أقرب إلى عالم الآلهة منها إلى العالم العنصري الطبيعي . فهو كما يلقن تلميذه الأصول الأربعة للأشياء ، يسميها زيوس ، وهيرا ، وأيدونيس ، ونستيس . وقد اختلف القدماء في المدلولات المقابلة هذه الآلهة ، أتكون النار زيوس أم هيرا . وهل أيدونيس الأرض أو الهواء ، وكذلك هيرا . هذا فضلا عن أنه في مكان آخر يسمى النار هفايستوس . ونود أن ننبه إلى أن أنبادقليس لا يصف الهواء باللفظة المعروفة Aer بل بلفظة الأثير .

(١) وقد ترسم أيضا بالصاد : الأسطقس . (٢) طلياموس ٤٨ ب ٤ - ١٠ .

والعناصر أزيله غير مخلوقة ، لم تكن ثم كانت ، ولن تكون ، بل هي الحقائق الأولى ، أو هي الجوهر والطبيعة كما سماها أنبادقليس ، أو قل : إن الناس هم الذين سموا العناصر طبائع ، واضطر إلى موافقتهم على هذه التسمية . والناس يقولون كذلك إن العناصر عند امتزاجها تظهر إلى الوجود الكائنات المختلفة كالشجر والحيوان والسمك والإنسان ، ثم ينتهى أمر هذه الكائنات إلى الاختفاء والانمحاه بالموت . هؤلاء الناس يسميهم الحقى : « إذ يظنون أن ما لم يوجد من قبل يخرج إلى الوجود ، وأن الموجود يفنى تماما » (١١) « ولا يمكن بأى حال أن يظهر شيء إلى الوجود مما ليس بموجود ، ولا أن يفسد ما هو موجود ، فهذا أمر مستحيل ، ولا يمكن سماعه » (١٢) وتذكرنا ألقاظ هذه العبارات بفلسفة بارمنيدس ، واسكن أنبادقليس بدلا من القول بالواحد أراد أن يوفق بين هذا المذهب وبين الطبيعيين الأولين فجعل العناصر أربعة ، وجعلها ثابتة فى الأصل ، ثم راح يعلل الحركة والتغير اللتين أنكرتهما المدرسة الإيلية . ويعلل التغير ، أى تكون الأشياء وظهورها إلى الوجود ، بامتزاج العناصر ، وهو لا يعنى بذلك اختلاطها اختلاطا يذهب بعنصرية كل منها ، بل تجاور جزياتها فقط . وله فى ذلك تشبيه طريف مستمد من الفن ، فكما أن المصور يتناول بيده قطعة من كل لون وينقشها على اللوحة فيخرج بذلك أشكالا مختلفة من الناس والطير والحيوانات والأشجار ، كذلك هذه الموجودات التى نراها فيها من كل عنصر جزء ، وتنفى هذه الموجودات واسكن العناصر باقية .

الحجة والغلبة :

[١٨] كان أنكسمندريس يقول بالانضمام والانفصال ، وأنكسمانس بالتكاثف والتخلخل ، وكلا الأمرين يحتاج إلى علة ، فمادة الانضمام أو التكاثف ، وماسبب الانفصال

أو التخلخل . هنا نجد خطوة نحو التعليل الذى يمكن أن يقبله العقل ، نعى المحبة والغلبة . ومن المغالاة تأويل مذهب أنبادقليس تأويلا علميا حديثا - كما فعل بعض المؤرخين - بحيث يكون المقصود من المحبة التجاذب ومن الغلبة التنافر ، لأن مذهب الجاذبية من المذاهب الحديثة جدا ، فضلا عن أن أنبادقليس كان يصفهما وصفا أسطوريا ، فالمحبة عنده هى أفروديت ربة الحب والجمال ، والإلهة التى تهب الحياة حين توحد بين الذكر والأنثى . فلا غرابة أن تكون المحبة علة التوحيد بين الأشياء . ونحن نسلم بالجاذبية بين الأشياء الطبيعية فى العلم الحديث ، ثم نحاول أن نطبقها على الأحياء . أما أنبادقليس فكان الأمر عنده على العكس ، إذ كان يعتمد على النظر إلى الكائنات الحية ، وبخاصة الإنسان - وقد كان كما نعرف طبيبا - ثم حاول أن يفسر العالم الطبيعى بما كان يشاهده فى عالم الحياة ، فأخذ يصف السماء والشمس والقمر بأن لها أعضاء أو أطرافا كما هى الحال فى أعضاء الكائنات الحية ، وأن انضمام الأعضاء إلى جسم الكائن ينشأ عن فعل المحبة ، وانفصالها عن الغلبة .

والمحبة والغلبة أزليان كالعناصر الأربعة سواء بسواء . أمّا المحبة فهى داخل العناصر ومساوية لها فى الطول والعرض . وأمّا الغلبة فخارجها ومساوية لها فى الثقل . والمحبة أصل الائتلاف والتناسب سواء بين أعضاء الجسم ، أو بين عواطف القلب وأفكاره . ولا يمكن أن ترى المحبة بالحس ، بل تدرك بالعقل ، ولم يصل إلى معرفتها أحد من البشر ، اللهم إلا أنبادقليس نفسه !!

وقد حلت المحبة والغلبة مشكلة الواحد والكثير ، فإذا سادت المحبة أصبحت الأشياء الكثيرة كلاً واحداً ، ثم تدور دورة الزمان وتسود الغلبة فيصير الواحد كثيراً .

وكان هرقلطس يقول بالسلم والحرب ، ولكن الحقيقة عنده - كما ذكرنا من قبل - تقوم على هذا الصراع بين الأضداد وعلى الائتلاف للركب منها في آن واحد، أما عند أنبادقليس فالمحبة والغلبة يتبادلان السيادة .

وكان هرقلطس يُعنى من شأن الحرب على السلم ، أما أنبادقليس فيرفع من قدر المحبة على الغلبة . والعالم عنده يسير في طريقين ، الأول طريق المحبة الذي يؤدي إلى الكون ، والثاني طريق الغلبة الذي ينتهى إلى الفساد .

فالعالم كله كرة Sphairos التأمّت بالمحبة ، ليس فيها غلبة ولا تنازع ، وهي متساوية الأبعاد من جميع الجهات ، بغير نهاية ، كروية ، مستديرة ، مبهجة بعزلتها وثباتها (٢٨) . وهذه كلها صفات تذكرنا بالواحد البارمنيدي الكروى . ولم يكن لتلك الكرة - فيما يصفها به أنبادقليس - أطراف ولا أعضاء . وهو يسمّى الكرة الإلهة ، فلما بدأت الغلبة تفعل فعلها كان أول الخلق من العناصر الأربعة الأزلية أشد الأشياء شها بالكرة الأولى ، أى الشمس والسماء والأرض والبحر ، ثم أخذت تتكون الكائنات الحية . وأدوار الخلق بحسب تبادل المحبة والغلبة أربعة ، الأول سيادة المحبة حين كان العالم كرة ، والثاني خروج المحبة ودخول الغلبة ، والثالث انقصار الغلبة وخروج المحبة تماما ، والرابع عودة المحبة إلى الدخول لتوحيد العناصر . وهذا العالم الذى نعيش فيه مزيج من المحبة والغلبة ، فهو إما فى الدور الثانى أو الرابع . على أن أنبادقليس لم يحدثنا أى دور من الأدوار هذا العالم ، ولكن رأى عند أرسطو أن عالمنا تسود فيه الغلبة . فإذا كان الأمر كذلك ، كان أنبادقليس من فلاسفة التشاؤم الذين يذهبون إلى أن الشر يتغلب فى العالم على الخير ، وعنده بوجه خاص أن العالم تنقطع أوصاله بالغلبة ويتجه نحو الكثرة الكثيرة . ولعل اشتغاله بالسياسة والدين

وادعاه النبوة مما جملة يرى المجتمع البشرى سائرا إلى طريق الهلاك ، بما تسوده من
من نزعة فردية متزايدة تتمثل في انتشار المديعراطية .

الضرورة والاتفاق :

[١٨٩] ولكن كيف نُحدث المحبة الاتحاد أو تفعل الغلبة فعلها ؟ أهناك غاية
يهدف العالم إلى بلوغها أم أن العالم أشبه بالآلة التي تسير منذ أن انطلقت بغير
غرض ؟

الحق أن عالم أنبادقليس مادي آلى يمتاز بالحركة الدائمة ، ولا يفتر إلى علة
أخرى تحركه خلاف المحبة والغلبة للماديتين اللتين حركتا العناصر ابتداء ولا تنفكان
تحركانهما في الطريقتين اللتين تحدثنا عنهما ، فالعناصر الأربعة بالإضافة إلى المحبة والغلبة
هي الحقائق الست المادية التي تخلو عن الغاية ، وهي جميعا أشياء مادية بمعنى الكلمة ،
لها ثقل ولها طول وعرض . وهذا هو الذي حدا بأفلاطون وأرسطو فيما بعد إلى انتقاد
أنبادقليس على أساس انعدام العلة الغائية في مذهبه ، أو غياب هذا الشوق الباطن
الحرك للعالم ، والوجه له في حركته . وليس للعناصر عنده « مكان طبيعي » ، فقد
تكون في هذا المكان أو ذاك بحكم الميكانيكية العمياء ، وبفضل المصادفة والاتفاق ،
لا بنزوعها الخاص نحو السكّال . والمحبة والغلبة قوتان ميكانيكيتان محض ، فالمحبة
تقضى بالوحدة والاتلاف ، والغلبة تؤدي إلى الكثرة والانفصال ، فظهرت « على
الأرض رءوس كثيرة لأرقاب لها ، وهامت أذرع لا أكتاف لها وكلما امتزجت
المحبة بالغلبة اجتمعت هذه الأشياء كيفما اتفق ... ثيران لها وجه البشر ، وبشر لهم رءوس
الثيران ... الخ » (٥٧ - ٦١) . فالكائنات التي نشاهدها على صورة معينة إنما
ظهرت « كيفما اتفق » أي بمحض الصدفة . ومع ذلك فتكونها هذا التكوين

إنما خضع أيضا للضرورة ، أى لحكم الضرورة العمياء - تلك الفكرة التى سادت الأساطير اليونانية منذ أيام هوميروس وهزيبود - التى تدفع المحبة إلى التوحيد والغلبة إلى التكثير . وتحدث أبنا دقليس عن الضرورة - التى يُشخصها - فى قصيدة التطهير فقال :

(١١٥) « هناك وحى ناطق بلسان الضرورة Anankê ، وهو أمر عن الآلهة قديم أزلى ، موثق بأغلاظ الأيمان ، بأنه عندما تخرج يدها بالدم روح إلهية Daemon جزؤها طويل العمر ، وتتبع الغلبة فتحلف باطلا ، فينبغى أن تهيم على وجهها ثلاث مرات خلال عشرة آلاف موسم بعيدا عن صحبة المنعمين ، لأنها نشأت فى أثناء الفترة التى تسود فيها صور الكائنات الفاسدة ، تلك التى تنتقل من طريق شاق فى الحياة إلى طريق آخر . ذلك أن الهواء الجبار يطردها إلى البحر ، ثم يلفظها البحر على الأرض الجافة ، وتسوقها الأرض بعد ذلك نحو أشعة الشمس اللتهبة ، ثم تطوح بها الشمس فى أعاصير الهواء . ويتلقاها عنصر عن عنصر ، ولكنها تلفظها جميعا . إني أنا الآن أحد هذه الأرواح ، مطرود وهائم بعيدا عن الآلهة ، لأننى وضعت ثقى فى الغلبة الشائرة » .

فالضرورة أدرُّ إلهى ، أزلى ، وقسمٌ موثق بأغلاظ الأيمان . وكما قضت الضرورة على العناصر وعلى المحبة والغلبة بوحدتها وانفصالها ، قضت كذلك على النفس الإنسانية أن تطرد من عالم الآلهة كما نُحْدِثُنا النحلة الأورفية .

الإنسان والنفس والمجتمع :

[٩٠] بعد أن تحدث أبنا دقليس عن العالم الطبيعى وما فيه من عناصر وكيف يتكون هذا العالم ، تحدث فى قصيدة « التطهير » عن الإنسان المركب من بدن ونفس ويصف هبوط النفس من العالم الإلهى إلى هذا البدن ، وما تعانيه من آلام ، وما ينبغى أن تفعله كي تتطهر وتحيا حياة صالحة سعيدة ، وعن علاقة الإنسان بغيره

فى هذا المجتمع . وهو يتقدم إلى بنى وطنه متحدثا إليهم كأنه نبى ، بل إله ، وهو نوع من الفخر المألوف عن الشعراء فى الزمن القديم ، كما أن نفسه الناطقة هى فى اعتقاده روح من الآلهة حلت فى هذه الصورة الإنسانية . ولستمع إليه فى استهلال القصيدة يقول :

(١١٢) أيها الرفاق الذين تسكنون المدينة العظيمة المظلة على صخور أكراجاس الصفراء . أيها الأصحاب العاكفون على الأعمال الفاضلة ، الحامون ذمار الأغراب ، الراعون حقوقهم ، البريثون عن أعمال الشر . . . سلاماً .

إنى أطوف بكم أمشى إلها مخلصا لا بشرا فانيا ، يخلع جميع الناس علىّ كما ترون تيجان الزهور المنضدة . ويمجدنى الرجال والنساء حين أزورهم فى مدائنهم المزدهرة [كأننى إله]^(١) ويتبعنى منهم آلاف يسألوننى عن طريق الفوز ، ينشد بعضهم المعجزات ، ويطلب بعضهم الآخر منى كلمة عن علاج أمراضهم الكثيرة التى أوجعهم بآلامها زمنا طويلا .

فهو يصور لنا نفسه إلها ، أو معبوداً من أهل مدينته ، وسكان المدن الأخرى ، الذين التفتوا حوله يطلبون حكمته الروحية ، وعلاجه الطبى . ولقد كان حقاً ذا شهرة شعبية ، آزر الشعب حين ثار على حكم الطغيان ، وزادت محبة الشعب له حين رفض التاج الذى قُدم إليه . ولم تكن منزلته سياسية فقط ، بل كان فى نظر الشعب إلها ، أو نبيا ، أو مخلصا لأرواحهم ونفوسهم جميعا . فهو يتحدث عن ثقة مستمدة من ثقة أهل وطنه به . غير أن ما ذهب إليه من أنه إله كان شيئا فريدا فى تاريخ الفلسفة اليونانية ، مما جعل كثيرا من النقاد يصفونه بأنه كان مهرجا . الحق أن تجاربه الدينية التى سار فيها على نهج النحلة الأورفية هى التى صبغت روحه هذه الصبغة، وجعلته يعتقد هذا الاعتقاد . ونحن نعلم أن الأورفية - كما اندمجت فى الفيثاغورية - تصور النفس

(١) زيادة عند ويجر - والترجمة عن برنت وفريمان ويجر .

الإنسانية إلهية هبطت إلى البدن عقوبة لها ، وليس لها من سبيل إلى الخلاص إلا بالعطهر . وهى إلى جانب ذلك عقيدة اجتماعية سرية تربط أفراد المجتمع برباط وثيق . ويعتقد بعض المؤرخين أن أنبادقليس كان من أكبر للمثليين لها فى القرن الخامس . ويُروى أنه تعلم على فيثاغورس نفسه ، أو على يدا ابنه تلياجوس . ويشير أنبادقليس إلى فيثاغورس دون أن يعين اسمه ، ولكن الوصف يدل عليه ، وذلك فى قوله :

(١٢٩) « كان بينهم رجل ذو معرفة فائقة ، برع فى جميع أنواع الحكمة ، واكتسب أعظم قدر من العلم ... »

وقد نقلنا رأيه فى النفس (١١٥) حيث يصفها بأنها روح إلهية Daemon ، وكيف أن نفسه هى أحد هذه الأرواح المطردة من عالم الآلهة . ويبدو أن الفلاسفة الذين اعتنقوا عقيدة الأورفية ودانوا بالفيثاغورية ، اعتقدوا كذلك هذا الاعتقاد . ولما ثور أن سقراط كان يستوحى هذه الروح الإلهية . وكان من الشائع فى ديانة الإغريق كما صورها هز يود أن أرواح الموتى تحوم فى العالم وبخاصة عند المقابر . أما عند الفيثاغوريين فالروح لها وجود سابق على البدن ، ثم تبقى بعد فناءه فى صورة التناسخ . فالروح عندهم إلهية ارتكبت ذنبا فعوقبت . وهذا الذنب هو الذى يصوره لنا أنبادقليس فى قوله إنها « ضرجت يدها بالدم » . ويصور لنا كيف تناسخ فى قوله :

(١١٧) « فقد كنت من قبل صيبا ، وبنتا ، وشجرة ، وطارا ، وممكة بكاء فى البحر .

(١١٨) وبكيتُ ونحت عندما رأيت الأرض الغريبة [عند الميلاد] .

(١١٩) من أى شرف ومن أى نعيم هبطت وأصبحت أمشى بين البشر هنا على ظهر

الأرض .

(١٢٠) لقد جئنا إلى هذا الكهف السقوف .

فهو يؤمن بالتناسخ وأنه كان طائراً وسمكة وشجرة ، ولذلك كان ذبح الحيوان محرماً وأكل لحمة توحشاً ، لأن الابن قد يذبح أباه حين يذبح الحيوان .

العلم والطب :

[٩١] أقدم مدرسة طبية في اليونان هي تلك التي نشأت في كروتون مهد الفيثاغوريين واشتهر بها ألكمايون Alkmaion الذي ذاع اسمه في الزمن القديم ، وكان يعد المنح مركز الإحساس ، وهي نظرية أخذها عنه أبقراط وأفلاطون ، على عكس أنبادقليس الذي جعل القلب هو المركز . ولما كان ألكمايون فيثاغوريا صمياً فقد اتخذ من نظرية « التناسب » أساساً لصحة البدن ، وهي اعتدال الكيفيات الأربعة وهي الحار والبارد والرطب واليابس ، وتسمى هذه الحالة من التناسب أو الاعتدال في اليونانية إيسونوميا Isonomia ، ويشبه سلطان الكيفيات في الجسم بقوى أربع تعاون على الحكم في المدينة طبقاً للقانون .

وتعلم أنبادقليس الطب عن مدرسة كروتون ، ونقل نظرية تناسب الكيفيات إلى الاعتدال بين العناصر ، واشتهر بها ، وكان له تلاميذ منهم أقرون Akron .

ولما ظهر أبقراط [٤٦٠ - ٣٧٥] في جزيرة قوس غرب آسيا الصغرى ، وهو الذي أصبح يسمى أب الطب فيما بعد ، اعترض على الفلاسفة وبخاصة أنبادقليس الذين يفسرون الطب بالعالم الطبيعي ، وأنه لا بد للطبيب من معرفة « طبيعة الإنسان » . فقال :

« وتشير مباحثهم إلى الفلسفة ، مثل مباحث أنبادقليس وغيره من الذين ألفوا كتباً في الطبيعة » ووصفوا نشأة الإنسان ، وكيف ظهر إلى الوجود ومن أي العناصر يتركب . والرأي عندى أن جميع ما كتبه هؤلاء الفلاسفة أو الطبيعويون من

رسائل « في الطبيعة » لاصلة له بالطب كما لاصلة له بالنقش والتصوير . أما أنا فأذهب إلى أن الطب هو الأصل الوحيد للمعرفة الواضحة عن الطبيعة ، ولن يستطيع أحد أن يصل إلى معرفة ما الإنسان ، وما أسباب ظهوره إلى الوجود ، وسائر هذه المباحث ، إلا بعد أن يعرف الطب حق المعرفة » . (١)

ويعارض أبقراط نظرية أنبادقليس في أن القلب مركز الإحساس ، أى نظرية الدم ، وتجعل المنخ مركز الإحساس . وقد رأينا في نصوص أنبادقليس الصلة بين الدم والتنفس ، ذلك أن سطح الجسم كله ، يتنفس خلال المسام المنتشرة تحت سطح الجلد ، لأن الهواء يحل محل الدم ، ثم يحل الدم محل الهواء كما هي الحال في آلة « الكليبيدرا » . وقد زعم بعض المؤرخين أن أنبادقليس كان من العلماء الذين يثبتون علمهم بالتجارب بسبب هذه الآلة . وليس هذا صحيحا ، لأن الآلة كانت معروفة متداولة ، يستعملها الناس في البيوت لاجتذاب الخمر من الدنان ، وهذه الآلة عبارة عن إناء ضيق الرقبة ، به ثقب كثيرة في أسفله ، فإذا غمس في السائل لا ينفذ الماء أو الخمر داخل الثقب إذا وضع الإنسان إصبعه على فم الإناء . وعلة ذلك أن الهواء الذى يملأ الإناء يمنع السائل من النفاذ .

والذى استخلصه أنبادقليس من دلالة هذه الآلة أن الهواء جسم ، وأنه عنصر من العناصر ، كما أثبت كذلك انعدام الخلاء ، فأيد نظرية المدرسة الإبلية في أن العالم ملاء . فالتجربة ، أو الأصح أن نقول الملاحظة ، هى أن الإناء حين يكون فارغاً ليس خلواً خلاء تاماً ، بل فيه شيء يملؤه ، وهذا الشيء هو الهواء .

ومن هذا كله يتضح أن أنبادقليس كان فيلسوفا طبيعيا .

حياته :

[٩٢] ولد أنكساجوراس في مدينة كلازوميناى من أعمال أيونية عام ٥٠٠ ق . م ، وذهب إلى أثينا عام ٤٨٠ ، وازدهر سنة ٤٦٠ ، وتوفي في السنة التي ولد فيها أفلاطون أي ٤٢٨ ق . م في لمباسكوس Lampascus حيث نفي هناك ^(١) . وهو من أسرة عريقة ، ويقال إنه تنازل عن أمواله مؤثرا متابعة البحث . وأكبر الظن أنه هجر موطنه كلازوميناى حين وقعت تحت سيطرة الفرس الذين أخضعوا ثورة أيونية بقوة السلاح . ولما ذهب إلى أثينا أصبح مواطنا أجنبيا ^(٢) ، واصطفاه بركليس معلما ، وهو الذى رعاه فيما بعد وحال بينه وبين الحكم بالإعدام . ويحدثنا سقراط في محاوره « فيدر » أن بركليس تلقى على يديه العلم الطبيعي وصناعة الخطابة . ويروى في سبب شهرته أنه تنبأ بسقوط نيزك من السماء في أيجسبوتامى عام ٤٦٨ ق . م ، وأثار سقوط ذلك الحجر الكبير دهشة الناس وغرابتهم وأعجبوا بغزارة علم أنكساجورس ، فدعاه بركليس إلى حلقة ، وكان يوربيدس شاعر التراجيديات من جملة تلاميذه . ويمتاز عصر بركليس بالازدهار لأنه استقدم إلى أثينا كثيرا من الأجانب المشهورين في كل فن . وأكبر الظن أن محاكمة أنكساجوراس ثم نفيه كان بسبب صلته ببركليس ، وذلك قبل الحرب

(١) هذه التواريخ تقريبية ويناقشها برنت وغيره مناقشة طويلة .

(٢) لم يكن يحق للأجنبي عن أثينا أن يصبح مواطنا أثينيا له حق المشاركة في الحكم والمجالس المختلفة ، وليس له حق امتلاك الأرض ، ولذلك لم يستطع أرسطو أن يفتح المدرسة باسمه .

البلوبونيزية ، نعى أن خصوم بركليس السياسيين هاجموا في شخص أستاذه .
واختلف في أصحاب الاتهام ، فقيل كليون ، وقيل ثوكيديديس . أما التهمة فهي
الزندقة ، وعلى وجه التحديد القول بأن الشمس قطعة ملتهبة من الحجر ، وأن القمر
أرض ، وليس كلاهما آلهة . وقيل إن بركليس حال بينه وبين الحكمة ، ونصحه
بالسفر من أثينا فذهب إلى لمباسكوس ؛ وزعم آخرون أنه حوكم وصدر عليه الحكم
بالنفي ؛ وفي رواية ثالثة أنه حكم عليه بالإعدام وطلب بركليس العفو عنه ، وهياً له أن
يهجر أثينا ، فذهب إلى لمباسكوس حيث توفي بعد سنوات . وجاء في وصيته أن يمنح
الأطفال إجازة سنوية في ذكرى وفاته ، واحترم الحكام وصيته أعواماً كثيرة .
ونقشت كلاً من صوريته على عملتها تمجيدها له . وحيث كانت نظرية العقل Nous
أشهر ماجاء عنه ، فقد اشتهر في الزمن القديم بهذا الاسم أى العقل .

ودون أنكساجوراس كتاباً في العلم الطبيعي ، ولم تبق منه إلا شذرات ، ولكن
أسلوبه كان واضحاً أنيقاً ، وكان يباع في ملاعب أثينا بدراخمة واحدة ، مما يدل
على انتشاره وتداوله . ويرى سقراط في محاوره « فيدون » أنه اطلع على ذلك
الكتاب في شبابه ، وأعجب به ، واشتغل بالعلم الطبيعي كما جاء فيه ، وأعجب بنظرية
العقل ، ولكنه نقد مذهبه بعد ذلك ولم يرقه ، ثم عدل عن العلم الطبيعي جملة .
ولما كان حديث سقراط يشغل عدة صفحات ، فقد عد المؤرخون ذلك دليلاً على شهرة
الكتاب وصاحبه .

ويقال إنه أنشأ في لمباسكوس ، وكانت مستعمرة للمطية ، مدرسة ظل يعلم فيها
قبل وفاته . ثم أقام أهل مدينته ضرباً لذكراه وهبوه للعقل والحقيقة .

[٩٣] النصوص :

(١) كانت جميع الأشياء معاً ، لا نهاية لها في العدد والصغر ؛ لأن الصغير أيضاً لا نهائى . ولما كانت جميع الأشياء معاً ، فلم يكن ممكناً لصغرها تمييز أى شىء منها . ذلك أن الهواء والأثير ، لأنهما لانهايان ، كانا يحكمان كل شىء ؛ هذا إلى أنها أكثر [العناصر] أهمية في الامتزاج الأخير ، سواء في العدد أو في الحجم .

(٢) الهواء والأثير منفصلان عن الكتلة التى تحيط بالعالم ، وهذا المحيط لا نهائى في المقدار ^(١) .

(٣) لا يوجد أقل من الصغير ، بل أصغر فقط ، إذ من المستحيل ألا يكون الموجود موجوداً . وهناك أكبر من الكبير دائماً ، والكبير مساو للصغير في المقدار ؛ وكل شىء بالنسبة إلى نفسه كبير وصغير معاً .

(٤) ولما كانت هذه الأمور كذلك ، فيجب أن نفترض احتواء الأشياء المركبة على أشياء كثيرة من كل نوع ، وعلى بذور من جميع الأشياء تحتوى على أشكال من كل ضرب ، وألوان من كل نوع ، وأذواق للذئبة ؛ وأن الناس أيضاً قد تألفت منها ، وكذلك الكائنات الأخرى ذات الحياة ؛ وأن هؤلاء الناس سكنوا المدن وزرعوا الأرض كما هى حالنا ؛ وأن لهم كما لنا شمساً وقرراً وسائر [الأجرام] ^(٢) الأخرى ؛ وأن أرضهم تنبت لهم الزرع من كل صنف فيحصدون أنقع الثمر ويأخذونه إلى مساكنهم ينتفعون به . ولقد تحدثت بما فيه الكفاية عن الانفصال لأبين أنه لم يحدث عندنا فقط ، بل في أمكنة أخرى كذلك .

وقبل أن تنفصل هذه الأشياء كانت كلها معاً ، دون أن يتميز أى لون ، لأن امتزاجها كان يحول دون ذلك ، [نعنى] امتزاج الرطب واليابس ، والحر والبارد ، والنور والظلمة ، وكان في الامتزاج مقدار عظيم من الأرض ، وبذور لانهاية لعددها ؛ ولا يشبه أحدها الآخر ، لأن شيئاً لا يشبه شيئاً آخر . ولما كان الأمر كذلك ، فعلى أن نعتقد أن كل شىء موجود في الكل .

(١) فريمان : العدد (٢) زيادة عند فريمان .

(٥) وحيث انقصت هذه الأشياء على هذا النحو ، فيجب أن نعرف أنها ليست جميعاً أكبر أو أصغر ، إذ ليس من الممكن أن تكون أكثر من الكل ، بل جميع الأشياء متساوية دائماً [في المقدار] ^(١) .

(٦) ولما كانت أجزاء الكبير والصغير متساوية في المقدار ، فلهذا السبب أيضاً كان كل شيء في كل شيء . وليس من الممكن للأشياء أن توجد منفصلة ، بل كل شيء يحتوي على جزء من كل شيء . ولما كان من المستحيل أن يكون الأقل موجوداً ، فلا يمكن أن يوجد منفصلاً ، أو أن يوجد بذاته . بل الأشياء موجودة الآن كما كانت منذ الأزل . وفي جميع الأشياء توجد أشياء كثيرة ، وفي الأشياء المنفصلة يوجد عدد متساو من الكبير والصغير .

(٧) لذلك لم يكن في الإمكان معرفة عدد الأشياء المنفصلة سواء في العقل ^(٢) أو في الواقع .

(٨) الأشياء الموجودة في عالم Kosmos واحد لا يفصل ^(٣) بعضها عن بعض بفأس ، فلا يفصل الحار عن البارد ، ولا البارد عن الحار .

(٩) وهذه الأشياء تدور وتفصل بالقوة والسرعة ؛ والسرعة تولد القوة . ولا تشبه سرعتها سرعة أى شيء من الأشياء الموجودة الآن بين الناس ، بل تفوقها مرات كثيرة .

(١٠) كيف ينشأ الشعر مما ليس شعراً ، أو اللحم مما ليس لحماً ^(٤) ؟

(١١) في كل شيء جزء من كل شيء ماعدا العقل Nous ، وهناك بعض الأشياء تحتوى على العقل أيضاً .

(١٢) جميع الأشياء الأخرى فيها جزء من كل شيء ، أما العقل فهو لا نهائي ، ويحكم نفسه بنفسه ، ولا يمتزج بشيء ، ولكنه يوجد وحده قائماً بذاته . ذلك أنه لو لم يكن قائماً بذاته ، وكان ممتزجاً بأى شيء آخر ، لكان فيه جزء من جميع الأشياء مادام ممتزجاً بشيء آخر ، إذ - كما قلت من قبل - في كل شيء جزء من كل شيء . ولو أن الأشياء

(١) زيادة عند فريمان . (٢) برنت : في اللفظ (٣) برنت : ينقسم (٣) فريمان :

كيف ينشأ الشعر من اللا شعر ، أو اللحم من اللحم ؟

كانت ممتزجة بالعقل لحالت بينه وبين حكم الأشياء، كما يحكم نفسه ، وهو قائم بذاته . ذلك أن العقل أطف الأشياء جميعا وأنقاه ، عالم بكل شيء ، عظيم القدرة . ويحكم العقل جميع الكائنات الحية كبيرها وصغيرها . والعقل هو الذى حرك الحركة الكلية فتحركت الأشياء الحركة الأولى . وبدأت الأشياء تتحرك من نقطة صغيرة ، ولكن الحركة الآن تمتد إلى مساحة أكبر ، ولا تزال تنتشر . والعقل يدرك جميع الأشياء التى امتزجت وانفصلت وانقسمت . والعقل هو الذى بث النظام فى جميع الأشياء التى كانت ، والتى توجد الآن ، والتى سوف تكون . وكذلك هذه الحركة التى تدور بمقتضاها الشمس والقمر والنجوم ، والهواء والأثير المنفصلين عنها . هذه الحركة هى التى أحدثت الانفصال ، فانفصل الكثيف عن المتخلخل ، والحار عن البارد ، والنور عن الظلمة ، واليابس عن الرطب . وكانت هناك أشياء كثيرة فى أشياء كثيرة . ولا ينفصل أو يتميز (١) شيء عن شيء انفصالا أو تميزا مطلقا ، ماعدا العقل . العقل كله متشابه ، كبيره وصغيره . ولا شيء آخر يشبه شيئا آخر ، بل كل شيء من الأشياء يشبه تلك الأشياء التى يحتويها أكثر من غيرها .

(١٣) وحين بدأ العقل يحرك الأشياء ، حدث الانفصال عن كل ما هو متحرك . وكل شيء حركه العقل فقد انفصل ، فلما أخذت الأشياء فى الحركة والانفصال زادت الحركة فى انفصال الأشياء .

(١٤) والعقل ، الموجود على الدوام ، لا يزال بلا ريب موجوداً ، حيث توجد جميع الأشياء فى الكتلة المحيطة ، وفى الأشياء التى امتزجت بها من قبل ، والتى انفصلت عنها .

(١٥) لقد اجتمع الكثيف والرطب والبارد والظلام حيث توجد الأرض الآن ، وذهب المتخلخل والحار واليابس خارجا إلى أبعد جزء من الأثير .

(١٦) وصلبت الأرض عن هذه الأشياء عند انفصالها ، إذ ينفصل الماء من السحب ، والأرض من الماء ، وصلبت الحجارة عن الأرض بالبارد ، وهذه تسرع إلى الاتجاه خارجا أكثر من الماء .

(١٧) ويخطئ الهلينيون فى قولهم : إن الأشياء تظهر إلى الوجود ثم تختفى ؛ فلا شيء

يظهر إلى الوجود أو يختفى عن الوجود ، بل هناك انفصال أو امتزاج لما هو موجود .
والصواب أن يقولوا عن ظهور الأشياء إلى الوجود إنها « امتزاج » ، وعن التى تختفى
عن الوجود إنها « انفصال » .

(١٨) الشمس هى التى تضىء القمر .

(١٩) نحن نسمى انعكاس الشمس على السحب إريس Iris (قوس قزح) .
وهذه علامة على زوبعة ، لأن الماء الذى يفيض حول السحب يُحدث رياحا ، أو
يُنزل مطراً .

(٢٠) عندما يشرق الدب الأكبر [أى النجم] يشرع الناس فى الحصاد ، وعندما
يغرب يأخذون فى الحرث . إنه يختفى أربعين يوماً وليلة .

(٢١) لا نستطيع الحكم على الحقيقة بسبب ضعف الحواس .

(٢١ ا) الظاهر سبيل إلى رؤية المجهول .

(٢١ ب) [نحن أضعف من الحيوان قوة وسرعة] ولكنا نمتاز بالتجربة والذاكرة
والحكمة والفن .

(٢٢) ما يسمى « ابن الطير » هو البيض الأبيض .

الفلسفة الطبيعية :

[٩٤] كان أنكساجوراس مشهوراً فى الزمن القديم بأنه فيلسوف طبيعى ،
وآية ذلك أن سقراط - كما قلنا من قبل - اطلع فى شبابه على كتابه ، وكان زهيد
الشم ، وأخذ عنه مذهبه الطبيعى . وقد نشأت الفلسفة الطبيعية فى أيونية ، فلا غرابة
أن ينهج أنكساجوراس الكلازومينى على نهجهم ، ولكنه خطأ بتلك الفلسفة
خطوة إلى الأمام نتيجة تقدم العلم سواء علم الفلك أو علم الطب . ولانزاع فى أن قوله
بأن الشمس حجر ملتهب يعد انقلاباً بل ثورة فى الفكر ، بالإضافة إلى ذلك الزمان
الذى كانوا يؤمنون فيه الأجرام السماوية . الحق يمتاز القرن الخامس بنزعة واقعية

تجريبية امتد أثرها إلى جميع فروع العلم . فهذا هيرودوت يطوف في البلاد ويصف تاريخها وصفاً بعيداً عن الهوى إلى حد كبير ، فدون تاريخ مصر وفارس ومعظم الدول المعروفة في عصره . وظهر كثيرون من الجغرافيين الذين رسموا خرائط لحوض البحر الأبيض والدول الواقعة عليه . واشتهرت مدرسة أبقرات بالطب ، تلك المدرسة التي عارضت فلسفة الطبيعيين في تفسير أسباب الصحة والمرض ، وحاولت أن تلتمس العلة من المشاهدات الواقعة ، كما ذكرنا عند الكلام على أنبادقليس .

ولم يكن أنكساجوراس غريباً عن هذا التيار الفلسفي الذي يقيم مذهبه على العلم التجريبي ، ولم يكن غريباً عن ميدان الطب بوجه خاص ، ولو أن النصوص الباقية لدينا لا تكفي في تبين مدى نظريته . ولكن قوله إن الشعر لا يخرج من اللاشعر وكذلك اللحم أو العظم ، يفيد أن « البذرة » تحتوي على جميع الصفات العضوية التي تظهر فيما بعد . ويحدثنا سمبليقيوس أنه عول في فلسفته على النظر إلى مشكلة الغذاء والنمو في الكائنات الحية . وهذا الاتجاه عكس اتجاه أنبادقليس الذي ابتدأ من فلسفة الطبيعة وطبقها على الطب . وقد نسب القدماء إلى أنكساجوراس تجربة أثبت بها عنصرية الهواء ، وهي أن جلد الحيوان إذا نفخ وربط فيه قاوم الضغط الخارجي ، وهي تجربة تشبه « البالون » الذي يلعب به الأطفال في الوقت الحاضر . وقد بينا عند الكلام على أنبادقليس وتجربته على « الكلبسيدرا » ، أن هذه الآلة أدخل في باب الملاحظة منها في باب التجربة ، فلم يكن لهؤلاء الفلاسفة معامل يستحدثون فيها التجارب لغرض إثبات الفروض .

ويروى فلوطرخس قصة تثبت اشتغال أنكساجوراس بالطب والتشريح ،

ويستخلص منها اعتماداً في التعليل على المشاهدة لا على الخرافة ، قال :

« يروى أنهم أحضروا إلى بركليس من إحدى مزارعه رأس كبش فيها قرن وحيد .
فلما رأى العراف « لامبو » Lampo أن القرن يبرز في وسط الجهة قويا ثابتا ، تنبأ
بأن هذه علامة على اتحاد الحزبين السياسيين ، حزب ثوكيديدس وحزب بركليس ،
تحت رئاسة ذلك الذي وجدت الآية عنده . ولكن أنكساجوراس شرح الرأس
فوجد أن اللخ لا يملاً سائر الجمجمة ، بل اقتصر على شكل يضاوى في أحد الجانبين وهو
الذى برز القرن منه . فخلع المتفرجون على أنكساجوراس قلائد الشرف والمجد من أجل
ذلك . ولقى لامبو تمجيذا لا يقل عنه من أجل تنبؤه ، إذ لم يمض إلا زمن قليل حتى
سقط ثوكيديدس ، واجتمعت السلطة كلها في يد بركليس .

وفي رأى أنه يمكن التوفيق بين الفيلسوف والعراف ، وأن يكون كلاهما على
حق ؛ فأحدهما يكشف العلة والآخر الغاية . ومهمة الأول الاعتماد على الظاهر ، والنظر
كيف حدث ، ومهمة الثانى بيان لم نشأ وماذا يرمى إليه . . » (١) .

كان أنكساجوراس إذن مشغولا بالطب ، ويعرف التشريح ووظائف الأعضاء ،
ويؤيد ذلك ما جاء على لسان سقراط في محاوره « فيدون » من أن فلسفة
أنكساجوراس تستطيع تعليل السبب في جلوسه تلك الجلسة في السجن لأن جسمه
مصنوع من عظام وعضلات ، وأن العظام صلبة تفصل بينها أربطة ، والعضلات مرنة
تغطي العظام ، إلى آخر كلام سقراط الذى يرمى إلى معرفة فيلسوف العقل بالطب .
والواقع كان اشتغال فلاسفة إيطاليا بالطب ، وتفسير « ألقمابون » الصحة والمرض
بالامتزاج بين الكيفيات ، واعتماد الأطباء على النظر إلى العالم العضوى ، كل ذلك
جعل التفكير الطبى ينعكس على التفكير الفلسفى ، فاصطنع الفلاسفة وبوجه خاص
أنبادقليس وأنكساجوراس نظرية « الامتزاج » لتفسير كون الموجودات وفسادها ،
ووجدوا فى هذه النظرية حلا للمشكلة البارمنيدية . ولكن أنبادقليس يذهب إلى
القول بالعناصر الأربعة التى تمتزج بالحبة وتتباعده بالغلبة ، على حين يذهب

أنكساجوراس إلى أن أصل الأشياء « البذور » التي عنها تظهر الموجودات أو تختفي بالامتزاج والانفصال .

البذور :

[٩٥] فما هذه البذور ؟ وكيف تمتزح ؟ وكيف يفسر ظهور الموجودات ؟

البذور كما نجدتها في الاصطلاح اليوناني عند أنكساجوراس هي *Spermata* ^(١) كحبة القمح أو بذرة البرتقالة التي تصبح فيما بعد شجرة حين تنمو . فأصول الأشياء عنده مستمدة من النظر إلى الكائنات الحية التي تختص بالنمو والتغذي ، وتوجد جميع خصائص الموجود في البذرة ثم يضاف إليها ما يستمد من الخارج من غذاء . وهذا هو التفسير الذي ذهب إليه أيتيوس مثلاً ، لأن النصوص الباقية لدينا لا تكفي في بيان حقيقة مذهبه . قال أيتيوس :

« أنكساجوراس بن هيجسيبول Hégésiboule من كلازوميناى قال إن المتشابه الأجزاء [المتشابهات] Homeomerê مبادئ الموجودات ، ورأى أن الشيء لا يمكن أن يكون عن لا موجود ، أو أن يفسد إلى لا موجود . فنحن نتناول غذاء بسيطاً ومتجانساً في مظهره كالخبز أو الماء ، فيتغذى عن هذا الغذاء الشعر والشرابين والأوردة واللحم والأعصاب والعظام وسائر الأجزاء الأخرى . فلا بد لنا من التسليم بأن في الغذاء الذي نتناوله جميع الأشياء التي يمكن بناء على ذلك أن تزيد . فهذا الغذاء يحوى أجزاء مولدة من الدم والأعصاب والعظام وغير ذلك ، وهى أجزاء لا يمكن إدراكها إلا بالعقل ؛ إذ لا ينبغي رد كل شيء إلى الحواس التي تبين لنا أن الخبز والماء هى هذه العناصر ، أما بالعقل فنحن نتعرف أنها تحوى أجزاء . وحيث كانت هذه الأجزاء التي يشتمل الغذاء عليها شبيهة بالعناصر التي تتكون منها ، فقد سماها المتشابهات ، وهى مبادئ الأشياء ، فالمتشابهات الأجزاء كالهوى ، والعقل النظم للكون كالعلة الفاعلة » ^(٢)

(١) في الترجمة الإنجليزية seeds ، وفي الفرنسية semences .

(٢) عن كتاب تفصوح التفكير العلمى فى اليونان للأستاذ رى ، ص ٧٤ .

ولكن أَيْنِيُوس وسائر المؤرخين المتأخرين قالوا إنَّ المبادئ الأولى للموجودات هي « المتشابه الأجزاء » أو « المتشابهات » لا « البذور » . وهذا الاصطلاح الجديد Homeomerê من وضع أرسطو حين عَرَضَ مذهب أنكساجوراس ، كما رأينا عند الكلام عن أنبادقليس وأنه قال بالبذور ثم سُمي مذهبه فيما بعد بالأسطقات . غير أنَّ هناك فَرْقاً دقيقاً بين البذور والأجزاء المتشابهة ، لأنَّ البذرة — في النبات أو الحيوان — لو قسمت ما وجدت فيها لحماً وعظماً ودماً ، ولا تنشأ هذه « الأعضاء » إلا بعد النمو . فالنظرية ديناميكية تحمل معنى التطور ، أو على حسب فلسفة أرسطو ، في البذرة جميع أجزاء الشجرة « بالقوة » . أمّا وصف العناصر الأولى الأنكساجورية بأنها متشابهة الأجزاء فيختلف بعض الشيء عما ذهب إليه ، لأنَّ البذور ليست متشابهة الأجزاء ، ولا أجزاء البذرة الواحدة متشابهة تماماً ، وبخاصة إذا أخذنا التشابه من جهة الكم . والذي قاله ولا يزال ثابتاً في النصوص الباقية هو أنَّ « كل شيء يحتوي على جزء من كل شيء » .

فالصغير يحتوي على جزء من كل شيء ، وأنَّ « الأشياء المركبة تحتوي على أشياء من كل نوع » أي على الكيفيات المختلفة ، أو على الأضداد ، وبذلك يكون الجزء مساوياً لكل ، لاحتوائه على جميع العناصر .

وهكذا نرجع إلى مشكلة الأضداد وهل يمكن ردها إلى مادة أولى واحدة أو لا يمكن . وقد رأينا أن أنبادقليس يفترض وجود عناصر أربعة متضادة تجتمع بالحبة وتنفرد بالقلبة . وهرب بعض الفلاسفة من المشكلة ، مثل بارميندس ومدرسته قائلين بالواحد واستحالة الكثرة والتغير . ومن الفلاسفة مَنْ راح يلتمس أصغر أجزاء المادة ، فتكون إما متشابهة مثل ذرات ديمقريطس ، وإما أنها تحوي الأضداد ، وهذا هو رأي أنكساجوراس كما صوّره فريريوس وتبعه في ذلك سمبليقيوس . فقوله إنَّ كل

شيء يحتوى على جزء من كل شيء ، يريد بذلك الأضداد المختلفة أى الكيفيات المتضادة ، فالحرار يحتوى إلى حد ما على جزء من البارد ، بل الثلج أسود^(١).

ويبدو أن العرب نقلوا عن كتاب فريريوس ، فنحن نرى عند الشهرستانى إشارة إليه فى آخر الفصل الخاص بأنكساجوراس ، والذي يقول فى أوله :

« إن مبدأ الموجودات هو متشابه الأجزاء ، وهى أجزاء لطيفة لا يدركها الحس ، ولكن^(٢) ينالها العقل ، منها كون الكون كله العلوى منه والسفلى . لأن المركبات مسبوقة بالبسائط ، والمختلفات مسبوقة أيضا بالمتشابهات . أليست المركبات كلها إنما امتزجت وتركبت من العناصر ، وهى بسائط متشابهة الأجزاء »

فالعناصر الأولى عند أنكساجوراس هى هذه البذور التى تحوى جزءاً من كل شيء حتى الأضداد . وكانت - كما يقول فى ابتداء كتابه - جميع الأشياء معاً لانهاية لها فى العدد والصغر . ولما كانت جميع الأشياء معاً فلم يكن ممكن تميز أى شيء فيها لصغرها . وهذا يذكرنا بمادة أنكسمندريس اللانهائية ، ولكن أنكساجوراس يصفها بأنها لانهاية فى الصغر . ، أو على حد قوله: « كل شيء بالنسبة إلى نفسه كبير وصغير معاً » (٢)

فكيف يفسر الانفصال ؟ ذلك الانفصال الذى قال به أنكسمندريس ولم يوضحه ؟ ذلك الانفصال الذى فسره أنبادقليس بالغلبة ؟ .

العقل :

[٩٦] يقول أنكساجوراس بمبدأ جديد كل الجدة فى تاريخ الفلسفة اليونانية ،

(١) انظر برنت : فجر الفلسفة اليونانية ص ٢٦٣ - ٢٦٤ (٢) فى الأصل « ولا » وهو خطأ إذ لو أن العقل لا ينالها ، فكيف توصل أنكساجوراس إلى القول بها - الشهرستانى ، الملل والنحل ، ٢ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

وهو العقل Nous مما جعل سقراط يعجب به أشد الإعجاب ، فيقول في محاوره
« فيدون » :

« ثم استمعت ذات يوم إلى رجل قال إن عنده كتاب أنكساجوراس ، وطالع فيه
أن العقل هو المنظم والعلة لكل شيء فقرحت بهذه النظرية ، وبدأ لى من الصواب أن
يكون العقل علة جميع الأشياء ، وقلت لنفسي إذا كان الأمر كذلك فلا بد أن ينظم
العقل الأشياء على أفضل صورة ولكن جميع آمالي تبددت ، لأننى لم أكد
أمضى فى قراءة الكتاب حتى رأيت أن المؤلف لم يستفد من العقل أية فائدة ، ولم
يضع لنظام الأشياء أية علة . أما العلل التى ذكرها فهى الهواء والأثير والماء وأشياء
أخرى غريبة » (١)

وينتقده أرسطو على الأساس نفسه ، أى أن العقل لاوظيفة له ، أو على حد
قوله : « إله خارج الآلة deus ex machina وهذه هى جملة أقاويل أرسطو
نقلناها عن كتاب مابعد الطبيعة :

« أنكساجوراس من كلازوميناي كان أكبر سنا من أنبادقليس - ولكن يبدو
أن فلسفته لم تظهر إلا فيما بعد - يسلم بوجود مبادئ لانهاية ، فيقول إن جميع
الأشياء ، التى تتكون من أجزاء متشابهة كالماء أو النار ، لا تخضع للكون والفساد
إلا بطريقة واحدة هى اتحاد الأجزاء أو انفصالها ، فهى لا تتولد ولا تفسد بأى حال ،
بل توجد على الدوام » ١٩٨٤ ، ١٢ - ١٧

[وبعد أن استعرض أرسطو بعض مذاهب الطبيعيين عاد إلى أنكساجوراس فقال :]

« فليس من الصواب إرجاع مثل هذه الآثار العظيمة للاتفاق والحظ ، حتى إذا
جاء رجل [يريد أنكساجوراس] فقال بأن فى الطبيعة كما فى الحيوانات عقلا Nous
هو علة النظام والترتيب الشامل ، فقد بدا الوحيد الذى فكر تفكيراً معقولاً بالنسبة
لأقاويل السابقين الجذافية . ولا ريب فى أن أنكساجوراس - كما نعرف - قد-

اصطنع هذا الحل . ولكن يقال إن هرموتيموس الكلازوميني قد سبقه في ذلك » .
٩٨٤ ب ١٥ - ٢٠

« يستخدم أنكساجوراس العقل كأنه إله خارج الآلة لتفسير علة الكون في العالم . وحين يعجز عن بيان علة أية ظاهرة تقع بالضرورة ، يبرز « العقل » على المسرح ، ولكنه يلجأ في الأحوال الأخرى إلى مبادئ غير العقل يفسر بها علة الصيرورة »
٩٨٥ ، ١٧ - ٢٢

ولكن أرسطو الذى انتقد أنكساجوراس هذا الانتقاد جعل الله خارج العالم ، فكأنه تأثر بمذهبه دون أن يشعر . هذا إلى أن أرسطو في مقالة العقل من كتاب النفس يستعير معظم الصفات التى ذكرها أنكساجوراس عن العقل ، من أنه خالد أزلى ، نقي غير ممتزج ، قائم بذاته ، من جوهر مختلف عن جوهر الأشياء المادية ، وهو « الذى حرك الحركة الكلية فتحركت الأشياء الحركة الأولى » (١٢) ونحن نعلم أن الله عند أرسطو ، هو الحرك الأول ، حركه الحركة الأولى كملة غائية ، ولكنه لا يعنى بالعالم ، ولا يتصل به . فالفرق بين العقل عند أنكساجوراس وبين العقل عند أرسطو ، أن الأول يجعله علة فاعلة ، والثانى علة غائية .

وأنكساجوراس ، مثل أرسطو ، ثنائى ، يقول بمبدأين مميزين هما المادة والعقل . أما المادة فهى البذور الأولى التى كانت معاً لانهاية لها فى العدد أو الصغر ، وأهم صفاتها أنها تمتزج وتنفصل حتى تتكون الأشياء الظاهرة لنا . أما العقل فليس ممتزجا بأى شئ ، وإلا كان فيه جزء من كل شئ كغيره من الأشياء المادية . ولما كان العقل غير ممتزج فهو نقي ، أى خالص عن المادة .

والعقل هو الذى حرك العالم ، وأدت سرعة حركتها إلى الانفصال ، فنشأ أولا المتخلخل والحار واليابس فى كتلة الأثير أى النار ، ثم بقيت الكيفيات المتضادة وهى الكثيف والرطب والبارد والظلام فى المركز حيث توجد الارض الآن . (٩)

والمرحلة الثانية في خلق العالم هي الانفصال عن الهواء فحدث السحب والماء والأرض والحجارة . وقد كانت له تفسيرات شديدة الاقتراب من النزعة العلمية ، فهو يفسر وجود الأنهار باجتماع ماء المطر ، ويعلل فيضان النيل صيفا بذوبان ماء الثلوج في إثيوبيا . وقد ذكرنا من قبل رأيه في الشمس والقمر حجارة . ويذهب إلى أن خسوف القمر راجع إلى توسطه بين الأرض والشمس ، وفي القمر جبال وسهول وأنهار وأنه مسكون بالحياة .

ونشأت الحياة من سقوط « البذور » من السماء إلى الأرض ، ثم توالدت البذور بعد ذلك ، فظهرت الكائنات الحية المعروفة . وفي النبات إحساس ويشعر بالذلة والألم ، وفيه عقل هو سر حركته ونموه . وجميع الكائنات الحية تتنفس حتى الحيوانات المائية . واكتسب الإنسان الذكاء لأن له يدين ، ولكن أرسطو يعترض على هذه النظرية قائلا : إن الأمر على العكس ، فاليد في الإنسان آلة يستعملها بعقله .

ونظرية أنكساجوراس في الإدراك الحسى عكس نظرية أنبادقليس ، فالإحساس نتيجة تقابل الأضداد ، وهو يفسر البصر بأنه انعكاس صورة الشيء المحسوس في العين بشرط أن يكون لون المحسوس مخالفاً للون العين . وكذلك الأمر في الذوق واللمس ، فنحن نعرف الحار والبارد والحلو والمر لا بما يشبهها بل بأضدادها .

ويبدو أنه وحّد بين النفس والحياة ، وجعل النفس علة الحركة في الكائن الحى ، كما أن العقل علة الحركة في « الكل » . وتنتهى النفس عند انتهاء الحياة . ولكن النفس والعقل من الاصطلاحات الغامضة التي لا يسهل التمييز بينهما . ذلك أنه في عبارات أخرى يقول إن في جميع الكائنات الحية ، حتى النباتات ، نصيباً من

العقل . والفرق بين الإنسان والحيوان ، أن الحيوانات تمتاز بالقوة والسرعة ، أما الإنسان فيمتاز بالتجربة والذاكرة والحكمة والمهارة .

أهميته :

[٩٧] ويعزو الأستاذ رى لأنكساجوراس أموراً ثلاثة تبرز أهميته في تاريخ

العلم ، وهى : تقارب الشبيه من الشبيه ، وفكرة اللانهاى ، وبقاء المادة .

أما تقارب الشبيه من الشبيه فهو مبدأ يقع في صميم مذهبه ، ويرجع إلى المدارس الطبية التى أخذ منها . فالعقل وهو علة الحركة الأولى ، وعلة الانفصال كما تبين من قبل ، يضاف إليه مبدأ آخر ، هو تقارب الشبيه من الشبيه ، مما يسمح للبذرة أن تجتذب العناصر الملائمة لها ، وهل يتكون الشعر من اللاشعر أو اللحم من اللا لحم ؟

وقد وضع أنكسا جوراس فكرة اللامتناهى تلك الفكرة التى بدأت غامضة عند أنكسمندريس ، ونقضها الفيثاغوريون وقالوا بالمحدود ، وعارضها الإيليون وبخاصة زينون ومليسوس وبينوا أن الوجود لا يمتناه من جهة الكم والكيف ، مما جعل أرسطو يوجه نقده للميسوس بوجه خاص على أساس أن اللاوجود اللامتناهى ناقص وقوة فقط .

أما أنكسا جوراس فينظر إلى اللامتناهى نظرة علمية واقعية ، لا من جهة عدم التناهى في العظم أو العدد فقط ، بل من جهة الشيء الذى لا ينقسم ، أى المتناهى في الصغر ، « والمتصل » اللامتناهى ، المتصل الواقعى كما يدرك بالعقل . ونظرية بقاء المادة ، أو المادة لا تنفى كما نقول في العلم الحديث ، هى التى صاغها أنكسا جوراس بقوله : إن شيئاً لا يتبدد أو يخلق ، وهى أيضاً نظرية الإيليون

في ثبات الموجود . ولكنه لا يقف عند الموجود الثابت ، بل يحل المشكلة بالامتزاج والانفصال ، وفي ذلك يقول في الفقرة (١٧) « يخطئ الهلينيون في قولهم: إن الأشياء تظهر إلى الوجود ثم تختفي . فلا شيء يظهر إلى الوجود أو يختفي عن الوجود ، بل هناك انفصال أو امتزاج لما هو موجود » .

ولكن ضعف الحواس ، وهي آلات المعرفة عندنا ، يجعلنا في عجز عن معرفة الحقيقة . (٢١) . والمظاهر سبيل إلى معرفة الباطن ورؤية المجهول (١٢١) ؛ وبذلك كان أنكساجوراس أمينا على الروح العلمية التي تبدأ من النظر إلى الحسوسات .

النظرية الذرية قديماً وحديثاً :

[٩٨] كان لهذه المدرسة شأن في القديم ، ولكن مذهب أنبادقليس في العناصر الأربعة هو الذى ساد حتى القرن التاسع عشر ، فانزوى مذهب الذرة ولم يحظ بما كان يُرجى له من انتشار . حقا اصطنع أبيقور المذهب الذرى ، وسرى في العصر الوسيط إلى الفلسفة الإسلامية ، وأخذ به بعض المتكلمين وسموا الذرة الجزء الذى لا يتجزأ ، واشتهرت عندهم بنظرية «الجزء» وهم يريدون الذى لا يتجزأ ، وقالوا أيضاً: «الجوهر الفرد» . ولكن نظرية العناصر الأربعة كانت على الرغم من ذلك هى النظرية السائدة ، حتى تجددت النظرية الذرية في القرن التاسع عشر^(١) ، وذهب العلماء والفلاسفة إلى أن المادة لا تتركب من عناصر - وقد أصبح عددها بضعة وتسعين - بل إن كل عنصر من هذه العناصر ليس بسيطاً لا ينحل إلى أبسط منه ، وإنما يمكن أن يتجزأ إلى جزئيات صغيرة مركبة ، وتصوروا أن ذرة كل عنصر تتركب من نواة سموها بروتون ، ومن كهارب تدور حولها سموها إلكترون . وفي السنوات الأخيرة أثبت التجارب صحة هذه النظرية فانفلقت الذرة، ولم تصبح كما كان القدماء يتصورون الجزء الذى لا يتجزأ ، إذ انطلقت من عقالها ، بل إن منها ما ينطلق من تلقاء نفسه

(١) صاحب النظرية الذرية الحديثة هو دالتون ، ونظريته تختلف بطبيعة الحال كل الاختلاف عن نظرية ديمقريطس نتيجة تقدم العلم ، ولا ينبغي الخلط بينهما ، أو تصور أن ذرة القرن العشرين تشبه ذرة القدماء .

مثل الراديوم واليورانيوم ، حيث تنبعث منها ثلاثة أنواع من الأشعة ، هي ألفا وبيتا وجما ، على حسب تسمية العلماء لها ^(١) . وبذلك تغيرت بل تطورت فكرة العلماء والفلاسفة عن المادة .

وهكذا أصبحت أحلام الفلاسفة التي تصوروها في القرن الخامس قبل الميلاد حقيقة واقعة في القرن العشرين ، وأثبتت الفلسفة أنها هي التي تشق الطريق أمام العلم وتقوده في مباحثه .

ويقترن اسم الذرة بشخصين ، هما لوقيوس وديمقريطس ، نبدأ بالحديث عن أولهما .

حياة لوقيوس :

[٩٩] والأقوال متضاربة في حياة لوقيوس وموطنه . فبعض المؤرخين القدماء يزعم أنه من أبديرا ، والبعض الآخر من إيليا ، والبعض الثالث من ميلوس أو من ملطية . وقيل إنه أخذ العلم عن زينون الإيلي ، أو عن مليسوس . ويذكره أرسطو مع ديمقريطس تارة ، أو وحده تارة أخرى .

ولما كان أرسطو أقدم مؤرخ يوثق في روايته ، فلنا أن نقبل رأيه في أن لوقيوس هو مؤسس المذهب الذري ، وأن ديمقريطس كان تلميذه أو صاحبه الذي أخذ عنه هذا المذهب وأذاعه ، على الرغم من أن أبيقور - فيما يقال - أنكر وجود لوقيوس . هذا إلى أن أرسطو من مدينة استاجيرا التي لا تبعد كثيرا عن أبديرا ، فهو أكثر الناس علما بأهل وطنه .

(١) يحسن بالقارئ الاطلاع على كتاب علمي حديث يبحث في الذرة لأنها أصبحت جزءاً من حياتنا ، ومن أحسن الكتب المبسطة في اللغة العربية هو كتاب الذرة والقنابل الذرية للدكتور علي مصطفى مشرفة الذي كان مشغولاً بالفعل بأبحاثها .

ولسنا نعرف مولده ، ولعله زها عام ٤٣٠ ق . م . ونحن نعلم من تمثيلية السحب لأرستوفان أنه صور سقراط جالسا في سلة معلقا في الهواء حتى يمتزج عقله بذلك العنصر . وهذا المذهب الطبيعي سخرية من ديوجينيس الأبولوني ، الذي أخذ فلسفته عن أنكساجوراس وعن لوقيبوس . ولما كانت تمثيلية السحب قد لُعبت عام ٤٣٠ ق . م ، فلا بد أن لوقيبوس كان معروفاً قبل ذلك ، وأن كتابه نظام العالم الكبير Megas Diakosmos كان معروفاً أيضا ، ولو أن ذلك الكتاب يُعزى إلى ديمقريطس ، أو إلى مدرسة أبديراكها . وهو أكبر سنمان ديمقريطس بما يقرب من ثلاثين عاماً ، ويحددون مولده بعام ٥٠٠ ق . م ، ويجعلونه معاصراً لأنكساجوراس .

أقوال القدماء عنه :

[١٠٠] وهذا نص كلام ثاوفراسطس عنه :

« لوقيبوس من إيليا أو ملطية كان قد اتصل بفلسفة بارمنيدس . ومع ذلك فإنه لم يتبع في تفسيره للأشياء الطريق عينه الذي اتبعه بارمنيدس وزينوفان ، بل فيما يبدو ذهب إلى العكس . ذلك أن بارمنيدس وزينوفان قالوا بأن الكل واحد لا متحرك غير مخلوق ومتناه ، ولم يسمحا لأي واحد بالبحث فيما ليس بموجود . أما هو فقد قال بعناصر لا عدد لها دائمة الحركة سماها الذرات . وزعم أن عدد أشكالها لا نهائية إذ لا يوجد سبب يجعلها من هذا الشكل أو من ذاك ، وأيضا لأنه رأى الأشياء في صيرورة وتغير دائمين . وقال كذلك إن الوجود لا يقل في حقيقته عن الالموجود ، وأن الوجود والالموجود علتان متكافئتان لتولده الأشياء ، ذلك أنه زعم أن جوهر الذرات ملاء وسماها الموجود ، وهي تتحرك في الخلاء الذي سماه الالموجود ، ولكنه ذهب إلى أن الخلاء الالموجود حقيقى كالموجود سواء بسواء . »

الجمع بين الإيلية والفيثاغورية :

[١٠١] ونحن نرى لأول مرة في تاريخ الفلسفة اليونانية فكرة « الخلاء » وأنه موجود ، إذ أنّ الفلسفة الإيلية بوجه خاص لم تكن تتصور إلا الموجود ، وأنكرت بشدة أن يكون اللاموجود موجوداً ، أو حتى أن يلفظ به . والواحد البارمنيدي لم يكن إلا كره ، والوجود عندهم في رأى كثير من المفسرين مادي . ولم تكن فكرة « اللاموجود » أو « العدم » مجرد لفظة لا معنى لها ، بل هى محاولة لفهم هذه الموجودات التى تظهر ثم تختفى . وقد حلّ أرسطو هذه المشكلة فيما بعد بقوله : إنّ مبادئ الوجود ثلاثة : الهوى ، والصورة ، والعدم . يريد بذلك أن الهوى حامل للصورة ، التى تتقلب عليها ، وكلما كانت الصورة متلبسة بالهوى كان الوجود موجودا في الواقع ، فإذا انتقلت الصورة كان ما سبقها عدم ، وما سوف تقلبسه إمكان .

أما لوقيبوس فإنه يحل المشكلة حلا ماديا لاميتافيزيقيا ، فيذهب إلى أن الذرات هى الملاء ، وهى الوجود ، وأن الخلاء هو اللاموجود . والذرات مادية بكل ما فى المادة المحسوسة من معنى مجسم رياضى له طول وعرض . ومن أجل ذلك كانت لنظرية لوقيبوس صلة بالمذهب الفيثاغورى الرياضى ، ولا غرابة أن يجمع أرسطو بين المذهبين فيقول فى كتاب السماء [٣ ، ٤ ، ٣٠٣] « جمل لوقيبوس وديمقريطس وكذلك الفيثاغوريون من جميع الأشياء أعدادا ، وأن الأشياء تنشأ من الأعداد » .

فالقول بالذرة جاء نتيجة التأثر بالفلسفة الإيلية من جهة ، وبالفلسفة الفيثاغورية من جهة أخرى . وقد خيل إلى ثاوفراسطس أن لوقيبوس قد ابتعد عن بارمنيدس

كل البعد ، وتبعه في هذا التفسير جومبرز أيضا ، ولكن قليلا من النظر إلى فلسفته يبين وجود هذه الصلة التي أحسن أرسطو بيانها في كتابه الكون والفساد ، حيث يقول ؛ (١ ، ٨ ، ٢٢٤ ب وما بعدها) :

« سلك لوقيوس وديمقريطس في البحث عن جميع الأشياء نفس الطريقة [طريقة أنبادقليس] ^(١) واصطنعنا نفس النظرية ، مبتدئين بما يأتي أولا بالطبع . وقد ذهب بعض القدماء [الإيليون] إلى أن الوجود الحقيقي The real يجب بالضرورة أن يكون واحداً ولا متحركا ، إذ قالوا إن الحلاء غير موجود ، ولا يمكن أن توجد حركة إذا لم يكن الحلاء منفصلا عن المادة . وكذلك لا يمكن أن يكون الوجود كثيرا ، إذ ليس هناك ما يفصل بين الأشياء . ولا فرق بين قول من يقول إن الكل ليس متصلا ، بل منفصلا وأجزاءه متماسة [الفيشاغوريون] بدلا من القول بأن الوجود كثير وليس واحدا ، وأن الحلاء موجود . إذ لو كان منقسما عند كل نقطة فلا يوجد واحد ، ومن ثم لا يوجد كثير ، وكان الكل خلاء [زينون] . وإذا سلطنا باقسامه عند نقطة دون الأخرى فهذا تعسف ومجازفة ؛ إذ لم كان هذا الجزء من الكل متصلا إلى هذه النقطة فقط وكان ملاء ، ولأى سبب ، على حين يكون الباقي منفصلا ؟ وهم يستندون إلى هذه الحجج نفسها في نفي الحركة . ويقولون نتيجة هذه الأدلة ، مغفلين أمر الحواس بحجة وجوب اتباع دليل العقل ، إن الكل واحد وغير متحرك [بارمنيدس] . ويقول بعضهم إن الكل لامتناه [مليسوس] لأن أى حد فهو محدود بالحلاء . فهذا هو رأيهم الذي عبروا به عن الحق ، وتلك هي الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك . ويشبه أن يكون الأمر كذلك إذا كانت هذه الأدلة العقلية صحيحة ، أما إذا رجعنا إلى الواقع فلاستمسالك بمثل هذا الرأي يبدو ضرباً من الحماقة . ولا يوجد مجنون قد فقد حواسه إلى الحد الذي يجعله يزعم أن النار والثلج يظهران له شيئاً واحداً . الجنون هو الذي يجعل بعض الناس لا يرون فرقا بين الأشياء الحقيقية وبين الأشياء التي تبدو حقيقية نتيجة العادة .

(١) ما بين أقواس إضافة من رى لتفسير النص . والفرجة عن برنت وعن رى — وانظر ترجمة

أحمد لطفي السيد في كتاب الكون والفساد ص ١٧٦ ، ١٧٨ .

أما لوقيوس فقد ظن أن نظريته موافقة للحواس دون أن يطل كون الأشياء أو فسادها ، أو حركتها ، أو كثرتها . وبذلك سلم بالتجربة [المدرسة الأيونية] كما سلم من جهة أخرى لأولئك الذين قالوا بالواحد أن الحركة مستحيلة بغير الخلاء ؛ وأن ليس للخلاء وجود مادي ، وأنه لا شيء مما هو موجود ليس موجودا . ذلك أنه كان يقول : « إن الموجود بمعنى الكلمة [الموجود المادي] ملاء ^(١) Plenum مطلق ؛ ولكن الملاء ليس واحدا ، على العكس يوجد من الملاء عدد لا نهاية له ، غير أنه لا يمكن رؤيتها نظراً لصغر جرمها . وهي تتحرك في الخلاء [لأن الخلاء موجود] ، فإذا اتصل بعضها ببعض حدث عن ذلك الكون [ظهور الأشياء إلى الوجود] ، وإذا انفصل بعضها عن بعض حدث الفساد [أي اختفاء الأشياء عن الوجود] » .

ويصف أرسطو مذهب الذريين في كتاب السماء ٣ . ٣١٤ - ١٠ ، فيقول :

« وهناك أيضا رأي آخر - هو رأي لوقيوس وديمقريطس من أديرا - لا يمكن التسليم بنتائج . فعندهما أن الأجسام الأولى ذات عدد لا نهاية له ، وجرم لا ينقسم ، فلا يكون الواحد كثيرا ، ولا الكثير واحدا . وتتولد سائر الأشياء من تجمعها وحركتها . ولكن هذا الرأي يشبه أن يجعل الأشياء الموجودة في الخارج أعداداً أو مركبة من أعداد » .

وقد نقلنا هذه النصوص الطويلة عن ثاوفراسطس وأرسطو حتى نتبين حقيقة مذهب لوقيوس ، والأصول التي أخذ عنها هذا المذهب ؛ ذلك أن وجهة نظر المؤرخين للفلسفة مختلفة ، ويتلقف بعضهم عبارة ثاوفراسطس دون تعمق فيرى أن لوقيوس وديمقريطس أخذوا عن بارمنيدس أو انحرفا عن مذهبه ، ويزعم البعض أن لوقيوس : « حاول أن يتوسط بين المذهب الواحدى ومذهب الكثرة ، كما يمثلها بارمنيدس وأنبادقليس » ^(٢) .

(١) الملاء باليونانية Stereon ، والخلاء Kenon

(٢) برتراند رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، ص ٦٥ .

ولما كان أرسطو أقرب مؤرخ لهما فقد حلل مذهبهما تحليلًا دقيقًا ، وبيّن اتصاله بفلسفة المدرسة الإيلية من جهة ، والمدرسة الفيثاغورية من جهة أخرى ، وقد صرح بهذه الصلة في « كتاب السماء » حيث يقول: إن الذرات أعداد أو مركبة من أعداد . كان الفيثاغوريون يقولون بأن الأشياء أعداد ، أو أشكال ، وأن هذه الأشكال تشغل سطحًا يسمونه « خورا Chêra » كما ذكرنا من قبل ^(١) ، فالأشكال الرياضية كالعدد المثلث أو المربع تقطع بمحدودها هذا السطح ، فجاء لوقيبوس واعتمد على هذا التفسير ، وجعل الذرات أشكالًا ولكنها مادية طبيعية لا رياضية ، وجعل السطح الذي تشغله هو « الخلاء » . وهكذا يمكن أن نفهم كيف ذهب أرسطو إلى القول بأن الذرات أعداد .

ومن وجه آخر احتفظ لوقيبوس ببعض صفات الواحد البارمنيدي ، من حيث إنه أزلّ لا يتغير ، وإن الموجود ملاء . فالذرة هي الواحد البارمنيدي ، ولكن يوجد منها عدد لا نهائي ، ولا يمكن أن تنقسم الذرة كما ذهب إلى ذلك زينون في إبطال الكثرة . ولكن لوقيبوس ينتقد الإيليين انتقادًا مرًا في إنكارهم شهادة الحواس ، ويقول : إن المجنون وحده هو الذي يزعم أن النار والثلج شيء واحد .

الخلاء والملاء :

[١٠١] وكان سائر القدماء ينكرون الخلاء ، وبخاصة المدرسة الإيلية التي نفت الحركة على أساس إنكار الخلاء . أما الفيثاغوريون فكانوا يقولون بضرب من الملاء يفصل بين الأعداد أو الوحدات ، والملاء أو السطح عندهم هو الهواء ، وجاء

(١) انظر ص ٨٤ من هذا الكتاب .

أنبادقليس فأثبت أن الهواء جرم مادي ، فلا خلاء بناء على ذلك . أما لوقيبوس
فإن الخلاء عنده موجود ، على عكس الإيليين الذين ذهبوا إلى أنه غير موجود ، لأن
اللاموجود غير موجود ، فكان لوقيبوس بذلك أول من أعلن وجود الخلاء في
تاريخ العلم والفلسفة .

ولست مشكلة الخلاء يسيرة إذ شغلت بال الفلاسفة والعلماء من قديم الزمان
حتى اليوم . وتتصل هذه المشكلة بوجود المادة في الفضاء أو في المكان ، وهل
يكون خلاء أم ملاء ؟ وإن كان ملاء فما هي هذه المادة التي تملؤه ؟ وقد وحد أرسطو
بين المكان والخلاء ، وذهب إلى أن المكان هو حدود « الحاوي » الداخلية ،
وحدود « المحوى » الخارجية . والمكان المطلق هو ما يقبل الأجسام . وهذا هو
رأي نيوتن لأنه يسم بوجود المكان المطلق . وأكّد ديكارت وجود المكان ،
لأن حقيقة المادة هي الامتداد . وكذلك يسم لينتز بالملاء ، ولكن المكان عندهم
علاقات بين الأجسام . وفي القرن العشرين يعتقد العلماء بأن المكان ملاء ، نفى أن
المكان إذا كان خاليا من المادة فهناك مع ذلك « شيء ما » هو على أقل تقدير
أمواج الضوء . فإذا عرفت أن الذرة الحديثة تنحل إلى أمواج وإلى أشعة ، فلا غرابة
أن يكون العالم ملاء طبقا لنظريات العلم الحديثة .

ولنرجع إلى لوقيبوس فنقول إنه ذهب إلى أن العالم يتكون من مبدئين هما
الملاء والخلاء ، وهما يوازيان الوجود واللاوجود عند بارمنيديس ، غير أن بارمنيديس
أنكر وجود اللاوجود كما أنكر الحركة والكثرة ، أما لوقيبوس فقد سلم بوجود
هذا اللاموجود أي الخلاء حتى يفسر وجود الكثرة والحركة . فالعالم يتكون من
ذرات لانهاية لها في العدد ، وهي تملؤ الخلاء .

صفات الذرة :

[١٠٢] والذرة عند لوقيبوس تتصف بصفات ثلاث أساسية هي : الشكل ، والوضع ، والترتيب ، وهي جميعا متشابهة من حيث مادتها وعدم قبولها القسمة ، لأنها صغيرة جدا .

والقول بأن الذرات تختلف في الشكل يؤكد صلة المذهب بالفيثاغوريين ، حتى إن ديمقريطس يسمي ذراته أشكالا في كتابه Peri Ideon ، ونحن نعلم أن لفظة « إيدوس » كانت تدل عند فيثاغورس على الشكل الرياضى للجسم ، وقد اصطنعها أفلاطون للدلالة على « المثال » ، وأرسطو على « الصورة » ، وهما نحن نرى ديمقريطس يعبر بها عن الذرة . ولكن لوقيبوس كان يستخدم عدة اصطلاحات للتعبير بها عن الذرة وأحوالها المختلفة ، فهي تختلف بالشكل [schêma] rysmos وكذلك بالترتيب [taxis] diathigê ، والوضع [thesis] tropê^(١) ، ويضرب مثلا بالحروف الأبجدية لبيان هذه الاختلافات ، فالحرفان N و A يختلفان بالشكل والشكلان AN و NA يختلفان بالترتيب ، والحرفان Z و N أو H و 𐤀 يختلفان بالوضع . ويبدو أن هذا التفسير لم يكن على سبيل التشبيه بل على سبيل الحقيقة ، فهذا أرسطو يذكر في كتاب الكون والفساد عند الكلام على مذهب الذريين أن « التراجيديا والكوميديا كلاهما يتألف من الحروف نفسها »^(٢) يريد أن حروف الأبجدية واحدة ولكن اختلاف ترتيبها هو الذى يؤدي إلى اختلاف المعانى من النقيض إلى النقيض ، كما تختلف المأساة عن الملهاة . وقد استعار أنبادقليس ، أو الذين جاءوا بعده ، لفظ الأسطقسات أى الحروف للدلالة على الأصول الأولى للأشياء .

(١) هذه الاصطلاحات اليونانية من لغة لوقيبوس ، أما الاصطلاحات التى بين أقواس فهي من لغة أرسطو .
(٢) ٣١٥ ، ١٥٠ .

ومن الواضح أن اجتماع الذرات على ترتيب معين راجع إلى حركتها ، هذه الحركة التي تحدث اتفاقا في جميع الجهات دون تدبير أو غاية . ويؤدي اجتماع الذرات وانفصالها إلى الكون والفساد ، ولا يخضع الكون لأي علة عاقلة . ولما كان الأمر كذلك فالحقيقة في الظاهر فقط ، وليست هناك حقيقة وراء هذا الظاهر ، وكل ما في الأمر هو ترتيب الذرات على نحو معين في الفضاء .

ويذهب أرسطو في كتاب النفس ^(١) إلى أن أصحاب الذرة توصلوا إلى القول بها من النظر إلى الهباء أو الغبار المنبث في الهواء ، والذي يبدو في أشعة الشمس النافذة من خلال النوافذ ، ولا يظهر هذا الغبار بدون الأشعة . وكذلك يحدث الشم نتيجة انبعاث جسيمات صغيرة جدا يحملها الهواء من الأشياء إلى الأنف .

ويصور لوقيبوس نشأة العالم على هذا النحو : في البدء كان الخلاء العظيم Méga kenon لا ذرات فيه ، وكتلة كبيرة من الذرات ، ثم اندفعت الذرات إلى الخلاء فتجمعت اتفاقا وحدث عن اجتماعها أكوان لانهاية لها ، وتنطابر الذرات اللطيفة إلى الخارج ، وتظل الكبيرة في الداخل وهي التي تكون الأرض .

والنفس ذات ذرات كروية الشكل يمسكها التنفس لأن الهواء الذي يحيطنا مملوء بالذات النفسية ، وجميع الظواهر النفسية تفسر تفسيراً مادياً ، فالإدراك الحسي يرجع إلى صدور انبعاثات من الحسوسات تتلقاها العين وتنطبع بها . ويرجع النوم إلى خروج بعض ذرات النفس بعض الوقت بعيدا عن البدن ، فإذا فاقت هذه الذرات الحد ، ولم يحل محلها ما ينفذ إلى الجسم مع التنفس ، وقع الموت .

(١) ١٤٠٤ ، ٢ - ٥ - انظر ترجمة كتاب النفس ص ٩ ، حيث ينسب أرسطو المذهب لدعقريطس ثم يقول إنه موجود عند لوقيبوس أيضا .

٢ - ديمقريطس^(١) Demokritos

حياته :

[١٠٣] إذا كانت حياة لوقيبوس مجهولة إلى حد كبير فإن سيرة ديمقريطس على العكس من ذلك بلغت من الشهرة إلى الحد الذي جعل المتأخرين ينسجون حوله الأساطير . وقد نشأ في مدينة أبديرا من أعمال تراقيا . وكانت تلك المدينة مزدهرة في الزمن القديم ، وهي مهد الفلسفة الذرية ، وفيها نشأ بروتاجوراس السفسطائي . وقد وقعت المدينة في يد إجزرسيس ملك الفرس ، ومكث بها بعض الوقت في تفهقه عام ٤٨٠ ق . م ، كما يروى هيرودوت في تاريخه . ولا ريب في أن المدينة احتفظت بعلاقات مع الشرق ، واتصلت بالثقافة البابلية والفارسية . ويقال إن ديمقريطس تلقى العلم في صباه على يد مجوس الفرس الذين كانوا بصحبة ملكهم . ومن أجل ذلك ظهرت بعض المباحث تذهب إلى أن أصول النظرية الذرية شرقي مستمد من الهند عن طريق الفرس ، وذلك عن الفلسفة المسماة « نيايا » و « وايشيشيكا » ، إلا أن ظهور هذه الفلسفات كان بعد المسيح لا قبله ؛ ويقال إن الفلسفة الإسلامية تأثرت بهما كما تأثرت بالمذهب اليوناني . ويروى بوزيدونيوس الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد أن المذهب الذري جاء إلى اليونان من الهند عن طريق أحد الفينيقيين اسمه موخوس Mochos^(٢) .

(١) يسميه العرب ذومقراطيس كما رسمه الففطى ، أو ذومقراط في كتاب النفس لأرسطو وهو مخطوط ، أو ديمقراطيس عند الشهرستاني .

(٢) انظر كتاب سارتون تاريخ العلم ص ٢٥٥ ، وكتاب مذهب الذرة عند المسلمين تأليف بينيس وترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة .

زها ديمقريطس عام ٤٢٠ ق . م ، وقيل إنه ولد عام ٤٦٠ ، أو ٤٧٠ ، أو ٥٠٠ .
ويختلفون في عام وفاته كذلك اختلافاً كبيراً . ويقول أبوللودورس إنه كان
أكبر من سقراط بقليل [ولد حول ٤١٨] وأصغر من أنكساجوراس بما يقرب
من أربعين عاما .

ويقال إنه رحل إلى بابل حيث تعلم من مجوسها ، وإلى الهند فأخذ عن حكمائها ،
وإلى مصر فاتصل بكنهتها . ويروى أنه زار أثينا ولكنه لم يظهر في المحافل ،
إذ يروى ديمتريوس [من ما جنسيا ، عاش في القرن الأول قبل الميلاد ، وهو معاصر
لشيشرون] عبارة على لسان ديمقريطس يقول فيها : « وفدتُ إلى أثينا ولم يعرفني
فيها أحد » ، ويعلم ديمتريوس ذلك بأنه كان يكره الشهرة . ومن الغريب أن
أفلاطون لا يذكره قط في محاوراته ، ولسنا ندري السبب في ذلك ، لأن ديمقريطس
لم يكن مجهولا بل كان معاصرا لسقراط ، وقد روى أرسطو مذهبه في أكثر
من موضع من كتبه ، وكذلك ثاوفراسطس ، وأبقراط ، وسائر الرواة
المتأخرين .

ولما عاد إلى موطنه ظل يعلم ويؤلف الكتب مؤثرا الابتعاد عن الحياة العامة .
وعاش ساخرا من الناس وتعلقهم بشهوات الدنيا ، وسمى من أجل ذلك « الضاحك » ،
على عكس هرقليطس الذي اشتهر بالغماض .

وقد خلف ديمقريطس كتباً كثيرة ، رتبها الإسكندرايون في رباعيات ،
أى في رسائل من أربعة كتب tetralogies ، بحسب الموضوع الذي تبحثه ، وهى
في الأخلاق ، والعلم الطبيعي ، والرياضة ، والموسيقى ، والفن ، والعلل . وأشهر كتبه
« نظام العالم الصغير » Mikros Diakosmos أما نظام العالم الكبير Megalos Diakosmos
فالأرجح أنه من تأليف لوقيوس كما ذكرنا .

مذهبه :

[١٠٤] يشبه مذهب ديمقر يطس مذهب أستاذه ولكنه أكثر تفصيلا . لجميع الأشياء يمكن أن تفسر باجتماع الذرات في الفضاء .

والذرات هي الجواهر والملاء والوجود ، والفضاء هو الخلاء واللاشيء واللامحدود . والذرات كثيرة كثيرة لا نهاية لعددها ، وهي من الصغر بحيث لا يمكن إدراكها بالحواس ، ولكنها على الرغم من صغرها فإنها تختلف في الشكل والحجم ، كما تختلف في الوضع والترتيب ، كما ذكرنا عن لوقيوس من قبل .

وهي تختلف في الشكل إلى الدرجة التي لا توجد ذرة تشبه ذرة أخرى ، فمنها الأملس والخشن ، والمستدير والمنحني والمدب وهكذا . ولا تقبل الذرة الانفعال ، فلا تصبح حارة أو باردة ، رطبة أو يابسة ، سوداء أو بيضاء ، إلى آخر هذه المظاهر التي نشاهدها بالحواس . وهو يسميها الشيء den ، أو الصلب naston ، أو الموجود on ، أو الشكل idea .

وكانت الذرات منذ الأزل منتشرة في الخلاء ، على العكس من لوقيوس الذي فصل بين الذرات والخلاء في البدء ، ثم تدافعت الذرات إلى الخلاء .

والحركة صفة ذاتية للذرات ، وبمقتضاها تتجمع فتختلف في الوضع والترتيب ، أو المظهر والتماس . والحركة في الذرات أزلية ، وليس لها علة ، ولذلك كان المذهب ميكانيكيا آليا ، يخلو من القول بالتدبير مثل سقراط ، أو الغائية مثل أرسطو .

ونذهب بعض المؤرخين إلى أن أرسطو أضاف الثقل إلى ذرة ديمقر يطس لتفسير الحركة ، وهذا غير صحيح لأن عبارة أرسطو لا تفيد ذلك ، بل على العكس تدل

على أن ديمقريطس نفى الثقل عن الذرات ، فانتقده أرسطو من أجل ذلك .
وجاء سياق الكلام في كتاب الكون والفساد من أن أصحاب الذرة نفوا عنها
الكيفيات كالصلابة والبرودة مثلا . ولكن ديمقريطس يقع في التناقض حين
يستثنى « الحار » الذى يضيفه إلى الذرات الكروية الشكل ، إذ لو كان الأمر
كذلك لوجب أن يضيف الكيف المضاد ، وهو البارد ، إلى ذرة من شكل آخر .
وهنا يقول أرسطو ^(١) :

« فإذا كان الحار والبارد من الصفات التى تضاف إلى ما لا يتجزأ (أى الذرات) فمن
التناقض كذلك ألا يكون لها صفات الثقل والخفة ، والصلابة والليونة . وأيضا فإن
ديمقريطس يقول : كلما كانت الذرة أكبر كانت أثقل ^(٢) » .

وتدل مناقشة أرسطو على محاولة فهم الحركة إذا لم يكن للذرة ثقل ، ويتبين
من كلامه أن ديمقريطس لم يقل بالثقل ، أما نص العبارة التى نقلناها عنه وهى أن
« الذرة كلما كانت أكبر كانت أثقل » فلها تفسير آخر نذكره فيما بعد حين نتحدث
عن « تصادم » الذرات .

ولكى يوضح برنت هذه المشكلة اضطر إلى استعراض تاريخ فكرة الثقل
في الفلسفة اليونانية ، وقد ترجم الأستاذ رى هذه الصفحات الثلاث على طولها في
كتابه « نضوح العلم اليونانى » . وخلاصة هذا التاريخ أن اليونانيين الأوائل تصوروا

(١) انظر برنت : فجر الفلسفة اليونانية ص ٣٤٢ حيث يقول : « يقول أرسطو بوضوح : إن
ديمقريطس ذهب إلى أن الذرات أثقل heavier بالنسبة لسرعتها .. » ، وانظر فريمان في
كتابها « الفلاسفة السابقون على سقراط » ص ٣٠١ حيث تقول : « يقول أرسطو إن ديمقريطس وصف
الذرات بالثقل وهذا علة حركتها did attribute weight to the atoms ... »

(٢) الكون والفساد ، ١٣٢٦ ، ٨ - ١٢ - وانظر ترجمة لطفي السيد ص ١٨٢ .

الثقل والخفة صفتين داخلتين في الأجسام ، وأنها «شيثان» موجودان في الأجسام ، كالحال في البارد والحر والرطب واليابس . ثم تحرر القدماء من القول بالثقل والخفة شيئين مطلقين ، وذهبا إلى أنهما نسيان . والثقل والخفة متصلان بالفوق والتحت . أما أفلاطون في طيماوس فإنه ينكر الفوق والتحت في العالم ، ويذهب إلى أن وسط العالم لا يقال إنه تحت ، ولا يمكن أن يقال ذلك عن أى نقطة في محيط العالم . وأما أرسطو فإنه يوحد بين محيط العالم وبين الفوق ، وبين وسط العالم وبين التحت ، وذهب إلى أن العناصر لها حركات طبيعية نحو « المكان الطبيعي » فالنار تتجه إلى أعلى ، والأرض إلى أسفل .

وقد تحدثنا عن نشأة العالم عند لوقيبوس وكيف تدافعت الذرات « اللطيفة » إلى الخارج ، وبقيت الكبيرة في الداخل ، وقد نقلنا هذا الرأي عن ثاوفراسطس ، ولكنه لم يصف الذرة بالثقل والخفة ، بل باللاطفة أو كما يقول : « وكأنها تنفذ من خلال منخل » . وهذا هو الذى جعل بعض المؤرخين ^(١) يتوسعون فيصفون الذرة بالثقل أو الخفة .

لا يصف ديمقريطس الذرة إلا بصفتين هما الحجم والشكل ، وجاء أبيقور فأضاف إليهما صفة ثالثة هى الثقل ، فالثقلية تتجه إلى أسفل ، والخفيفة إلى أعلى ، وفسر بذلك علة الحركة في الخلاء . أما ديمقريطس فتتحرك الذرات عنده من تلقاء نفسها ، ويحدث من حركتها أن تتصادم ، وفي ذلك يقول بعض الرواة من القدماء : « إن للذرات قوة دافعة للحركة يسميها صدمة *plaga* ، أما عند أبيقور

(١) انظر ريفو في تاريخ الفلسفة الجزء الأول ص ٩٣ حيث يقول : إن أكبر الذرات وأثقلها تتجه نحو المركز *les plus lourds* ... وكذلك أخفها *legers* تتجه أو تطرد إلى المحيط .

فقوتها الحركة الجاذبية والثقل » . (١)

إخلاصة أن الذرات حين تتحرك في الخلاء تتصادم ، أو تتماس ، وتتجمع نتيجة اختلاف أشكالها ، ويتعلق بعضها ببعض ، وتستمر كل مجموعة باقية حتى تصطدم بها ذرات أخرى فتفرقها . وبذلك يمكن تفسير ظاهرة التغير ، والموجودات التي تظهر إلى الوجود ثم تختفي ، والكون والفساد . أما الذرات نفسها فلا تتغير ، ولا فعل لها ، ولا تقبل الانفعال ، بل تتصادم فقط ، وتتجمع وتنفرد .

وينشأ عن ذلك عوالم لانهاية لها ، ويختلف كل عالم منها عن الآخر في الشكل وغير ذلك من المميزات . فبعضها له شمس وأقمار أكبر من شمسنا وقرنا ، وبعضها لا شمس له ولا قر ، وبعضها لا يزال في دور التكوين وبعضها الآخر في دور الانحلال . وهناك عوالم لاحياة فيها . ويصل العالم إلى أوج ازدهاره حين لا يقوى على ضم ذرات جديدة من الخارج ، ثم ينفى بالتصادم . وجميع العوالم واحدة من حيث إنها تتكون من الذرات والفضاء ، ولكنها تختلف في الحجم والشكل والترتيب .

وهناك درجتان من الوجود ، أو نوعان من الحقيقة ، باطنة وظاهرة . أما الباطنة فتشمل الذرات والفضاء ولا تُدرك بالحواس ، وليس للذرات من صفات سوى الحجم والشكل . أما الحقيقة الظاهرة فهي تلك التي تبدو لنا بالحواس ونعلمها بالتجارب ، وتحدث عن اجتماع الذرات بالفضاء ، فيكون للأشياء لونٌ وصوت وطعم وحرارة وهكذا ، وجميع هذه الصفات ثمرة « العرف » ، أي أن الإنسان هو الذي اصطلاح على تسمية الأشياء المؤلفة من الذرات حيواناتٍ ونباتاتٍ وناراً وماء وهواء إلى آخر ذلك .

(١) رى ، فضج التفكير العلمى فى اليونان ص ٤٠٧ .

وتتصل نظريته في المعرفة بمذهبه في الوجود ، فالمعرفة الصحيحة هي العلم بالذرات والفضاء ، وذلك من طريق العقل . أما المعرفة التي تكتسب بالحواس فلا تعلمنا إلا الظاهر . وليس معنى ذلك أن المعرفة الحسية وهم ، ولكنها تعلمنا الدرجة الثانية من الوجود ، أى اجتماع الذرات على ترتيب معين ، فإذا استعمل الإنسان المدلولات الصحيحة عنها بدلا من العبارات الشائعة ، بلغ الحقيقة . فهناك درجتان للمعرفة ، الأولى هي العلم بالذرات وحركاتها وتجمعها في المكان وهذه معرفة عقلية ، والثانية المعرفة الحسية المستمدة من الحواس . وليس للأشياء صفات كاللون أو الحرارة أو البرودة ، لأن هذه المعانى اصطلاحات وضعها العرف ، ولو أنها تعتمد على حقيقة الذرات . وسوف نعود إلى تفصيل الكلام عن المعرفة فيما بعد .

نشأة العالم والحياة :

[١٠٥] تكون العالم من تطاير الذرات الصغيرة والكروية إلى الخارج ، وبقيت الذرات الكبيرة في المركز ، فتكونت الأرض .

وظهرت الحياة نتيجة «التولد الذاتى» كما ذهب إلى ذلك أنكسمندريس وغيره من القدماء . ويأخذ أرسطو بهذه النظرية أيضا ، ويضرب مثلا بتكون الدود والذباب تلقائيا من اجتماع العناصر الأربعة مع حرارة ملائمة . ذلك أن القدماء جميعا لم يصلوا إلى معرفة البكتريا أو الميكروبات التي لم تكتشف إلا أخيرا ، وتأيد وجودها بالميكروسكوب ، وبالتجارب العلمية لزراعتها . وكانوا جميعا يعجبون لظهور دود الأرض مع الرطوبة . ويذهب ديمقريطس إلى أن الإنسان نشأ من الطين كالديدان بغير خلق أو غاية . وتستمر الحياة بعد ذلك في الكائنات الحية بالتناسل طبقا للقوانين

الطبيعية ، ولكن حيث يهتدى الحيوان في تناسله بالغريزة فإن الإنسان يسعى إلى النسل لما تحققه له الأولاد من فائدة .

والنفس علة الحياة في النبات والحيوان ، والنفس مادية لأنها ذرات كروية الشكل نارية .

وتنتشر ذرات النفس في جميع أنحاء الجسم ؛ ولكن النفس واحدة ، ومن المستحيل تمييز أى أجزاء لها . والنفس والعقل واحد ، لأنها يتكونان من الذرات ذاتها ، أى الكروية النارية التى تتداخل بحكم ملاستها وكرويتها فى غيرها من ذرات البدن وتتحرك أو « تتدحرج » فتحرك الجسم كله ، مثل تمثال أفروديت الذى صنعه ديدالس ووضع بداخله الزئبق . وتتبدد ذرات النفس مع الزفير ، ويتجدد غيرها مع الشهيق ، لأن الهواء مملوء بهذه الذرات النفسية . والموت هو خروج مقدار كبير من الذرات النفسية من البدن ، حيث تتبدد فى الهواء ، ولذلك كانت النفس غير خالدة .

وفى البذرة جميع الأجزاء التى ينمو إليها الجسم فيما بعد ، كاللحم والعظم . وقد درس ديمقريطس تفصيلات كثيرة لعلم الحياة استفاد منها أرسطو فى مؤلفاته ، ونقد بعضها . وهو يعتقد أن الغريزة فى الحيوان تهديه أفضل من الشهوة فى الإنسان ، وأن الحيوان يتوقف عن الطعام أو الشراب أو الصلة الجنسية عندما يشبع حاجته ، أما الإنسان فلا حد لأطعاه . هذا إلى أننا قد اكتسبنا معظم الفنون من الحيوان ، كالنسيج من العناكب ، والبناء من النمل والنحل ، والغناء من الطير .

وله نظريات طبية ، كما درس بعض الأمراض كالحمى . ويعلل الأرق بسوء التغذية ، ويرى أن النوم فى أثناء النهار دليل على فساد الصحة .

المعرفة :

[١٠٦] والحواس هي طريق المعرفة بشرط أن تكون الإحساسات صادقة . والإحساس مادي لأنه نتيجة حركة الذرات وتأثيرها في أعضاء الحس التي تتلقاها ، ثم يشترك البدن كله في إدراك هذه الإحساسات . وهي صادقة لأنها واقعية ؛ وتختلف من شخص إلى آخر ، وتختلف عند الشخص نفسه ، ولكن هذا الاختلاف لا يرجع إلى طبيعتها فهي حقيقية ، بل إلى أعضاء الحس التي تتلقاها وتأثر بها . وفي الإنسان والحيوان ، وكذلك الآلهة ، حواس أكثر من الحواس الخمس ، على خلاف ما يذهب إليه جميع القدماء ، فهناك محسوسات كثيرة تنفذ إلينا خلال مسام الجسم ، ولكننا لا نلاحظها أو ندركها لعدم وجود الإدراك الملائم لها .

وقد عني ديمقريطس عناية عظيمة بالبصر ، وعنده أن الأشياء الخارجية ينبعث عنها من تلقاء نفسها صورٌ مادية تنطبع في الهواء بين العين والمحسوس ، كما ينطبع الخاتم على الشمع ، ثم تنعكس هذه الصورة الهوائية على العين وتنفذ إلى داخل الجسم .

وهو يفسر على هذا الأساس اعتقادنا في وجود الآلهة ، التي تملأ صورها الهواء ، وتنعكس على العين ، فتدركها . فالآلهة مادية تتكون من الذرات النارية التي تشبه الأنفس فينا ، والدليل على وجودها أننا نراها ، أو قل إنها تزور الإنسان وبخاصة في الأحلام . وهذه الصور التي نبصرها عن الآلهة حقيقية . وقد نشأ الاعتقاد في وجودها من الظواهر الطبيعية كالرعد والبرق ، تلك الظواهر التي تبعث الخوف في أنفسنا . وليس للآلهة من خطر ، وليس لها فائدة ، ولذلك كانت الصلاة ، والدعاء ، وتقديم

القرايين لها عبث^١، لأن المريض الذى يطلب الشفاء يجب أن يلمس الصحة فى نفسه ، لا بالدعاء لتأثيل الآلهة .

وحيث كانت الآلهة صوراً موجودة فى الهواء ندر كمها بالبصر ، فهى تنطبع كذلك فى أعين الحيوانات ، ولذلك كان الحيوان مدركاً للألوهية . وليست الآلهة خالقة هذا العالم ، لأن كل شئ يرجع إلى العال الطبيعية ؛ ولا يحتاج العالم إلى عنايتها .

الأخلاق :

[١٠٧] وقد احتفظ الرواة القدماء بكثير من «حكم^(١)» ديمقريطس ، وقد روى العرب بعضها ، كما فعل الشهرستانى فى الملل . ويمكن أن نستخرج من كتبه الأخلاقية ، ومن هذه الحكم ، نظرية أخلاقية تتميز بها فلسفته . وهى أخلاق واقعية إلى حد كبير ، تعتمد على أحوال الإنسان كما يعيش ، لا كما يجب أن يكون ، فيسلم بما فيه من ضعف وتغيير وخفة وطيش وخوف وميل إلى الثرثرة والغرور . وفى العالم أصناف من الناس ، منهم الطيب ومنهم الخبيث ، ومنهم العاقل ومنهم الأبله . ولكن الإنسان لا يعيش كالحيوان فى قطع ، بل يتميز بالعقل ، ويدرك مصلحة نفسه ، ويطلب أن يكون سعيداً . والسعادة خاصة من خصائص النفس ، والإنسان لأنه عاقل مسؤول عن تحقيقها ، وذلك بمعرفة فن الحياة والتمييز بين اللذات والرغبات ، وذلك بالمعرفة التى تميز بين الخير والشر والحسن والقيح ، والتى تحكم على اللذة التى يجب أن يشبعها المرء ليبلغ السعادة ، وكيف يجب أن يتجنب الألم والشر .

ويرجع ذلك كله إلى فضيلة نفسية هى قوة النفس واعتدال المزاج ، أو كما يسميها «أوثيميا» euthymie ، ويعنى بذلك التفاؤل ، والميل إلى الخير ، والإرادة

(١) هى حكم أخلاقية تشبه ما روى عن الحكماء السبعة .

الطيبة ؛ ولا تحصل هذه الحالة إلا إذا تحرر الإنسان من الخوف ، ومن التعجب ، ومن الاضطراب . ذلك أن الخوف من الأمور الطبيعية ومن الآلهة يؤدي إلى كثير من الشقاء ، وكذلك الخوف من الموت وما يعقب ذلك من حياة آخرة ، مما يجعل المرء يتعلق بالحياة ويرغب في إطالتها ، فيعيش في شيخوخته حياة كلها آلام .

والسبيل إلى تحقيق هذه الفضيلة ، نغنى قوة النفس واعتدال المزاج ، هو معرفة الخير ، وتوجيه الإرادة إلى سلوك طريقه . وهذا الضرب من المعرفة المصحوب بالإرادة يسميه ديمقريطس ما يجب عمله to deon ، وينشأ عن تهذيب النفس حتى تسلس أفعالها من تلقاء نفسها . فالنفس القوية هي التي تكبح زمام الرغبات ، ولا تعميها الشهوات ، وتمثل هذه القوة في ضبط النفس والاعتدال .

وسر السعادة في الاعتدال ، وهو اتزان باطنى يجعلنا نحس بالسعادة في داخل أنفسنا . وآفة الإنسان هو الإفراط ، لأنه يسرف في الطعام والشراب وغير ذلك من المطالب الجسدية على حساب صحته ، ثم يدعو الآلهة أن تشفيه ! فالعاقل مَنْ يؤثر اللذة البريئة ، وأسمها متعة النظر إلى الأشياء الجميلة ، وَمَنْ يتجنب الآمال الكاذبة ، وينزع من نفسه الحسد على ما يناله الناس من حظوظ ، لأن الحسد مجلبة للاضطراب .

والشجاعة مطية الاعتدال ، لأنها مصدر العمل والسلوك ، وشجاعة المرء في التغلب على أهوائه أسمى من النصر على أعدائه . فهي التي تؤدي إلى الصبر على المكاره ، ومقاومة المخاوف . ونحن نصل إلى هذا الضرب من الشجاعة ، وسائر ضروب الفضائل ، بالتربية التي يجب أن نأخذ الطفل بها من

الصغر ، وأفضل التربية ما حث الطفل على العمل ، مع تعليمه اللغة والموسيقى والرياضة البدنية .

أثره :

[١٠٨] على الرغم من إغفال أفلاطون لديمقريطس ، فإن نظريته في المعرفة التي تميز بين الحقيقة والظاهر كان لها أعظم الأثر في مذهب صاحب الأكاديمية . أما أرسطو ومدرسته فقد اهتمت بفلسفته ، وحفلت بها مع الرد عليها .

وقد بقيت مدرسة ديمقريطس قائمة حتى زمان أبيقور الذي اعتمد على نظريته في الذرة ، وفي الأخلاق والسعادة ، وأقام فلسفته على أساسها . وعلى الرغم من أن أبيقور ابتداء تلميذا من أتباع المدرسة ، وامتنح ديمقريطس لأنه أول من نظر نظراً صحيحاً إلى المعرفة ، فإنه خرج بعد ذلك عليه ، وزعم أن مذهبه مبتكر لا يدين فيه لأحد حتى ديمقريطس نفسه .

وظهر في المدرسة كثير من التلاميذ ، منهم نيساس وميتروودورس ، وديوجينيس ، وظهرت طبقة أخرى بعد ذلك منهم أنكسارخوس الذي كان صاحب الإسكندر ، وكذلك هيكاتايوس المؤرخ المقدوني .

تطور المدرسة :

[١٠٩] تمتاز الحضارة اليونانية بأنّ التفكير فيها كان ثمرة مدارس في الغالب لا عمل فرد واحد ، سواء أ كان ذلك التفكير في الفلسفة أو العلم أو الطب . وكانت الكتب تصدر عن المدرسة كلها في هيئة مجاميع Corpus ، مثل مجاميع أبقرات في الطب ، فهي على الرغم من نسبتها إلى فرد واحد هو أبقرات إلا أنها من عمل المدرسة كلها . وكذلك الحال في مدرسة أبديرا التي ركزت فلسفتها حول الذرة ، كما تحدثنا عند الكلام على ديمقريطس . أما الفيتاغورية فقد أضافت إلى هذه النزعة الجماعية صفة أخرى هي السرية ، فظلت تعاليمهم متداولة داخل المدرسة لا تنفشي منذ القرن السادس عند ظهور فيثاغورس مؤسس المذهب حتى القرن الخامس . واستمرت هذه السنة ، نعى تعاون الفلاسفة في مدرسة واحدة ، مستمرة بعد ذلك فظهرت الأكاديمية ، ومدرسة المشائين ، والرواقية ، والأبيقورية ، وهي كلها تمتاز بهذه النزعة .

وقد ذكرنا عند الكلام على فيثاغورس^(١) أنه فر من كروتون إلى ميتابونتيموم حيث توفي هناك ، أما أتباعه في كروتون فكانوا ضحية مؤامرة حرقوا فيها وهم مجتمعون في منزل ميلو الرياضي . وتفرق التلاميذ في أنحاء المدن الإيطالية مثل سيبارس وريجيوم وإيليا ، وفي مدن صقلية وشمال أفريقية واليونان . ويذكر

يامبليخوس^(١) قائمة بأسماء الفيثاغوريين والمدن التي كانوا يعيشون فيها مثل طيبة وفليوس وقورينا وأثينا وغيرها ، وبعد بارمنيدس وأنبادقليس من الفيثاغوريين . ولا غرابة في ذلك فقد استطاع المذهب الفيثاغورى أن يتطور مع الزمن ، وأن يتلاءم مع المدرسة الإيلية التي نشأت في أحضان الفيثاغورية ، وكذلك مع فيلسوف العناصر الأربعة الذي كان ناطقا بلسانهم في مدينة أكراجاس .

ولكن وجه الصعوبة في فلسفة الفيثاغوريين هو أنهم ظلوا مدرسة سرية، فهذا أرسطو لا يتحدث عنهم إلا بقوله: « الفيثاغوريون » ، وأرسطو هو أقدم مؤرخ يعتمد عليه ، وقد ألف كتابا خاصا عنهم ، ولكنه قُعد ، وأكبر الظن أن المؤرخين المتأخرين اعتمدوا عليه . ومع أن أفلاطون كان متأثرا بالمذهب الفيثاغورى ، إلا أنه لم يكن مؤرخا ، فعرض فلسفتهم بطريقة الخاصة ، ولكنه أذاع في بعض المحاورات معلومات ثمينة عنهم .

فيلولاوس Philolaos

حياته :

[١١٠] ونحن نعلم من محاورة فيدون أن مكانها كان في السجن يوم أن تجرع سقراط السم تنفيذا لحكم الإعدام، ودار الحديث حول النفس وخلودها ، وذكريدون من الحضور الأغراب عن أثينا سمياس وسيديس^(٢) وهما من مدينة طيبة^(٣) بالقرب

(١) انظر فريمان ص ٢٤٤ ، وتجعل القائمة عدد الفيثاغوريين ٢١٨ رجلا و ١٧ امرأة .

(٢) اسمه قيبس kebes ، ولكن هكذا درج غيرنا من المحدثين على كتابته بالسبى إذ يرسم بالإنجليزية Cebes . (٣) ويرسمها العرب القدماء « ثيبى » .

من أثينا . وهذه المدينة هي التي فر إليها ليسيس lysis بعد مذبحه كروتون ، وأصبحت مقراً لمدرسة فيثاغورية ، كان أبرز ممثليها فيلولاوس الذي علم سمياس وسيبيس . ثم تطرق الحديث في المحاوراة عن الانتحار ، أهو مشروع أم لا ، وهل يجب على الفيلسوف أن ينتحر حتى تصبح الروح منفصلة تمام الانفصال عن البدن ، وسأل سقراط محدثيه فقال : « إنكما ياسيبيس وسمياس تعرفان فيلولاوس ، فهلا سمعتهما قط يتحدث عن هذا ؟ » . ويمضى سيبيس فيقول : إنه سمع فيلولاوس عندما يجلس في طيبة يؤكد أن الانتحار غير مشروع ، وأن هناك أناساً غيره يقولون مثل هذا القول ، ولكنه لم يستطع أن يفهم العلة في ذلك .

يتضح من هذه الرواية أن فيلولاوس كان حياً عام ٢٩٩ ق . م ، وهو العام الذي توفي فيه سقراط ، وأنه كان موجوداً في مدينة طيبة بالقرب من أثينا ، وسمع منه سمياس وسيبيس ولكنه سافر منها في ذلك العام ، ولا ندرى أين ذهب ، ولكن أكبر الظن أنه عاد إلى موطنه في جنوب إيطاليا في مدينة تارنتوم التي أصبح أرخيتاس Archytas حاكماً لها . ويقال إن أرخيتاس أخذ العلم عن فيلولاوس . وكان أرخيتاس فيلسوفاً فيثاغورياً برع في العلم الرياضي ، وهو معلم إيدوكس Eudoxus أبرع الرياضيين في أكاديمية أفلاطون . وكان أرخيتاس إلى جانب ذلك قائداً حربياً وحاكماً سياسياً ، وانهقدت بينه وبين أفلاطون صداقة وثيقة ، إذ زاره في مدينته وأقام عنده زمناً ، وتراسلا بعد ذلك كما يتضح من الخطاب السابع لأفلاطون . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن أفلاطون حين زار تارنتوم وهو في الثامنة والعشرين من عمره استمع لفيلولاوس وهو يحاضر . ولكن القصص الذي يُروى في حصول أفلاطون على كتب فيلولاوس يحملنا نعتقد أنه لم يلتق به . ولا ريب في أن فيلولاوس قد أثر في كثير من

التلاميذ ، لأنَّ أرسطكسينوس Aristoxenus - وهو من تارنتوم وعاش في النصف الثاني من القرن الرابع ، وكان من فلاسفة المشائين الذين عنوا بالمذهب الفيثاغوري - عرف بعض هؤلاء التلاميذ وذكر منهم زينوفيلوس Xenophilus ، وأربعة من مدينة فليوس ، هم : فانتون ، وأشكراتس ، وديقليس ، وبولميناستوس .

وقد ذكرنا عند الكلام على فيثاغورس^(١) أن هيباسوس فيما يقال هو الذي أذاع مذهبه . وقيل إنه فيلولاوس ، وتروى في ذلك روايات مختلفة : منها أن أفلاطون اشترى الكتاب^(٢) من أقارب فيلولاوس ودفع لهم فيه مبلغا ضخما يبلغ مائة ميناى ، واستطاع بذلك أن يكتب منها محاوره طيماوس . وتذهب رواية أخرى إلى أن أفلاطون طلب من ديون أن يحصل له على هذا الكتاب فأنهز فرصة وقوع فيلولاوس ، وأقاربه ، في الضيق والعوز ، فاشترى الكتاب بذلك المبلغ . والذي يستفاد من جملة هذه الروايات أن الكتاب لم يكن من تأليف فيلولاوس بل ينسب إلى فيثاغورس . ويناقش برنت هذه الروايات قائلا : إن أفلاطون كان له حساد وأعداء كثيرون ، منهم أرسطكسينوس الذي أشاع عن أفلاطون أنه اقتبس محاوره الجمهورية من أحد كتب بروتاجوراس ، ولعله صاحب هذه الإشاعة الخاصة بشراء كتاب فيلولاوس الذي اقتبس منه طيماوس . ويذهب كورنفورد^(٣) في كتابه الذي ترجم فيه محاوره طيماوس وشرحها ، أن أفلاطون ابتكر شخصية طيماوس ليمثل فيلسوفا من إيطاليا يجمع بين العلم والسياسة ، إذ ليس من المعقول أن يكون طيماوس مشهوراً تلك الشهرة العلمية ولا نجد له عند القدماء ذكرا .

(١) انظر ص ٧٥ . (٢) هو كتاب واحد من ثلاثة أجزاء ، وفي بعض الروايات أنه ثلاثة كتب فيثاغورية ، هي التي استقى منها الأفكار التي دونها في طيماوس .

(٣) انظر مقدمة كورنفورد ص ٢ ، ٣ في كتابه Plato's Cosmology .

مهما يكن من شيء فقد بقيت أجزاء من كتاب فيلولاوس رواها المتأخرون، ودرسها المحدثون فاختلفوا فيما بينهم اختلافا كبيرا حول صحة نسبتها إليه . ولما كانت شخصية فيلولاوس ثابتة تاريخيا، وكان معروفا في الزمن القديم أنه أبرز ممثل للفيتاغورية، فيمكن بناء على ذلك أن تنسب التعاليم الفيتاغورية في ذلك العصر إليه ، ولو أننا نميل إلى الأخذ بنزعة أرسطو التي يصف بها تلك التعاليم إلى المدرسة كلها .

الخلاصة نشأ فيلولاوس في النصف الثاني من القرن الخامس في مدينة تارنتوم ، وأخذ العلم على ليسيس ، وذهب إلى طيبة بعض الوقت ، وكان من تلاميذه هناك سيبيس وسمياس ، ثم عاد إلى موطنه وتلمذ له أرخيتاس وإريقتوس . وله كتاب مفقود بقيت منه شذرات وله آراء في الرياضة والموسيقى والفلك والطب والنفس ، نجدها في محاورتي فيدون وطيماوس لأفلاطون ، وفي كتب أرسطو حين يتحدث عن الفيتاغوريين .

النفس:

[١١١] الإنسان مركب من مبدأين هما النفس والبدن ، أما البدن [sôma] فهو قبر [sema]^(١) للنفس . وهذه العقيدة التي يبسطها سقراط في فيدون قديمة ترجع إلى فيثاغورس نفسه ، ولكن الجديد في المذهب أنه يبرز أهمية كبرى للمعرفة باعتبار أنها أساس « التطهير » وبخاصة العلم الرياضي الذي يعد أسمى العلوم . والفيلسوف الحق هو الذي ينشد الموت ، أي انفصال النفس عن الجسم ، ويتيسر ذلك في أثناء الحياة الدنيا حين تكون النفس متصلة بالجسم بتزكيتها عن طريق العلم . وهنا يصادفنا لأول مرة في تاريخ الفلسفة اليونانية لفظ الفيلسوف philosophos مما يدل على أنه

(١) يلاحظ الشبه بين اللفظتين في اليونانية .

كان متداولاً في حلقة الفيثاغوريين في مدينة طيبة . ولعل هذا هو الذى جعل هرقليدس بونتيكوس^(١) ينسب اصطلاح الفيلسوف لفيثاغورس نفسه . وقد ذكرنا أن سيبيس سمع عن فيلولاوس أن الانتحار غير مشروع ، مع أن الفيلسوف يطلب الموت ، وعلة ذلك أننا ملك الآلهة ، وهذا السجن للنفس عقوبة لها لما اقترفته من إثم . وهذا كله ترديد لمعتقدات النحلة الأورفية .

ولكن الجديد في مذهب فيلولاوس عن النفس ، وهو الذى تساءل عنه سقراط وبين بطلانه ، أنها تناسب أو ائتلاف Harmonia للبدن . وهذه النظرية تختلف بل تعارض مذهب فيثاغورس ، أو قدماء الفيثاغوريين ، من أن النفس تحل في أى جسم ، وتخرج منه بعد الموت لتحل في بدن آخر ، مما هو معروف في مذهب التناسخ . أما إذا كانت النفس ائتلافاً للبدن ، مثلها مثل الأنعام التى تصدر عن القيئارة - باعتبار أن القيئارة وما فيها من أوتار كالبدن والأنعام الصادرة عنها كالنفس - فإنها توجد مع وجود البدن وتنفى مع فناءه ، وبذلك لا يكون لها وجود سابق على وجود البدن ، ولا تتناسخ أيضا . وكان سيبيس وسمياس ، وكذلك أشكرانس ، قد سمعوا هذا المذهب وأخذوا به . ويبدو أن أساسه مستمد من الطب ، فهذا سمياس يقول إن جسمنا يشد ويتماسك بالحر والبارد والرطب واليابس ، فالنفس ضرب من المزاج أو التناسب بين هذه العناصر حين تمتزج امتزاجا معتدلا . فإذا كانت النفس تناسبا ، فإن البدن إذا أصابه الانحلال وخرج عن حد الاعتدال بالأمراض والعلل ، فينبغى بالضرورة أن تفسد النفس أيضا^(٢) . وهذه هى نظرية ألقاميون ،

(١) Herakleides Pontikos عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان من

تلامذة أفلاطون وأرسطو .

(٢) فيدون ٨٦ ب .

وهى التى اصطنعها أنبادقليس فيما بعد ، مما يدل على تأثير الفيثاغوريين فى ذلك العصر بالنظريات الطبية الإيطالية ، وبمذهب أنبادقليس بوجه خاص ، وبمذهب الذريين كما بين ذلك أرسطو^(١) ووضحناه من قبل .

ونظرية التناسب التى طبقها فيلولائوس على النفس والبدن ، هى المحور الذى تدور عليه فلسفته كلها ، فيفسر بها الأعداد ، والأشكال ، والفلك ، والموسيقى .

ومع أنه تأثر بالمدرسة الإيطالية فى الطب إلا أنه عارضها فى أمور كثيرة . وعنده أن الجسم مركب من الحار فقط ، لا من الحار والبارد ؛ أما البارد فلا يشارك البدن فيه إلا بعد الولادة ، وذلك حين يتنفس المولود الهواء مع الشهيق ، فيبرد بذلك جسمه . ويرجع السبب فى الأمراض إلى الصفراء والدم والبلغم . ولا تتولد الصفراء فى الكبد ، بل هى سائل يفيض عن اللحم . أما البلغم فليس بارداً كما ذهب إلى ذلك مدرسة صقلية فى الطب ، ولكنه عنصر حار ، وهو علة الحيات .

نظرية الأعداد :

[١١٢] يعرض أرسطو فى عدة مواضع من كتاب ما بعد الطبيعة مذهب الفيثاغوريين فى أن الأعداد أصول الأشياء . ونحن نعلم أن أرسطو ظل تلميذاً فى الأكاديمية عشرين عاماً ، ولهذا السبب يعرض فى بعض الأحيان مذهب أفلاطون قائلاً : « نحن الأفلاطونيين » . وكان أفلاطون متأثراً إلى حد كبير بالمذهب

(١) انظر ص ٢١٠ ، ٢١١ وما بعدهما من هذا الكتاب حيث تكلمنا عن لوقيوس وترجنا نص أرسطو من كتاب الكون والفساد .

الفيثاغورى عن طريق سمياس وسيبيس وفيلولاوس وأرخيتاس . ولكن أفلاطون لا يؤرخ للمذاهب بمقدار ما يعرض لنا مذهبه هو . أما أرسطو فيؤرخ بمعنى الكلمة ، بل بعد أول مؤرخ لتاريخ الفلسفة اليونانية . وما دمتنا قد اعتبرنا فيلولاوس الممثل للفيثاغوريين المتأخرين والناطق بلسانهم ، فما ينسبه أرسطو لهم يمكن أن يعد إلى حد كبير آراء فيلولاوس ، وبخاصة لأنه يذكر أن آراءهم كانت معاصرة لآراء أصحاب الذرة . وقد ذكرنا من قبل نص أرسطو في السماء الذى يقول فيه : « جعل لوقيوس وديمقريطس وكذلك الفيثاغوريون من جميع الأشياء أعداداً ، وأن الأشياء تنشأ من الأعداد » ^(١) ولنستمع إلى أرسطو يقول فى موضع آخر :

« وفى زمان هؤلاء الفلاسفة [يريد لوقيوس وديمقريطس] بل وقبل زمانهم ، اقصر أولئك الذين يسمون بالفيثاغوريين على النظر فى العلوم الرياضية وكانوا سببا فى تقدمها . وإذ كانوا قد تأثروا بهذا الضرب من العلم فقد ظنوا أن مبادئ الرياضة هى مبادئ جميع الموجودات . ولما كانت الأعداد هى بالطبع أوائل هذه المبادئ ، فقد رأى الفيثاغوريون بين الأعداد وبين الأشياء التى تكون وتفسد كثيرا من المشابهات أكثر مما يكون بينها وبين النار والأرض والماء (من حيث إن بعض الأعداد هى العدل ، والبعض الآخر النفس والعقل ، والبعض الثالث الزمان ، وكذلك عن الأعداد الأخرى) ؛ ولما رأوا أيضا أن الأعداد تعبر عن خصائص موسيقية وعن اتلاف النغم ؛ ولما رأوا كذلك أن جميع الأشياء الأخرى فى طبيعتها كلها تتكون على مثال الأعداد ، وأن الأعداد تشبه أن تكون هى الحقائق الأولى للكون ، فقد اعتبروا أن مبادئ الأعداد هى عناصر جميع الموجودات ، وأن السماء بأسرها تناسب وعدد »

٩٨٥ ب ٢٤ - ٣٥ ، ١٩٨٦ ١ - ٣ .

ويقول بعد قليل : « أما الفيثاغوريون فيذهبون إلى أن وجود الموجودات محاكاة

mimesis للأعداد ، وهى عند أفلاطون مشاركة metexis ، فلم يغير إلا الاسم فقط « ٩٨٧ ب ، ١٠ - ١٢ »

ويقول فى موضع آخر : « وبما يمتاز به أفلاطون أنه يضع الأعداد خارج para الأشياء المحسوسة ، أما الفيثاغوريون فيذهبون إلى أن الأشياء أعداد ، ولا يضعون الأمور الرياضية كموجودات متوسطة بين المثل والمحسوسات » ٩٨٧ ب ، ٢٦ - ٢٧

نحن إذن أمام ثلاث نظريات فيما يختص بالعدد وأنه أصل الأشياء ، وهذه التفسيرات هى : أولا أن الأشياء فيها أعداد ، وثانيا أنها مركبة حسب الأعداد ، وثالثا أنها محاكاة للأعداد . وبذلك عدل فيلولاوس والمتأخرون من الفيثاغوريين عن القول بأن الأشياء هى الأعداد على سبيل الحقيقة ، كما ميزوا إلى حد ما بين الأعداد والأشكال . وقد ناقش أفلاطون هذه النظريات والتفسيرات ، وأراد أن يخرج برأى جديد فقال « بالمشاركة » ومع ذلك فلم يصلح القول بالمشاركة فى المثل لتفسير أصل الموجودات ، أزا كما يقول أرسطو إن كل ما فعله أفلاطون أنه غير اسم المحاكاة وجعله المشاركة . ولكن هذه التعبيرات المختلفة تدل على تطور الفكرة من العدد المحسوس المتمزج بالشكل الهندسى ، كما ذكرنا عند الكلام على فيثاغورس ، أى من العدد المادى إلى العدد البرى عن المادة . وبما يذكر فى هذه المناسبة ذيوع قصة فى القرن الخامس بعد الميلاد أوردها « ستوبايوس » يزعم فيها أن زوجة فيثاغورس التى تسمى ثيانو Theano كتبت رسالة تحتج فيها على من ينسب إلى زوجها قوله : « إن الأشياء أعداد » وتقول إن الرواية الصحيحة : « أن الأشياء مركبة حسب الأعداد » . والانتحال فى القصة والرسالة ظاهر ، ولكنه يدل على أن الفيثاغوريين فى العصر المتأخر رأوا القول بأن الأشياء أعداد عبارة عامة جدا ولا تثبت طويلا للنقد .

وقد اضطرب الفيثاغوريون إلى تغيير فلسفتهم الأولى ، لأن مذاهب الماديين في القرن الخامس كانت قد نضجت سواء عند أنبادقليس وأنكساجوراس ، أو عند لوقيبوس وديمقريطس ، فذهبوا إلى وجود « مادة » هي العنصر أو الذرة تعد أصل هذه الأجسام المحسوسة ، وأمكنهم بذلك تفسير التغير والكون والفساد . فالجسم المحسوس مركب من ذرات أو أجزاء صغيرة مادية تجتمع بهيئة معينة . غير أن الفيثاغوريين يخالفون الماديين ، ويرفضون قبول نظريتهم في أن الجسم مركب من « وحدات » ويزعمون أنه مركب من أعداد . غير أن التوحيد التام بين العدد والجسم المحسوس المركب من مادة أصبح غير مقبول لدى العقول ، فاضطروا إلى افتراض الأعداد أصلا للأشياء ، توجد بحسبها ، أو بمحاكاتهما ، أو بالمشاركة فيها كما ذهب إلى ذلك أفلاطون . ومعنى ذلك هو التمييز ^(١) بين الأشياء المحسوسة وبين الأعداد ، ثم محاولة بيان الصلة بينهما .

هذه الصلة ترجع إلى « المعرفة » أى إلى النفس التى تستطيع أن تدرك ما فى الأشياء من أعداد ، وبعبارة أدق من نسب عددية : ذلك أننا حين ندرك شيئا من الأشياء لا ندرك مادته فى داخل أنفسنا ، وإلا كما انتقد أرسطو أنبادقليس وجب أن يكون فى أنفسنا حجر حين ندرك الحجر . فالفيثاغوريون يقيمون فلسفتهم فى وجود الأشياء من الأعداد على المعرفة ، لأن ما يمكن إدراكه من الأشياء هو هذه الهيئة العددية .

(١) فى الفقرة التى نقلناها عن أرسطو (٩٨٧ ب ٢٧ - ٢٩) يفرق بين الفيثاغوريين وبين أفلاطون ، من جهة أن الفيثاغوريين يذهبون إلى وجود الأعداد وجوداً حقيقياً مستقلاً عن الأشياء ، أو خارج الأشياء المحسوسة ، أما أفلاطون فالأعداد متوسطة بين المحسوسات وبين المثل ، أى لا توجد خارج المحسوسات .

والعشرة ^(١) Dekad هي العدد الأساسي عند فيلولاوس ، لأنها أكمل الأعداد . وفي « الديكاد » أو العشرية تفسير جميع الوجود ، مما يدل على امتزاج النظرية الرياضية بالتصوف . ويرجع السر إلى اختيار هذا العدد إلى أمرين : الأول أنه أقرب إلى الطبيعة ، لأن جميع الناس على اختلاف أوطانهم يعدون بالطريقة العشرية بالطبع ؛ والثاني أنه قائم على خواص تميزه ولا توجد في غيره ، لأنه مجموع الأعداد الأولية والمركبة وهي $1 + 2 + 3 + 4 = 10$ ، وهذا العدد هو الذي كان يسمى في زمن فيثاغورس « تراكثيس » وكانوا يخلفون به كما ذكرنا . فمن الواحد إلى الأربعة توجد أصول الموجودات جميعا ، وهي النقطة ، والخط ، والسطح ، والجسم . فالواحد هو النقطة ، والاثنان الخط ، والثلاثة السطح لأن المثلث أول السطوح ، والأربعة الجسم Solid لأنه أول شكل للجسم يتركب من أربعة سطوح ، ويسمى الهرم Tetrahedron . وللهرم أربعة أسطح وستة أضلاع ومجموع ذلك عشرة .

ولكى نفهم كيف يجعل الفيثاغوريون النقطة هي الواحد ، يجب أن نرجع إلى فكرتهم عن « أصول » الأعداد ، ونحن نعني بالأصول المعنى الفلسفي أى الأسطقسات ^(٢) . فأصول الأعداد هي « الفرد والزوج » وهما أصلان للأعداد وللأشياء جميعا ، لأنها يمثلان المحدود واللامحدود [apeiron] فالزوج هو اللامحدود والفرد هو المحدود ، وهو الواحد . وفي ذلك يقول أرسطو في كتاب مابعد الطبيعة ١٩٩٧ / ١٥ - ٢٠ .

(١) العشرة باليونانية « ديكاد Dekad » ، والمقصود بديكاد هو مبدأ العشرة أى العشرية .

(٢) انظر مابعد الطبيعة ١٩٨٦ حيث يقول أرسطو : « إن أصول الأعداد هي أسطقسات جميع

الأشياء panton Stoicheia »

« وقد تكلم الفيثاغوريون أيضا عن مبدئين ، ولكنهم أضافوا إلى ذلك هذا القول الذى يختصون به ، وهو أن المحدود [peras] أو الواحد [to en] والا محدود [apeiron] ليسا فيما يعتقدون صفتين تحملان على الموجودات الأخرى كالنار والأرض أو أى عنصر آخر من هذا القبيل ، بل اللامحدود بعينه والواحد بعينه هما جوهر الأشياء . وهذا هو السبب فى أن العدد هو جوهر جميع الأشياء . » (١)

فالمحدود واللامحدود ، أو المتناهى واللامتناهى ، هما المبدآن عند الفيثاغوريين لتفسير الكون ، فهناك مادة لامتناهية تحدها المتناهيات وهى العدد الفرد . والزوج لا محدود لأنه حين يقسم قسمين لا يبقى منه شيئا بل يترك فراغا ، أو كما يقول ستوبايوس : « حين يقسم العدد الفردى إلى قسمين متساويين تبقى وحدة فى الوسط ، أما حين يقسم العدد الزوجى فالباقي خلاء ، ولا يوجد عدد ، مما يدل على نقصه » . وقد رأينا عند الكلام على فيثاغورس كيف كانوا يعدون بالحصى فيشغل الشكل سطحها هو « الخورا » وهذا السطح هو اللامحدود . وقد وحدوا بينه وبين الهواء وبين الظلمة ، وكان اللامحدود عندهم حقيقة موجودة تقوم بذاتها . وليس اللامحدود عند فيلولائوس هو الهواء ، ولكنه « الأسطقس » مستعيرا فلسفة أنبادقليدس . فإذا كان الأصلان هما اللامحدود والمحدود ، فالنقطة والخط والسطح هى الحدود التى تحد هذا اللامحدود . وليست النقطة حدا أو لاحدا ، وإنما هى ثمرة امتزاج المحدود باللامحدود ، فهى أول وحدة ، بدلا عن الصفر الرياضى . وللنقطة عند الفيثاغوريين بُعد واحد ، وللخط بُعدان ، وللسطح ثلاثة أبعاد . من أجل ذلك كانت النقطة هى الواحد ،

(١) فى تفسير ما بعد الطبيعة لابن رشد نجد هذه الترجمة القديمة : « فأما الفيثاغوريون فقالوا : إن المبادئ اثنان على هذه الجهة بعينها وهى التى وضحت لهم . والذى يختصون به فالقول بالنهاية والواحد وغير المتناهى . ولم تجر عاداتهم بتسمية شئ آخر طبيعة مثل النار والأرض وما أشبه ذلك بل غير المتناهى نفسه والواحد بعينه هو جوهر » .

والخط الاثنان ، والسطح [أى المثلث] الثلاثة ، والهرم [أى أول جسم] هو الأربعة
المجسمات الخمسة :

[١١٣] ويفسر فيلولاوس الموجودات الطبيعية في هذا الكون بأشكال مجسمة
خمس هي : الهرم ، والمكعب ، والمثلث ، وذو العشرين وجها ، وذو الاثنى عشر
وجها ؛ وهى كلها مجسمة . ونحن نجد هذه النظرية مبسطة في محاوره طياوس ،
حيث يصل بين هذه الأشكال وبين العناصر الأربعة ، فذرة النار هى الهرم ، وذرة
الهواء المثلث ، وذرة الماء ذو العشرين وجها ، وذرة الأرض المكعب . وهذا يدل
على الصلة الوثيقة بين هذا المذهب وبين مذهب أنبادقليس . ولكن أين الشكل
الخامس ، وهو ذو الاثنى عشر وجها ؟ وسوف نتحدث عن هذا الشكل فيما بعد ،
لأن له منزلة خاصة فى فلسفتهم . وها نحن نكتب هذه الأشكال المجسمة مع أسمائها
البونانية ، والأرقام التى تدل على عدد سطوحها مبتدئين بالنار ، فنقول :

٤ : النار = الهرم Tetrahedron

٨ : الهواء = المثلث Octahedron

١٠ : الماء = ذو العشرين وجهاً Eicosahedron

٦ : الأرض = المكعب Cube

١٢ : محيط العالم = ذو الاثنى عشر وجهاً Dodecahedron.

ونحن نجد فى محاوره طياوس وصفاً لجرم العالم ، ولم كانت عناصره أربعة ، وأى
هذه العناصر كان أولاً ، وذلك حيث يقول :

« والآن فإن ما يتكون لابد أن يكون ذا جرم ، أى مرثيا وملوسا ، ولا شيء يمكن أن يكون مرثيا بغير النار ، أو ملوسا بغير أن يكون مجسما [أى صلبا] ولا يوجد شيء مجسم بغير الأرض . ولذلك فإن الإله حين شرع في تأليف جرم الكون صنعه من النار والأرض . إلا أنه لا يمكن أن يلتئم شيان كما ينبغي بغير شيء ثالث . وأفضل الروابط ما جعل هذه الحدود الثلاثة وحدة كاملة بمعنى الكلمة ، ومن طبيعة التناسب الهندسى المتصل أن يحقق هذه الغاية أكمل تحقيق [إلى أن يقول] ... ولما كان العالم مجسم الشكل ، وكانت المجسمات مرتبطة دائما لابوسط واحد بل بوسطين ، فإن الإله تبعاً لذلك وضع الماء والهواء بين النار والأرض ، وجعلها ما أمكن إلى ذلك سيلا متناسبة بعضها إلى بعض ، بحيث إنه كما يكون النار بالنسبة للهواء ، كذلك الهواء بالنسبة إلى الماء ، وكما يكون الهواء بالنسبة إلى الماء ، كذلك الماء بالنسبة إلى الأرض . وهكذا أَلَفَ الإله بين هيكل العالم المرئى والملوس » (١)

فالفكرة الأساسية من تكوين العالم من عناصر أربعة ترجع إلى « التناسب » الذى لا يمكن أن يتم إلا بوجود ثلاثة حدود فيما يختص بالأعداد ، وأربعة حدود أى طرفين بينهما وسطان بالنسبة للمجسمات ، كما يقول أفلاطون في طيماوس . والمكعب عند فيلولاوس يمثل « التناسب الهندسى » . فالمكعب له ١٢ ضلعا ، و ٨ زوايا ، و ٦ سطوح ؛ والعدد ٨ هو الوسط بين ١٢ ، ٦ تبعاً للتناسب الموسيقى أى الهارمونيكى .

الفلك :

[١١٤] والآن ما أمر الشكل الخامس ، وهو الجسم ذو الاثنى عشر وجهاً ؟ لكى نفهمه لابد أن ننظر فى الفلك كما صورته فيلولاوس ، الذى يعدده بعض المؤرخين المحدثين مثل سارتون عالما فلسكيا فلم يبعثه إلا تحت هذا الباب ، وعده صاحب الأثر

العظيم في هذا العلم حتى زمان كبلر . والحق يرجع الفضل إلى الفيثاغوريين في تصور علم الفلك باعتبار أنه علم رياضى يقوم على التناسب والنظام . وقد ذكرنا من قبل أن فيثاغورس كان يعتقد في كروية الأرض ^(١) على خلاف المدرسة الأيونية التي كانت تعتقد أنها أشبه بالقرص الذى يطفو على وجه الماء أو يسبح في الهواء ، ولو أن فيثاغورس كان يعتقد بأن الأرض مركز الكون .

والجديد عند فيلولائوس أنه رفض نظرية مركزية الأرض ، وذهب إلى أن الشمس هي مركز العالم . والعالم كروى ونهائى ، وفي وسطه النار التي يسميها « بيت العالم » و « منزل زيوس ، أب الآلهة » . وفي هذه النار المتوسطة يوجد المبدأ الذي يحكم الكون ، ذلك المبدأ الذي وضعه الإله خالق العالم . ويدور حول هذه النار المقدسة عشرة أجرام سماوية مقدسة ، وكأنها ترقص رقصة جماعية . وأول هذه الأجرام هو « الأنتختون Antichthon » أى الجرم المقابل للأرض ، ثم الأرض ، والقمر ، والشمس ، والكواكب الخمسة ، والنجوم الثوابت .

ولسنا نرى هذا الأنتختون ، ولا هذه النار المتوسطة - التي لا ينبغي أن نخلط بينها وبين الشمس - لأن جانب الأرض الذي نعيش فوقه مضاد لها باستمرار . ويدور الأنتختون في مقابل الأرض ، وهو مسكون كالأرض ، ولكن سكان كلا الجرمين لا يرى أحدهما الآخر أبداً ، لأن وجه الأرض يتجه دائماً إلى الخارج أى بعيداً عن النار المتوسطة وفي اتجاه الكواكب الأخرى ؛ وهذا يدل على أن الأرض ، وكذلك الأنتختون ، يدوران حول محورها كما يدوران حول النار المتوسطة .

ويبدو أن القول بوجود الأنتختون كان فرضاً من الفروض لتفسير ظاهرة الكسوف والخسوف ، ذلك أن خسوف القمر يرجع إلى توسط الأنتختون بين

(١) انظر ما سبق ص ٨٨ من هذا الكتاب .

الشمس والأرض . ويذهب أرسطو إلى أن افتراضهم إياه إنما يرجع إلى رغبتهم في إكمال عدد الأجرام السماوية عشرة .

ومع ذلك فنحن نقرأ في آخر محاورة فيدون أن سقراط يصف الأرض أنها مركز العالم ، ويؤمن سميثاس تلميذ فيلولاوس على هذا الكلام مما يناقض نظرية فيلولاوس . وتفسير ذلك أن سقراط يبسط نظرية الفيثاغوريين القديمة ؛ ولكن قيام الأرض في وسط السماء على أساس التوازن فقط ، ودون أن تعتمد على الهواء ليمسكها ، يعد من النظريات الجريئة الجديدة في القرن الخامس ، والتي ترجع ولا ريب إلى فيلولاوس .

غير أن النظرية القائلة بأن الشمس هي مركز العالم لم تحظ بالانتشار ، لأن أرسطو عاد إلى نظرية مركزية الأرض ، وأخذ الناس بتهاليم أرسطو أو المعلم الأول ، حتى جاء كوبرنيق فأحيا تلك النظرية الفيثاغورية التي ترجع إلى فيلولاوس ، ويعترف كوبرنيق بأن الفضل في كشف نظريته يرجع إلى ما قرأه عند الفيثاغوريين^(١) .

ويحدثنا سقراط كذلك في آخر فيدون^(٢) أننا إذا نظرنا إلى الكرة الأرضية من خارج أو من أعلى ، لرأيناها تشبه كرة مصنوعة من اثنتي عشرة قطعة من الجلد . وهذا هو الجسم ذو الاثني عشر وجهاً Dodécahedron الذي أخرجنا الحديث عنه . والسرف في ذلك أن هذا الجسم أقرب الأشكال الهندسية إلى الدائرة . ويبدو أن هذا التشبيه الذي يمثل العالم بالكرة المصنوعة من قطع كثيرة كان مألوفاً عند الفيثاغوريين . ففي الجمهورية يشبه أفلاطون هيكل العالم ببناء السفينة ، ذلك أنها أشبه بنصف دائرة مجتمع خشبها كما يلتصم الجلد في الكرة .

(١) انظر برنت: فجر الفلسفة ص ٢٩٩ . (٢) انظر فيدون ترجمة زكي نجيب محمود ص ٢٨٨

ويذهب أيتيوس فيما رواه عن فيلولاوس أن هذا الشكل عبارة عن محيط العالم كله .

وقد ذكرنا عند الكلام على فيثاغورس أنه شبه حركات الكواكب بالأُنغام الموسيقية وتحدث عن موسيقى السماء ، وسادت هذه الفكرة في القرن الخامس مع كثير من الدقة . ويقول أرسطو نقلا عن الفيثاغوريين إن الأجرام السماوية تُصدر في تحركاتها أنغاما موسيقية، يتحدد الغليظ والحاد منها تبعا لسرعة حركاتها وأبعادها . وتمثل هذه الأبعاد السلم الموسيقى ، أى الأوكتاف ^(١) .

معنى السفسطائي :

[١١٥] ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد طائفة من المعلمين يعرفون باسم السفسطائيين . ولم يكن هذا الاسم معروفاً من قبل في القرن السادس ، بل كان الذائعُ على الألسن اسمَ الشاعر والكاهن والطبيب والعراف والفيلسوف . وقد رأينا عند الكلام عن فيلولاوس أن اسم الفيلسوف كان معروفاً في حلقة الفيثاغوريين في مدينة طيبة . ورأينا كذلك أن زينوفان كان ينشد الشعر كما كان كان ينشده الشعراء مثل هوميروس وهزiod . ولما بدأ لقب السفسطائي يشيع على الألسن لم يكن مدلوله واضحاً تمام الوضوح . ومن أجل ذلك تساءل سقراط في محاورته « السفسطائي » عن تحديد المقصود من ثلاثة اصطلاحات جارية وهي : السفسطائي ، والسياسي ، والفيلسوف .

تدور المحاوره بين ثيودورس وتيتياتوس وسقراط وشخص غريب من إيليا . وقال الغريب الإيلي - وهذه إشارة من أفلاطون لها دلالتها ، لأن السفسطائيين كانوا أغراباً عن أثينا - إن طائفة السفسطائيين التي نبحث عنها ليس من اليسير تحديدها أو تعريفها . وهذا يدل على أن معنى السفسطائي في ذلك الوقت لم يكن محدداً . ثم شرع المتحاورون يتباحثون في معرفة مدلوله ، وانتهوا إلى ست صور مختلفة يمكن أن يقال على السفسطائي ، وهي على الترتيب أنه صائد ، وتاجر ، وبائع ، وصانع ، ومجادل ، ومعالج .

وتجتمع هذه المعاني كلها في أن صاحبها يعالج فناً من الفنون ؛ والفنون إما أن

تكتسب وإما أن تبتدع ؛ والتي تكتسب بالتعلم والمحاكاة هي كالتجارة والحرب والصيد . والصيد على أنواع ، فمنه اقتناص الأحياء ، ومنه صيد غير الحى . وصيد الأحياء أنواع ، مثل صيد السمك فى البحار ، والطيور فى الهواء ، والدواب على ظهر الأرض ، وذلك بصروب مختلفة من الشباك والفخاخ والصنابير . وبين الصائد والسفسطائى نسبٌ ، فالأول يرتاد الأرض أو البحر ، والثانى يختلف إلى أنهار الثروة ومراعى الأغنياء من الشباب ليقتنص الحيوانات المستأنسة ، ذلك أن الإنسان حيوان مستأنس يمكن أن يقتنص . فالسفسطائى صائد ، وفنه كسبى ، وصناعته اقتناص الناس من ذوى الحسب والمال ، وذلك بأن يقدم إليهم علما فى مقابل أن يأخذ مبلغا من المال أجراً على تعليمه . فهذا معنى أنه صائد .

والتجارة على ما كانوا يفهمونها فى ذلك الزمان تقوم على تبادل السلع ، فهى أخذ وعطاء بين ما تنتجه المدن ، وهى على ضربين : فبعضها طعام ينفع للأبدان ، وبعضها الآخر غذاء للأرواح ، كالتماثيل والنقوش التى تباع للتسلية ، ويسمى صاحبها تاجراً أيضاً ، كالذى يبيع اللحم والنبيد . ومن هذا القبيل تجارة العلم ، وهى غذاء الروح ، ويتنقل صاحبها من مدينة إلى أخرى ؛ والسفسطائى هو المخصوص بالتجارة فى نوع من أنواع العلم ، هو فن الكلام والعلم بالفضيلة . فهو تاجر بضاعته الكلام^(١) .

(١) هذا المعنى هو الذى نجده فى أول محاوره بروتاجوراس (٣١٣) حيث يقول سقراط « أليس السفسطائى هو الذى يتجر بالجملة أو بالتجزئة فى الروح ، ويبدولى أن هذه هى طبيعته » ونحن نعلم أن محاوره بروتاجوراس أسبق من هذه المحاوره .

فإذا استقر السفسطائي في إحدى المدن ، ولم يعد يستجلب بضاعته من المدن الأخرى ليتجر فيها ، بل أخذ يصنع هذه البضاعة ليبيعها فهو بائع ، وهو صانع كذلك ، وهو في كلتا الحالتين يبيع العلم بالفضيلة .

والفن الذي يبيعه هو فن الجدل ، وهو على نوعين : الأول عام عبارة عن خطابة طويلة يُردُّ عليها بخطابة أخرى طويلة ، وتمقب ذلك مناقشة عامة تدور حول العدل والظلم ؛ والنوع الثاني جدل خاص يتجزأ إلى أسئلة وأجوبة ، ويسمى الحوار .

وأضعف صفة من صفات السفسطائي هي العلاج « بالتطهير » ، تطهير العقل عن طريق الجدل والنقض والاحتجاج ، حتى تتبدد الأفكار المتحيزة التي يرثها المرء مع التقاليد^(١) .

ويضيف الغريب الإيلي بعد ذلك أن أهم هذه الصفات الست هي صفة الجدل ؛ ثم يوجه نقداً لاذعاً للسفسطائيين يقوم على أساس فلسفي ، وخلاصته أن السفسطائي يزعم العلم بكل شيء ، لأنه يعلم كل شيء ، وهذا شيء لا يمكن أن يحسنه ولا أن يحصله ، ولذلك فإن المعرفة الموجودة عنده هي معرفة بالظاهر فقط لا بالحقيقة ، وهذا التمييز بين المعرفة الحقيقية والمعرفة الظاهرية هو الذي أصبح فيما بعد أساساً لتعريف السفسطة بأنها هي الحكمة « الموهبة » ، أي الحكمة التي تبدو عليها سياء الحقيقة وليست منها في شيء . إنه « يحاكي » الحقيقة ، فهو مقلد ، ومشبه ، وساحر أيضاً يخلب الألباب . ومن هنا كان فن السفسطائي شبيهاً بالرسام الذي يصنع بريشته صوراً تشبه الحقيقة ، ولكنها ليست الحقيقة .

(١) نلاحظ اتباع أفلاطون في بيان معنى السفسطائي طريقة « القسمة الثنائية » دائماً ، فالفن مكتسب ومبتدع ، والصيد اقتناس الحى أو غير الحى ، وهكذا .

حول محاوراة السفسطائى :

[١١٦] وقد أجمع النقاد المحدثون على أن محاوراة السفسطائى من المحاورات التى كتبها أفلاطون فى أواخر حياته ، فهى تأتى قبل السياسى وفيليبوس ثم النواميس ، وذلك على أساس أبحاث أسلوبية . ويرجح « تيلور »^(١) أن هذه المجموعة الأخيرة من المحاورات لم يكتبها أفلاطون إلا بعد إقامته الثانية فى صقلية ، أى بعد عام ٣٦٠ ق . م . وقد رأينا فى افتتاح المحاوراة أنه كان ينوى الكتابة عن ثلاثة موضوعات هى السفسطائى ، والسياسى ، والفيلسوف ، ولكن المحاوراة الخاصة بالفيلسوف لم تكتب قط . هناك إذن صلة وثيقة بين الشخصيات الثلاثة تستدعى التمييز بينهم ، وهذا ما فعله أفلاطون فى محاوراة السفسطائى ، واجتهد فى تحديد معنى هذه الشخصية حتى تتميز عن غيرها من الشخصيات . ومع أن المحاوراة لا تتحدث عن السفسطائى إلا فى المقدمة فقط ، وتنتم فى جملتها بسمة منطقية ، ونمضى فى نقد فلسفة بارمنيدس^(٢) ، إلا أن هذه المقدمة البسيرة تلقى ضوءا كبيرا حول هذا الموضوع الجديد الشائك ، ونعنى به ظهور طائفة السفسطائيين على مسرح الحياة اليونانية . وإذا كان أفلاطون فى عام ٣٦٠ ق . م . على أقل تقدير ، وهو العام الذى كتب فيه المحاوراة بوجه التقريب ، لم يستطع أن يجزم برأى حول تعريف السفسطائى ، فهذا دليل على صعوبة البحث والتحديد ، الذى نشأ من عدم استقرار السفسطائى

(1) Taylor : Plato, the man and his work. p 371

(٢) لنا رأى يخالف تيلور فى موضوع هذه المحاوراة ، هو أن نقد بارمنيدس ليس مقصودا بالذات هنا ، بل المقصود جدل جورجياس . وسنبين ذلك عند الكلام على جورجياس فيما بعد .

على صفة معينة ، وعلى التطور السريع لهذه الطائفة التي ظهرت في النصف الأخير من القرن الخامس لضرورات اجتماعية وسياسية وثقافية .

شخصية السفسطائي واسمه :

[١١٧] مهما يكن من شيء فقد ظهرت شخصية جديدة أطلق الناس عليها اسم السفسطائي . ويقول في ذلك « جومبرز » : « كان الإغريق يفضل أن يتعلم سماعاً على أن يأخذ العلم عن طريق الكتب . وأخذ الشاعر يحتفى شيئاً فشيئاً ليحل محله وجهٌ جديد . ذلك هو « السفسطائي » الذي كان يلبس في أولمبيا وفي كل مكان العبادة الأرجوانية نفسها التي كان يلبسها الشاعر ، ويحضر الأعياد العظيمة نفسها ، ويلقى خطباً مبتكرة ومواعظ بدلاً من القصائد القديمة التي كانت تصور البطولة » ^(١) .

كان السفسطائي إذن يمتاز بلبسة خاصة تميزه عن غيره من الناس ، وتطبعه بطابع خاص ، إلى جانب المميزات الأخرى التي سوف نذكرها فيما بعد .

ويسمى السفسطائي باللغة اليونانية سوفستيس Sophistes وهي لفظة مشتقة في الأوضح من سوفوس sophos بمعنى حكيم . والسفسطائي هو الحاذق أو الماهر في فن من الفنون ، ولذلك أطلق على كبار الشعراء والفلاسفة والموسيقين بل على الحكماء السبعة ^(٢) . ولم يكن الاسم في أول أمره بغضاً ، وإلا فلم يكن بروتاجوراس والذين

(١) جومبرز : مفكرو الإغريق — الجزء الأول ص ٤١٢ . ويشير المؤلف هنا إلى هيباس بوجه خاص ، ولنا نعرف أن جميع السفسطائيين يمتازون بيزة خاصة أم لا .

(٢) يطلقه بندار على الشعراء ، وأوربيدس على الموسيقين ، وهيرودوتس على الحكماء السبعة ، وأبقراط على الفلاسفة الطبيعيين .

عاصروه وجاءوا بعده مباشرة يختارون هذا الاسم عنوانا عليهم . أما المعنى البغيض ، والذي شاع عند أرسطو وفي عصره ، فلا ينطبق على الرعيل الأول من السفستائيين مثل بروتاجوراس وجورجياس وبروديقوس .

مهاجمة السفستائيين :

[١١٨] أما المعنى الفنى الذى يدل على العلم المحترف فلم يشع إلا فى أواخر القرن الخامس ، بعد أن انتشرت حركة المعلمين فى أنحاء المدن اليونانية ، وامتازوا بالتجول ، والوفود بوجه خاص إلى أثينا ، وأخذ الأجر على التعليم .

وهناك أسباب أربعة يفسر بها « جومبرز » تحول الناس عن السفستائيين وشيوع المعنى البغيض عنهم . الأول أن كل محاولة لاستجلاء غوامض الطبيعة وكشف أسرارها كانت تقابل بعدم الثقة من أهل التقوى والورع الذين كانوا يتمسكون تمسكا قويا بالدين والتفسيرات التى جاءت فى الأساطير ونسبت إلى الآلهة اليونانية . ولذلك كان الفلاسفة الطبيعيون بعيدين عن روح الشعب ، فلما ذاع عن أنكساجوراس تفسيره الأجرام السماوية بأنها حجارة حوكم من أجل ذلك . حتى إذا تناول السفستائيون بالبحث الأمور الإنسانية ، مثل أصل اللغة والأخلاق وقوانين الدولة ، أصبحوا أكثر تعرضا لكره الشعب وبغض المحافظين . والثانى أن اليونانى كان يحترم النزعة الأرستقراطية ، وينزل أصحاب الحرف الذين يتناولون الأجر منزلة أدنى . ومن المعروف أن أهل أثينا كانوا ينقسمون ثلاث طبقات على التوالى ، طبقة المواطنين ، والأجانب ، والأرقاء . وكان السفستائيون أجنب عن أثينا ، فضلا عن تناولهم الأجر . والثالث أن القادرين على دفع الأجر هم القلة قليلة من

الأغنياء القادرين ، وأصبح جمهور الشعب محروماً من ذلك التعليم ، ففقد بذلك سلاحاً قوياً يحتاج إليه في التعبير عن أفكاره والدفاع عن آرائه . والسبب الرابع معارضة شخصية من أقوى الشخصيات في تاريخ الفكر وهى شخصية سقراط ، ثم تبعه أفلاطون في المحاورات ، فكان في ذلك القضاء المبرم عليهم ^(١) .

معارضة سقراط :

[١١٩] والمعروف أن سقراط كان معاصراً للسفسطائيين ، ولكنه عارضهم في قولهم بإمكان تعليم الفضيلة ، وعارضهم أكثر من ذلك في أنه لم يتناول أجراً على التعليم . وكيف يأخذ أجراً على شيء يعترف أنه لا يملكه ، فقد أثر عنه قوله : إنه لا يعرف إلا شيئاً واحداً وهو أنه لا يعرف ، وكان يزعم الجهل ويناقش الذى يحاوره ممن يدعى العلم حتى يوقعه في التناقض ، ويبين له جهله . ويذهب سقراط إلى أن الشخص الذى يملك العلم لا يستطيع أن ينقله لغيره ، ولذلك لا يستحق أجراً . ولكننا نجد في محاوره السحب لأرسطوفان ^(٢) وهى التى مثلت عام ٤٢٧ ق . م ، أن سقراط صاحب مدرسة يعلم صناعة المغالطة . فهذا شخص وقع في الدين ولا بد من وفائه ، فيذهب إلى مدرسة سقراط يتعلم صناعة البيان ليتخلص من الدين أمام المحكمة . ولم يكن سقراط صاحب مدرسة ، ولم يؤثر عنه تناول الأجر على التعليم ، ولكن أرسطوفان اتخذ عنواناً على السفسطائيين لشهرته في أثينا ، وانغرابه أطواره . فهذا

(١) جومبرز : مفكرو الإغريق ، الجزء الأول ص ٤١٦ - ٤١٨ .

(٢) انظر كتاب « في عالم الفلسفة » ص ٢٨ - ٣٣ ، تأليف أحمد فؤاد الاهوانى ، حيث يوجد ملخص هذه التمثيلية . ولا يعد النقاد هذه التمثيلية مصدراً من مصادر فلسفة سقراط ، لأن أرسطوفان لا يصور حقيقته بمقدار ما يتخذ منه مادة للفاكهة . وفيها نجد سقراط مشتغلاً بالعلم الطبيعى وهذا صحيح لأنه ابتداءً في شبابه يتعلم هذا العلم ، ثم عدل عنه ، كما يروى أفلاطون في محاوره فيدون

زينوفون في مذكراته يتحدثنا أن سقراط وأنطيفون السفسطائي كانا يتحاوران ، فقال أنطيفون لسقراط: « إني لأعدك رجلاً عادياً يأسقراط ، ولكذلك لست بأى حال حكيماً ويبدو لى أنك مدرك لذلك . لأنك لاتطلب مالا من أى شخص يلتحق بك ، مع أنك إذا اعتبرت عباءتك أو منزلك أو أى شىء آخر تملكه ذا قيمة ، فإنك لن تهيه لأى شخص بدون مقابل ، بل تقتضيه ثمنه كله . فمن الواضح إذن أن علمك إذا كان يساوى شيئاً فينبغى أن تأخذ عليه من الأجر ما يساويه . . . » فهذه شهادة أحد السفسطائيين فى سقراط ، وأنه كان يأبى تناول الأجر على التعليم . ولننظر الآن فى جواب سقراط ، وكيف كان يعد أخذ الأجر ضرباً من « البغاء » العلمى ، قال :

« نحن نعتقد فيما بيننا يا أنطيفون ، أنه من الممكن استغلال الجمال أو الحكمة على السواء بشرف أو مع عدم الشرف ؛ ذلك أن أحداً إذا باع جماله بالمال لمن يطلب شراءه قالت الناس عنه إنه عاهر أو بغي ذكر . أما إذا اتخذ المرء صديقاً ممن يعجب بالفضيلة والشرف ، فنحن نعدّه حكيماً . وعلى هذا النحو أولئك الذين يبيعون حكمتهم بالمال لكل من يشتريها منهم يقال عنهم سفسطائيون ، فكأنهم بغايا للحكمة . أما من يتخذ له صديقاً يعرف أنه يستحق الصداقة ، فيعلمه جميع الخير الذى يعرفه ، فإنه يسلك السبيل الذى يجعل منه مواطناً صالحاً شريفاً . . . (١) » .

وهنا نضع أيدينا على محور الخلاف بين سقراط والسفسطائيين ، نفنى تكوين المواطن الصالح ، أو النظر إلى صالح الدولة ، أو المدينة باصطلاح اليونانيين . وهذا البحث هو الذى أصبح حجر الزاوية فى فلسفة أفلاطون ، فكتب من أجله أعظم كتبه : الجمهورية والنواميس .

سياسة المدينة:

[١٢٠] والمدينة تكون فاضلة بأهلها وقوانينها ، أى بالإنسان الذى يعيش فيها ، ويسلك سبيل الخير ، ولا يفسد فى الأرض ، ويعمرها بالعمل الصالح . وقد ظهر التفكير فى المدينة ، وفى الإنسان الذى يعمرها ، وفى القوانين التى تخضع لها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، عقب انتشار الديمقراطية التى تفسح المجال لكل مواطن فى المدينة أن يشترك فى حكمها اشتراكا فعليا ، وأن يبدى رأيه فى قوانينها . ولم يكن الأمر كذلك إبان الدكتاتوريات المستبدة فى القرن السادس . أما منذ القرن الخامس ، منذ دستور كليستينس الذى بدأ العمل به عام ٥٠٧ ، فقد أنشئت جمعية تشريعية تتكون من مجموع المواطنين المذكور بالمدينة ، وإلى جانب هذه الجمعية يقوم مجلس تشريعى منتخب ، وكذلك محكمة قضائية ^(١) . ولم يكن اشتراك الشعب قاصرا على الحكم والقضاء فقط بل على الفنون أيضا ، إذ كانت تنتخب هيئة من عشرة أشخاص للحكم على أحسن التمثيلات . وسادت هذه الروح الديمقراطية معظم المدن الإغريقية ، ولكنها فى أثينا كانت أعظم . هذا إلى أن أثينا أصبحت قبلة الأنظار ، وامتازت فى عهد بركليس بسمو حضارتها فى شتى نواحي الفنون والآداب ، وهذا هو السر فى تدفق العلماء من كل فن على تلك المدينة ، وفى ورود طائفة المعلمين إليها يعلمون أهلها صناعة الكلام وفن البلاغة لحاجة المواطنين إلى هذا الفن فى التقدم إلى الانتخابات . لذلك كان ظهور السفسطائيين الذين يعلمون الناس الخطابة وفنون السياسة ، ونعنى بالسياسة حكم المدينة ، استجابةً لحاجة اجتماعية ، وصدى للعصر نفسه .

فقد كانت حاجة الأغنياء إلى التعلم شديدة لتحقيق أغراضهم الخاصة ، وعلى

(١) انظر كتاب تطور الفكر السياسى تأليف ساباين وترجمة حسن جلال العروسى ص ٥ وما بعدها .

رأسها التخلص من الاتهامات التي توجه إليهم أمام المحاكم الشعبية ، فكان لابد لهم من إتقان فن الخطابة والجدل ، للدفاع عن وجهة نظرهم ، وكسب قضاياهم . يضاف إلى ذلك أن امتلاك ناصية البيان يجعلهم يقبضون على أزمة الانتخابات ، فيفوزون بالمقاعد ، ويستأثرون بالسلطان .

وإذ كانت هذه هي حال الدولة اليونانية من مشاركة جميع المواطنين في المدينة في الحكم ، فلا بد من تهيئة أهلها لهذه المشاركة ، وذلك بضرب من التعليم يلائم هذا الاشتراك الفعلي . ولهذا السبب أنشئت المدارس من قديم في بلاد اليونان ، وكتب الفلاسفة فيما بعد يحددون التربية وأغراضها ومناهجها ، كما فعل أفلاطون في الجمهورية وأرسطو في السياسة . ومن جملة أغراض التربية معرفة « قوانين » المدينة .

الطبيعة والتقاليد :

[١٢١] وكان الفلاسفة الطبيعيون في القرن السادس يسعون إلى معرفة القانون الطبيعي الثابت الذي تخضع له الأشياء . وكانوا يسمون هذا القانون « الطبيعة » . فلما أخذ المفكرون يهتمون بالأمور الإنسانية تساءلوا أتخضع هذه الأمور لقانون ثابت ، ولها طبيعة كالأشياء الطبيعية ، أم تختلف عنها وتخضع للعرف والتقاليد . ومن هنا نشأ التقابل بين الطبيعة والتقاليد ، أما الطبيعة فقوانينها ثابتة على الرغم من التغير الذي يلحق الأجسام الحية وغير الحية ، فالشجرة تكون بذرة وتنمو ثم تزدهر وتموت بعد ذلك طبقا لنظام ثابت . وقد تساءل الطبيعيون الأولون عن « المادة الأولى » التي تعد الجوهر الثابت وراء التغير الظاهر . غير أن سائر الفلاسفة الطبيعيين كانوا يخلعون على الأشياء الطبيعية الصفات الإنسانية ، التي تعلموها عن الأساطير الإلهية ، وبخاصة صفة « العدل » . ولكن الفلاسفة أخذوا يتخلصون شيئا

فشيئاً من هذه الأفكار الأسطورية، وشرعوا يميزون تمييزاً واضحاً بين الأشياء الطبيعية وبين مظاهر السلوك الإنساني . وساعد على ذلك ظهور طائفة من الكتاب أخذوا يصفون الشعوب المختلفة ونظمهم التي يخضعون لها ، ونخص بالذكر منهم هيروdotus الذي طاف بكثير من المدن والدول ، ووفد إلى مصر وذهب إلى بابل والفرس ، ودوّن ما شاهده وسمعه من أخلاق أهل تلك المدن وعاداتهم وتقاليدهم ودياناتهم ونظمهم في الحكم ، فلمس بذلك اليونانيون أنّ التقاليد متغيرة ، وهى من وضع الإنسان ، على عكس الأشياء الطبيعية الثابتة في كل مكان ، فالنار تشتعل وتحرق في فارس كما تشتعل وتحرق في أثينا ، والشجرة تنمو في مصر كما تنمو في صقلية .

انتصار أثينا على الفرس

[١٢٢] يضاف إلى ذلك أن اليونانيين لم يتأثروا بكتابات المؤرخين ومشاهداتهم فقط ، ولكنهم أحسوا بقدرتهم الإنسانية في تلك التجربة الواقعية التي هزموا فيها الفرس هزيمة منكرة عام ٤٨٠ ق . م . وفي ذلك يقول باركر في كتابه « نظرية الإغريق السياسية ^(١) » : ويمكن أن نلاحظ أن الحروب الفارسية أصابت سلطان دلفي بضرر بات ثقيلاً ، وكان لها أثر كبير في إضعاف نير الدين على العقل اليونانى . فقد وقف أبوللون محايداً في خزى . ويقول زيمرن فيما ينقل عنه باركر : « لقد كان الفضل للناس لا للآلهة في إنقاذ بلاد اليونان . وحلت النزعة الإنسانية محل الدين . وأخذ سوفوكليس ينشد في تمثيلية أنتيجونا قائلاً : الإنسان من بين الأشياء القوية أقواها جميعاً . . . لقد علم نفسه الكلام ، والتفكير السريع ، وسكنى المدائن » .

وعرض أرسطو في كتاب السياسة لأثر الحروب الفارسية في تحرير الفكر ، والحث على الدراسة ، واعتزاز الإغريق بنفسه واستقلال شخصيته ، فقال بصدد النهى عن

تعليم الزمار ما يأتي : « كان القداماء على حق في تحريم العزف على الزمار على الشباب والأحرار ، ولو أنهم أباحوا ذلك في بعض الأحيان . ذلك أنهم عندما حصلوا ثروة تميل بهم إلى الفراغ ، وأحسوا بامتيازهم ، كما اعتزوا بأنفسهم قبل حرب الفرس وبعدها ، أقبلوا في حماسة على البحث في سائر ضروب المعرفة بغير تمييز بينها ، وهكذا أدخلوا الزمار في جملة التعليم . . . » ^(١)

ثم حدثت التغييرات السياسية عقب حرب الاستقلال ، واكتسبت أثينا منزلة كبيرة بين المدن اليونانية لحسن بلاؤها في الدفاع عن الوطن ، وأصبح المجلس التشريعي في أثينا والمجالس الديمقراطية الأخرى منابر يعبر فيها الشعب بحرية عن أفكاره ، ويثبت مقدرته على التفكير . وفي ذلك يقول باركر : « كانت مهمة السفساثيين أن يعبروا عن هذا الوعي الجديد وأن يشبعوا الحاجة العملية إلى أفكار جديدة وإلى أسلوب جديد يقدمون فيه هذه الأفكار » ^(٢) .

تشعب تعاليمهم :

[١٢٣] فلا غرابة أن نجد بروتاجوراس يلخص هذه النزعة الجديدة في عبارته المشهورة : « الإنسان مقياس الأشياء جميعا » . واتجه السفساثيون إلى تعليم جميع العلوم الإنسانية ، في مقابل العلوم الطبيعية التي كانت محور البحث في القرن السادس وأوائل الخامس . فكان منهم اللغويون الذين يبحثون في أصل اللغة وأسرارها أمي من ابتكار الإنسان أم من خلق الطبيعة ؛ ومنهم المناطقة الذين

(١) السياسة ١٣٤١ ، ١ ، ٢٥ - ٣٢ .

(٢) باركر : نظرية الإغريق السياسية ، ص ٥٧ .

ينظرون في استخلاص النتائج من المقدمات ، وفي تركيب العبارة ؛ ومنهم الأدباء الذين يشرحون أشعار هوميروس وهزiod ؛ ومنهم الخطباء مثل جورجياس الذي كان يخلب الألباب بسحر البيان ؛ ومنهم من كان يبحث في الأخلاق والسياسة والفن والفلسفة الطبيعية . ولذلك يصعب أن نحدد العلوم التي كان السفسطائيون يقومون بتعليمها لتنوعها وتعددتها ، فلم تقف مهارتهم عند حد العلوم النظرية فقط ، بل منهم من كان يحذق الصناعة أيضا ، فهذا هيباس ظهر في الألعاب الأولمبية يلبس أردية كلها من صنع يديه ، وكان إلى ذلك شاعرا ورياضيا ، وراويا للأساطير ، وخبيرا بالفنون ، ومؤرخا ، وسياسيا .

لهذا السبب لم يتفق السفسطائيون إلا في صفة واحدة اجتمعوا حولها هي أنهم معلمون متجولون يتناولون الأجر على التعليم .

رأى زللر :

[١٢٤] ويذهب زللر^(١) إلى أن الأصل في نشأة السفسطائية هو الموازنة بين التقاليد وصور الحياة المختلفة ، بعد اتساع رقعة اليونان ، ورحلة رجالها إلى شتى البلاد ، واتصالهم بالأجانب ، وإطلاعهم على الحضارات المختلفة ، مما أثار في أنفسهم التساؤل عن الحضارة أهي من خلق الإنسان أم من صنع الآلهة . ولذلك لم يكن ظهور أبرز ممثل لها وهو بروتاجوراس من أطراف البلاد اليونانية مجرد اتفاق ، لأن موطنه الأصلي كان على صلة بحضارات كثيرة .

ويضيف زللر إلى ذلك أن السفسطائية تختلف عن الفلسفة الطبيعية في الموضوع

(١) زللر : تاريخ الفلسفة الإغريقية ، ص ٧٦ وما بعدها .

والمهيج والغاية . فالسفسطائية فلسفة حضارة لاطبيعة ، وموضوعها الإنسان وحضارته التي أبدعها من دين ولغة وفن وشعر وأخلاق وسياسة . ومنهج الطبيعيين قياسي يستخلص النتائج من المبادئ التي يضعونها ؛ أما منهج السفسطائيين فتجريبي استقرائي إذ حاولوا جمع أعظم قدر ممكن من المعرفة في كل ناحية من نواحي الحياة ، وذلك بملاحظة أخلاق الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم . وغاية الفلاسفة الطبيعيين المعرفة لذاتها ، ولذلك كان بحثهم نظريا ، ولا بأس أن يجعلوا من تلاميذهم فلاسفة ؛ أما غاية السفسطائيين فعلية ، ولا وجود لهم إلا بالإضافة إلى تلاميذهم الذين يتعلمون عنهم فن الحياة والسيطرة عليها ، ومع ذلك لا يتخرج على أيديهم تلاميذ يخلفونهم في السفسطائية .

تطور السفسطائية :

[١٢٥] ولم تكن لهم مدارس يختلف إليها التلاميذ ، بل كانوا ينزلون في بيوت أغنياء أثينا مثل كالياس الذي نزل عنده بروتاجوراس ، وكاليكليس الذي نزل عنده جورجياس . وينتبهز صاحب الدار هذه الفرصة فيدعو أصحابه للاستماع إلى حديث السفسطائي وحواره . وفي بعض الأحيان كانوا يلقون محاضرات في أما كن عامة لقاء أجر للدخول . وكانوا ينتهزون فرصة الألعاب الأولمبية والأعياد اليونانية ليعرضوا فهمهم على الوافدين من جميع المدن ، كما كان يفعل شعراء الجاهلية في سوق عكاظ .

ولم يكن حال السفسطائيين في أول أمرهم من مثل بروتاجوراس وجورجياس حال المغالطين طلاب المال بأي سبيل ، بل كانت لهم منزلهم ، ولهم وجهة نظرهم الفلسفية ، وقد كتب عنهم أفلاطون في محاوراته يوقرهم ؛ ولكن الطبقة الثانية التي

ظهرت بعد ذلك في أوائل القرن الرابع وكانوا معاصرين لأفلاطون وأرسطو لم يبلغوا منزلة الرعيل الأول ، ولم تكن لهم فلسفة عميقة ، واقتصروا على اقتناص المال عن طريق أخذ الأجر على التعليم .

لهذا السبب عرفهم أرسطو بقوله : « والسوفسطائي بعينه معناه أنه متراء بالحكمة بانتحاله الحكمة وليست حكمة بالحقيقة » ^(١) ويضيف أرسطو بعد ذلك : « والسوفسطائي هو الذي يكسب المال من الترائي بالحكمة وليست حكمة بالحقيقة » ^(٢) وأخذ ابن سينا المعنى نفسه فقال في كتاب السفطة من الشفاء ما نصه : « فالسوفسطائي هو الذي يتراءى بالحكمة ، ويدعى أنه مبرهن ، ولا يكون كذلك ، بل أكثر ما يناله أن يظن به ذلك » .

وبذلك أصبحت السفطة مرادفةً للغالطة ، واكتسبت هذا المعنى البغيض . وسوف نتكلم عن بعض أوائل السفطائيين ممن كان لهم أثر في تاريخ الفكر ، ومنزلة في بلاد اليونان .

(١) عن الترجمة القديمة — نشر عبد الرحمن بدوي في منطق أرسطو الجزء الثالث ص ٧٤٧ .

(٢) أرسطو : السفطة ، ١٦٥ - ٢٠١ - ٢٢ .

حياته :

[١٢٦] نشأ بروتاجوراس في مدينة أبديرا التي كانت مقراً لديمقريطس والمدرسة الذرية . وليس هناك شك في صلته بتلك المدينة لأن أفلاطون في محاوره « بروتاجوراس » ينسبه إلى أبديرا كما ينسب كل واحد من الحاضرين إلى مدينته . وتعد هذه المحاوره أوثق مصدر عن حياته ، لأن أفلاطون كان قريب العهد به . وأكبر الظن أن زمان المحاوره يقرب من عام ٤٣٢ ق . م : لأن بارألس واكراتيبوس ابني بركليس كانا من جملة الحاضرين في بيت كاليبس الذي دارت فيه المحاوره . ولما كان نجلا بركليس قد توفيا عام ٤٢٩ ، فقد رجح النقاد أن يكون زمان المحاوره قبل نشوب الحرب البلو بونية مباشرة أي ٤٣٢ .

وفي المحاوره إشارة على لسان بروتاجوراس يقول فيها : إنه بالنظر إلى سنّه فهو كالوالد لجميع الحاضرين ، وكان عمر سقراط في ذلك الحين سبعة وثلاثين عاما ، فيكون بروتاجوراس قد وُلِدَ حول ٤٩٠ ق . م ، ولو أن « تيلور » ^(١) يحدد مولده سنة ٥٠٠ ، ويجعله معاصراً لأنكساجوراس ، ويعترض على المؤرخين الإسكندرانيين الذين يجعلون مولده حول عام ٤٨٥ ق . م ، ويثق في رواية أفلاطون ولا يجد سببا لرفضها . ونحن نميل إلى تأييد هذا التاريخ لأنه يسمح بقبول الرواية القائلة بأن بروتاجوراس تلقى العلم على أيدي محوس الفرس الذين كانوا بصحبة الملك إجزرسييس

(١) تيلور أفلاطون ، الرجل ومذهبه ص ٢٣٦ - وانظر برنت في كتابه الفلسفة الإغريقية من طاليس إلى أفلاطون ص ١١٠ ، حيث يجعل مولده حول هذا التاريخ أيضا

عام ٤٨٠ ق . م . وكان أبوه من أغنياء مدينة أبديرا وخدم إجزرسييس في غزوته لليونان ، وحصل في مقابل ذلك على السماح بتعليم ابنه على يد المجوس . وتذهب بعض الروايات الأخرى التي يحكيها أبيقور إلى أن بروتاجوراس نشأ نشأة فقيرة ، وكان في صباه عاملا محتطب الأخشاب ، وبقية ديمقريطاس^(١) فأعجب به وألحقه معه تلميذا ، وعلمه الفلسفة . مهما يكن من شيء فلسنا نعرف شيئا وثيقا عن حياته الأولى سوى أنه من أبديرا .

ثم أخذ في سن الثلاثين يتجول في أنحاء المدن اليونانية يعلم بالأجر ، وكان يتناول أجراً مرتفعاً فجمع بذلك ثروة كبيرة . فنحن نقرأ في افتتاح محاضرة بروتاجوراس أن أبقرات الشاب ابن أبولودورس ذهب إلى سقراط في بيته وأخبره بوجود بروتاجوراس في أثينا ، وطلب منه أن يصحبه إليه ليكون وسيطا في قبوله تلميذا . فقال له سقراط : « إذا دفعت له مالا وصادقته لجعلك حكما كنفسه » فأجاب أبقرات : « إني لأود ذلك بحق السماء ! فليأخذ كل ما أملك وكل ما يملك أصدقائي إذا شاء » . ويقال : إن التلميذ لم يكن ملزما بدفع الأجر إذا لم يجد أن التعليم الذي تلقاه جديرا بذلك الأجر . ويقول سقراط في محاضرة مينون إن بروتاجوراس اكتسب من مهنته أكثر عشر مرات من فيدياس المثال المشهور .

وقد زار أثينا ثلاث مرات^(٢) ، الأولى عام ٤٤٤ ، والثانية عام ٤٣٢ عند ما نزل في بيت كاليبس ، والأخيرة بعد ذلك بعشرة أعوام . واستقبله بركليس في المرة الأولى وتناقشا في مسائل قانونية وسياسية .

(١) إذا اعتمدنا مولد بروتاجوراس وأنه عام ٥٠٠ يصبح من البعيد أن يكون تلميذا لديمقريطس .

(٢) أغلب المؤرخين يجعلون زيارته أثينا مرتين فقط .

ومما يروى عنه أيضا أن كتابه الذى ألفه عن الآلهة أثار شعور الأثينيين فحوكم من أجل ذلك وصدر الحكم عليه بالنفى ، وبإحراق كتبه فى ساحة المدينة ، وذلك عام ٤٤٤ ق م . ويهدم هذه الرواية ما ذكره أفلاطون عن بروتاجوراس من أنه توفى : « وقد ناهز السبعين من العمر بعد أن أنفق أربعين عاما يزاول مهنته ، وتمتع خلال هذه الفترة بسمعة عظيمة ، لا يزال يتمتع بها حتى اليوم .^(١) » . ولكننا نجهل أين ومتى توفى .

كتبه ونصوصه :

[١٢٧] وله كتب كثيرة ، أهمها كتاب عن « الحقيقة » وهو الذى قال فى افتتاحه : « الإنسان مقياس الأشياء جميعا » . وبقيت بعض النصوص من كتابه عن « الآلهة » . وله كتب أخرى يذكر أسماءها ديوجين لايرتوس ، منها الحجلة الكبرى ، وفى الحجج المتناقضة ، وفى الوجود وهو الذى يزعمون أن أفلاطون اقتبس أول الجمهورية منه ، وفى الرياضيات ، وفى أصل البناء الاجتماعى ، وفى الطمع ، وفى الفضائل ، وفى أخطاء البشر ، وفى الدساتير .

غير أن النصوص الباقية قليلة جدا ، وليس أمامنا صورة وافية لآرائه إلا محاورات أفلاطون ، ولذلك ينقسم المؤرخون فى أمره قسمين : أحدهما يعتمد على النصوص اليسيرة الباقية ويقيم عليها فلسفته ، والفريق الثانى يعتمد على محاورات أفلاطون ، لأن النصوص غير كافية . وهذه هى ترجمة بعض النصوص ، عن كتاب فريمان .

(١) [عن كتاب « الحقيقة » أو « الحجاج النافية »] الإنسان مقياس الأشياء

جميعا ، فهو مقياس وجود ما يوجد منها ، ومقياس لا وجود ما لا يوجد .

(٢) [عن كتاب « في الوجود »] قال فروريوس : لم تبق من كتابات السابقين

على أفلاطون إلا عبارات قليلة ، ولو بقي منها أكثر من ذلك فقد يمكن أن تكشف عنده سرقات أكثر . مهما يكن من شيء ، ففي الموضوع الذي كنت أقرأ فيه كتاب بروتاجوراس « في الوجود » ، رأيت أن الحجة التي يسوقها ضد أولئك الذين يجعلون الوجود واحدا هي العبارات النافية نفسها التي يستعملها أفلاطون . ذلك أني أخذت أوازن بينهما لفظة لفظة .

(٣) [من كتاب بعنوان « العقل الكبير »] يحتاج التعليم إلى الموهبة والممارسة .

يجب أن يبدأ التعلم من الصغر .

(٤) [من كتاب « في الآلهة »] لا أستطيع أن أعلم إذا كانت الآلهة موجودة

أو غير موجودة ، ولا هيئتها ماهي ، لأن أمورا كثيرة تحول بيني وبين هذه المعرفة : غموض الموضوع ، وقصر العمر .

فنحن نرى أننا لا نستطيع تكوين نظرية كاملة من هذه النصوص . أما اتهام

فروريوس فيبدو أنه لا يستند إلى أساس ، فقد كانت كتب بروتاجوراس متداولة في زمان أفلاطون ، ولم يكن يستطيع أن يسرق منها دون أن يكتشف أمره ، فضلا عن أن أفلاطون ليس الفيلسوف المغمور الذي يعتمد في فلسفته على غيره .

وقد اعترف ببعض كتب بروتاجوراس ونقدها ، ففي محاورة تيتياتوس يذكر افتتاح كتابه في « الحقيقة » الإنسان مقياس الأشياء جميعا ، ويحكى على لسان سقراط انتقاد هذه النظرية بقول سقراط : إني معجب بمذهبه القائل بأن ما يظهر هو حق بالنسبة لكل شخص يظهر له ذلك ، ولكني أعجب لماذا لم يستهل كتابه « في الحقيقة »

بعبارة أخرى هي أن الخنزير أو القرد أو أى حيوان آخر يمتاز بالإحساس بقياس الأشياء جميعاً^(١).

المعرفة :

[١٢٨] وهناك إشارات كثيرة في محاورات أفلاطون إلى هذا الكتاب الذى يعترف تيتياتوس أنه قرأه أكثر من مرة ، مما يدل على أنه كان متداولاً معروفاً . وهذه العبارة تلخص مذهبه فى المعرفة ، وتقييمها على الحواس . ويمكن أن نلخص المبادئ التى تقوم عليها نظرية بروتاجوراس فى المعرفة فى أمور ثلاثة :

١ - الإحساسات صادقة وهى معيار الحقيقة .

٢ - المعرفة نسبية .

٣ - الوجود متوقف على المدرك .

يسأل سقراط تيتياتوس : « ما المعرفة ؟ » فيجيبه بقوله : إن الذى يعرف يدرك ما يعرف ، فالمعرفة هى الإدراك الحسى ، أو الإحساس^(٢) Aisthesis . فقال له سقراط : إنك حين تعتمد أن المعرفة هى الإحساس إنما تأخذ برأى بروتاجوراس الذى يصوغ القضية بعبارة أخرى وهى : « الإنسان مقياس الأشياء جميعاً » . ويقول بروتاجوراس فى كتابه : « إن الأشياء هى بالنسبة لك كما تبدو لك ، وبالنسبة لى كما تبدو لى ، وأنت وأنا ناس » . ثم أخذ فى امتحان هذه القضية ، وضرب سقراط مثلاً بريح تهب ، فيشعر أحدهما بالبرد ولا يشعر الآخر ، أو يشعر واحد ببرودة شديدة والآخر ببرودة أخف .

(١) تيتياتوس ١٦١ . (٢) ما باللغة الانجليزية perception, sensation .

وانتقل الحوار بعد ذلك إلى موضوع النسبي والمطلق ، فلا توجد أشياء مطلقة ، ولا يقال عن شيء إنه كبير أو صغير ، ثقيل أو خفيف ، لأن الكبير يكون صغيراً بالنسبة إلى شيء أكبر منه ، وأن الأشياء جميعاً في صيرورة وحركة . ومن الواضح أن سقراط يشير هنا إلى مذهبي بارمنيدس وهرقليطس .

ثم يعرض سقراط نظرية ميتافيزيقية تدور على أن وجود الأشياء يتوقف على المدرك لها ، فيقول : « إذا سلمنا أنه لا شيء يوجد بذاته لرأينا أن الأبيض والأسود وسائر الألوان الأخرى تنشأ من العين التي تلتقي بالحركة المناسبة ، وأن ما نسميه اللون ليس عنصراً فاعلاً أو منفعلاً ، ولكنه شيء بين ذلك ، ويختص بكل شخص مُدْرِك » . [نيتيانوس ١٥٤] .

هذا التفسير الميتافيزيقي هو الذي ينحو جومبرز نحوه ، فيقول : إنَّ المقصود بالإنسان في عبارة بروتاجوراس ليس محمداً أو علياً أو فاطمة بل جنس الإنسان ، وأنه ليس مقياس الصفات للأشياء بل مقياس وجودها . ذلك أن بروتاجوراس كان يعارض الفلسفة الإبلية في الوجود ، تلك الفلسفة التي نفت شهادة الحواس ، وجعلت منها موضعاً للظن فقط ، أما الوجود الحقيقي فلا يدرك بالحس . وعلى العكس من ذلك يقيم بروتاجوراس الوجود على المعرفة التي تبدأ من الحواس ^(١) .

وتقول كاثلين فريمان : « وقد فهم من العبارة كذلك أن الأشياء لا توجد إلا حين يدركها مُدْرِك ، ويبدو أن هذا يتلاءم تلاؤماً أفضل مع منطوق العبارة بالفعل ، وبخاصة حين يؤخذ الإنسان على أنه النوع الإنساني لا الفرد . فجميع

الأشياء التي تبدو للإنسان أنها موجودة فهي موجودة ، وجميع الأشياء التي لا تبدو لأى إنسان موجودة فهي غير موجودة . وقد ناقش أفلاطون وأرسطو هذه النظرية ، وانتهى أفلاطون إلى التعجب لم جعل بروتاغوراس الإنسان مقياساً للوجود وليس الخنزير أو القرد أو أى حيوان آخر له إحساس » ^(١) .

ولنرجع إلى المحاورة حيث نجد سقراط يعترض اعتراضات جديدة ، أساسها الأحلام ، والأمراض ، والجنون ، وأنواع خداع الحواس . فنحن لا نعتقد فى أن الأحلام حقيقية وكذلك الخداع . ثم يضيف إلى ذلك : « كان ينبغى أن نقول لاشئ يوجد مما يبدو للحواس ، بدلا من قولنا الأشياء موجودة حين تبدو للحواس » . ^(٢) .

ثم كيف نحكم أننا الآن أيقاظ ولسنا نيام ؟ إذ من الممكن أن تكون المحاورة حلما يدور بين سقراط وتيتيانوس . كيف إذن يمكن الحكم على صدق الحواس ، لا فى اليقظة والنوم فقط ، بل فى حالة الجنون والاضطرابات الأخرى .

وهذا مثال آخر : سقراط وهو صحيح الجسم يختلف عن سقراط وهو سقيم ، ومن ثمّ تختلف إحساساته تبعا للصحة والمرض ، فالخمر التي يشربها وهو فى صحة جيدة تبدو حلوة ولذيذة ، ولكنه وهو عليل يحس بها مرة . ولكن الخمر ، وهى الشئ الخارجى ، واحدة ، ومع ذلك يتأثر بها تأثيرا مختلفا . هناك إذن علاقة بين المدرك والمدرك ، وتتغير هذه العلاقة مع اختلاف ظروف الشخص ، وليس لنا الحق فى معرفة الشئ معرفة مطلقة .

جملة القول ينتهى سقراط إلى أن مذهب السفطسائى فى الاعتماد على الحواس والوثوق بصحتها لا يؤدى إلى معرفة الحقيقة ، ويؤثر عليه طريق الفيلسوف الذى يبلغ المثل ، والمثل موجودة فى النفس وجوداً سابقاً ، ولذلك كان العلم عند أفلاطون تذكراً والجهل نسياناً .

أما أرسطو فإنه يجمع بين بروتاجوراس وبين الطبيعيين ، ويذكره بوجه خاص عقب هرقليطس وديمقريطس^(١) وأنبادقليس ، ويقول فى كتاب ما بعد الطبيعة^(٢) : « لا يختلف مذهب بروتاجوراس فى شئ عما ناقشناه . فقد زعم هذا الفيلسوف أن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً ، وبعبارة أخرى أن الحقيقة هى ما تبدو لكل شخص . فإذا كان الأمر كذلك ، كان الشئ ذاته موجوداً ولا موجوداً ، وحسناً وقبيحاً على حد سواء ، وأن جميع الأحكام الأخرى المتضادة صادقة على السواء ، ما دام الشئ نفسه فى الغالب يبدو جميلاً عند قوم ، وعلى الضد من ذلك تماماً عند آخرين ، وأن ما يبدو لكل شخص هو مقياس الأشياء . ويمكن حل هذه المشكلة إذا رجعنا إلى أصل هذا الاعتقاد . ويذهب البعض إلى أنها نشأت فى مذاهب الطبيعيين » ثم يقول بعد قليل ... « وبوجه عام ، من التناقض الاعتماد على الأشياء المحسوسة التى تتغير على الدوام ولا تثبت أبداً على حال فى الحكم على الحقيقة . ويجب أن نطلب الحقيقة معتمدين على الموجودات التى تظل دائماً هى ، ولا تخضع لأى تغير . . »^(٣)

وينتقد أرسطو المعرفة القائمة على الحواس لخالفها مبدأ العقل الأساسى ، وهو مبدأ عدم التناقض . فالمعرفة اليقينية عند أرسطو مستمدة من المبادئ العقلية

البينة بذاتها. أما الوجود الحقيقي، أو الوجود بما هو موجود، فلا يلتبس من الحسوس لأنها متغيرة، والعلم بهذا الوجود الحقيقي هو العلم بالماهية لا بالعوارض المتغيرة والصفات المدركة بالحس.

وقد كان بروتاجوراس يعارض المدرسة الإيلية، تلك المدرسة التي أرادت نفي الحركة والتغير بالحجج العقلية، كما رأينا عند زينون ومليسوس. فجاء بروتاجوراس وأراد أن يثبت أن الحججتين المتقابلتين صحيحتان معاً، وجعل عنوان كتابه كذلك. ونقل عنه فريريوس فقال: إنه أول مَنْ ذهب إلى وجود حجتين متناقضتين لكل شيء. ومن أجل ذلك انبرى له أرسطو يُسِّفُهُ رأيه على أساس مخالفته مبدأ عدم التناقض، وهو مبدأ عقلي بديهى.

فن السياسة والتقابل بين الطبيعة والتقاليد:

[١٢٩] وأشهر صفة لبروتاجوراس أنه سفسطائى يعلم بالأجر، وهذه هي الصورة التي نجدتها بارزة في المحاوراة المعروفة باسمه. وقد رأينا أن حضوره إلى أثينا كان حدثاً هاماً، جعل أبقرات يبادر إلى بيت سقراط ويوقظه من النوم. وفي استهلال المحاوراة يعرف سقراط السفسطائى بأنه الرجل الذى يبيع طعام النفس. فما هو هذا الطعام؟ أو بعبارة أخرى ماذا يعلم بروتاجوراس؟

ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن العصر الذى ظهر فيه بروتاجوراس هو عصر بركليس، أزهى عصور أثينا، وأن الديمقراطية كانت سائدة، وكانت حاجة المواطنين شديدة إلى تعلم فن السياسة. فالعلم الذى يقوم بروتاجوراس بتعليمه هو فن السياسة. ولكن هل يمكن أن يُعَلَّمَ هذا الفن؟ وهل يمكن أن نعلم الفضائل كذلك؟ لم يكن الأثينيون يعتقدون أن السياسة والفضائل المختلفة يمكن تعليمها، كما يتعلم

المرء صناعة النحت أو السفن أو التصوير أو الموسيقى . فهذه الصناعات كلها تحتاج إلى مَنْ يحذقها ، ويعرف أصولها وقواعدها ، ويستطيع أن يلقنها غيره . ولذلك حين يريد أحد الأثينيين أن يعلم ابنه العزف على القيثارة يرسله إلى الموسيقار ، وحين يريد أن يعرف شيئا حول أى فن من هذه الفنون يأبى أن يستمع إلا إلى المختص فيه الماهر به ؛ وليس كل أثينى مثالا أو مهندسا أو مصورا . وعلى العكس من ذلك فإن كل أثينى سياسى^١ ، وله الحق في التحدث عن الحكم والخوض في أمور المدينة ، ومعرفة وجه الحق والباطل ، والخير والشر ، والحسن والقيبح . وهذه هي نظرية سقراط التي ظل يبشر بها طول حياته ، نعى أن الفضائل النفسية موجودة في النفس بالفطرة وليس على المرء إلا أن ينظر في نفسه وأن يرجع إليها ليتبينها . ولكن بروتاجوراس يعارض هذه النظرية ، ويذهب إلى أن الإنسان لا يملك بالطبيعة شيئا من الفضائل ، ولا العلم بها ، ويحتاج إلى معلم يرشده إليها ويبصره بها ويلقنه إياها . ويضرب لذلك مثلا بأسطورة بروميثيوس . وتذهب الأسطورة إلى أن المخلوقات بعد أن تم خلقها أخذ إيميثيوس يوزع عليها الأسلحة المختلفة التي تعينها على الكفاح في الحياة ، ونال كل حيوان نصيبه ولم يبق شيء يهبه للإنسان ، فاضطر بروميثيوس أن يسرق من السماء النار والعلم بالصناعة حتى لا يبقى الإنسان ضعيفا بلا حيلة . ومغزى هذه الأسطورة أن الإنسان لا يعتمد في حفظ حياته على وسائل غريزية بل على العقل . ولم يجد الإنسان النار والعقل كافيين في حمايته في تلك المعيشة الطبيعية من عدوان الحيوانات ذوات البأس المسلحة بالأظفار والأنياب والمخالب ، فاضطر إلى الاجتماع في المدن . ثم تدخل زيوس فأرسل إلى البشر هرمس وأنعم عليهم بالعدالة dikê ، والكرامة^(١) aidôs ، وهما المبدآن في تنظيم المدن ،

(١) اللفظة اليونانية تدل على معان مختلفة ، منها التبجيل والاحترام Reverence ومنها الضمير Conscience ، ومنها الاعتدال Temperence ، فهي مزيج من الفضائل الخلقية التي أكثرنا التعبير عنها بلفظة الكرامة .

والرابطان اللتان تصلان بين الناس بالصدقة والمحبة . وسأل هرمس زيوس كيف يوزع العدالة والكرامة ؟ أيكون ذلك كالفنون التي يختص بها بعض الأفراد مثل الطب ، أو يوزعها على جميع الناس ؟ فأجابه زيوس : « إنى أود أن يكون لكل شخص نصيب منهما ، لأنه لا بقاء للمدن إذا استأثرت القلة بالفضائل كالفنون » .

لذلك كان كل مواطن في المدينة مكلفاً بالعدل وسائر الفضائل الأخرى لصالح الدولة . وإذا خرج أى شخص على العدالة أو الاعتدال حل به العقاب . والعقاب قد يكون تهذيباً للمجرم كما يكون إصلاحاً لغيره ، وهذا دليل على أن الفضائل يمكن أن تُعلم ، وأن الإنسان لا يولد خيراً أو شراً بالطبع .

الأخلاق والتربية :

[١٣٠] وحيث كان بروتاجوراس يعارض فكرة « الطبيعة » فإنه يذهب إلى أن سلوك الناس وأخلاقهم تخضع للنواميس Nomos ، أو للتقاليد والعادات الجارية في الاستعمال عند الجماعات المتحضرة . وليس للإنسان في حالة المعيشة الفطرية أخلاق ، وإنما تنشأ الأخلاق مع المدنية وتنفرد مع التقاليد . ومن أجل ذلك كان لا بد أن ينشأ المعلمون الذين يلتقون أهل المدينة الفضائل المختلفة ، إذ لو ترك كل شخص لنفسه ما استطاع أن يعلم نفسه .

ومن هنا كانت التربية لازمة لصالح المدينة . وتبدأ التربية من الصغر ، بطريق الآباء والمراضع والخدم الذين يعلمون الطفل أن هذا حسنٌ وهذا قبيح . ثم يذهب الطفل إلى المدرسة الأولية حيث يتعلم القراءة والكتابة ويأخذ عن الشعراء التعاليم الخلقية ، كما يتعلم بالرياضة البدنية الخشونة والرجولة وضبط النفس ، وهى فضائل

خلقية لازمة للكفاح والدفاع عن المدينة . حتى إذا تخرج في المدرسة ونزل إلى معترك الحياة ، تعلم من « شرائع » المدينة كيف يسلك في المجتمع ، وكيف يسوس ويساس ، وإذا انحرف عن القوانين نزل به العقاب . فنحن نرى إذن أن حياة الفرد في المدينة سلسلة من التربية الخلقية ، التي يلتقطها الفرد من البيئة ، أو يوجه إليها بواسطة المعلمين . فلا غرابة أن يكون بروتاجوراس هو الذى شق الطريق لأفلاطون في « الجمهورية » التي يبسط فيها نظاماً للتربية يهدف إلى تحقيق العدالة ، وتكوين المدينة الفاضلة . ومن أجل ذلك قيل إن أفلاطون سرق أفكاره عن بروتاجوراس ، والضواب أن يقال إنه احتذى خذوه ، وحل المشكلة بطريقة أخرى . ذلك أن التفكير في تحقيق العدالة ليس وفقاً على بروتاجوراس أو أفلاطون وحدهما ، بل هي مشكلة كل عصر وكل زمان حتى اليوم .

فإذا كان الأمر كذلك ، فما الذى يعيبه سقراط على بروتاجوراس ؟ الخلاف بينهما هو الخلاف بين السفسطائي والفيلسوف : ذلك أن بروتاجوراس يذهب إلى نسبية الأخلاق تبعاً لاختلاف شرائع المدن وتقاليدها ، أما سقراط فيطلب الخير المطلق مع قطع النظر عن العرف السائد في كل مدينة ، فالفضيلة عنده تقوم على المعرفة الثابتة كالعلم الرياضى سواء بسواء . أما الفضيلة التي يعلمها بروتاجوراس فهي التي يسميها سقراط الفضيلة الشعبية في مقابل الفضيلة الفلسفية ، والفرق بينهما هو الفرق بين الأصل الحقيقي ومحاكاته . ثم كيف يزعم بروتاجوراس أنه يستطيع تعليم الأثينيين فضائل مدينتهم مع أنه غريب عنها ؟

البحث في اللغة :

[١٣١] مهما يكن من شيء كان بروتاجوراس معلماً مشهوراً ناجحاً يتهافت عليه الأثينيون ويأخذون عليه العلم . وكان الفن الذي يعلمه بوجه خاص هو فن الإقناع . وكان يعنى بوجه أخص بالدفاع عن القضايا الضعيفة وإبراز الحجج التي تؤيدها ، أو على أقل تقدير أن يحتاج للقضيتين المتقابلتين فيبين أنهما صادقتان . واعتمد في ذلك على التمكن من اللغة ومعرفة أسرار الألفاظ ، وتركيب العبارة ، وحسن البيان ، والبصر بالمأثور من الشعر . وكان يُؤثر الخطاب الطويل على الحوار الذي يتألف من سؤال وجواب . وفي محادثة بروتاجوراس نجده يقول لسقراط : « أنود بصفتي أكبر منكم سنأ أن أتحدث إليكم في هيئة خطاب أو أسطورة ، أو أن أتناظر وإياك في المسألة ؟ » وقد استعمل في تلك المحادثة الأساليب الثلاثة : أى الخطابة والأسطورة والمناظرة . ويقال إنه قسم الكلام أربعة أضرب هي : الدعاء ، والسؤال والجواب ، والأمر . وقيل بل سبعة هي : الحكاية ، والسؤال ، والجواب ، والأمر ، والتقدير ، والدعاء ، والطلب . وكان يسميها دعائم أو أسس الكلام .

ومما يؤثر عنه قوله في التربية : « يحتاج التعليم إلى الموهبة والممارسة . يجب أن يبدأ التعلم من الصغر » (٤)^(١) . وقوله : « لا خير في فن بلا تجربة ، أو تجربة بلا فن »^(٢) (١٠) . وقوله أيضاً : « لا يتأصل التعليم في النفس إلا إذا ذهب إلى الأعماق » (١١) .

(١) هذا الرقم يشير إلى نصوص فريمان ، وكذلك ما بعده .

(٢) يترجم جومبرز ص ٤١٤ هذا النص كما يأتي : « لا خير في نظر theory بلا عمل . »

ويذهب جومبرز إلى أن بروتاجوراس كان أول من أدخل علم النحو في منهج تعليمه ، ولم تكن قواعد اللغة معروفة من قبل .

جملة القول كان بروتاجوراس حامل لواء النواميس ضد الطبيعة ، فكان بذلك أكبر ممثل للحركة الإنسانية التي ظهرت في أواخر القرن الخامس ، وتميزت بالانصراف عن البحث في الأمور الطبيعية إلى البحث في الإنسان . ومن هذا الوجه يفسر برنت عبارة بروتاجوراس عن الآلهة ، وأنه لا يعرف إذا كانت موجودة أو غير موجودة ، بأنه لا يفكر الآلهة ، ولكنه يبحث في حقيقتها على طريقة أهل مدينته . وإذا كنا عاجزين عن بلوغ المعرفة اليقينية عن الآلهة ، فمن الأفضل التسليم بالعبادات الجارية . وهذا ما يجب أن ننتظره من بطل « القانون » أن يقوله ضد « الطبيعة »^(١) .

حياته :

[١٣٢] هو من أكبر السفسطائيين وأشهرهم حتى لقد كتب أفلاطون محاورة تحمل اسمه . وهو من مدينة ليونتينى Leontini بجزيرة صقلية على مقربة من سراقوسة وإلى الغرب منها . وقد وفد إلى أثينا عام ٤٢٧ ق . م على رأس سفارة من أهل مدينته وبعض المدن الأخرى التى اعتدت عليها سراقوسة . وارتقى جورجياس المنبر وألقى خطاباً بارعاً باسم مدينته والمدن الأخرى أمام مجلس أثينا المسمى إكليزيا Ekklesia ، فنال إعجاب أعضاء المجلس ، وفاز على تيسياس Teisias رئيس وفد سراقوسة وخطيبهم ، مع أن تيسياس كان خطيباً مشهوراً ، وأول من ألف كتاباً فى الخطابة . ويقال إنه تلمذ على تيسياس^(١) الذى أسس مدرسة للخطابة فى سراقوسة ثم فى مدينة ثورى ، ولكننا نشك فى هذه الصلة نظراً لما كان بين سراقوسة وليونتينى من عدااء وتنافس.

وعاش جورجياس زمناً طويلاً حتى اجتاز المائة ، ولكن مولده غير معروف ، فبعضهم يقول سنة ٥٠٠ ، والبعض الآخر ٤٨٥ ، والبعض الثالث ٤٦٠ . والأرجح أنه ولد بعد الحرب الفارسية الثانية أى بعد سنة ٤٨٠ ق . م . ويقول إيسقراط^(٢) Isokrates إنه عمر أ كثر من أى سفسطائى آخر ، وكان إيسقراط تلميذاً له يعرفه حق المعرفة .

(١) انظر كتاب الخطابة لابن سينا ، حيث كتب الدكتور محمد سليم سالم مقدمة طويلة عن فن

الخطابة ص ١٢ .

(٢) وقد يرسم أيضاً بالزأى فيقال : إيزقراط .

ولسنا نعرف شيئاً عن حياته الأولى ، ويقال إنه أخذ العلم على أنبادقليس الذى شاهده يمارس السحر ، وأخذ يعلم فيما بعد نظرياته العلمية . وكان هيروديقوس Herodikus شقيق جورجياس طبيباً^(١) معروفاً ، ولعل الأخوين درسا على أنبادقليس أو على أحد تلاميذه .

ولم تطل إقامة جورجياس فى أثينا ، إذ كان يؤثر الطواف بالمدن حراً من كل قيد ، ولبى دعوة الأسرة الحاكمة فى تساليا ، حيث كان أغنياؤها يدفعون أجوراً باهظة ، وقد اقتنوا ثروتهم من تربية الخيول وبيعها . ويذكر أفلاطون من جملة تلاميذه أرسطيوس - وهو خلاف أرسطيوس القورينائى - ومينون . وكان أرسطيوس صديقاً للملك قورش Cyrus الثانى بن دارا ملك الفرس ، فأمدّه بأربعة آلاف جندي من المرتزقة مع نفقتهم مدة ستة أشهر حتى يخضع ثورة تساليا . ولما زحف قورش انضم إليه هذا الجيش من المرتزقة ، وعهد أرسطيوس إلى صديقه مينون بقيادته . ويشير أفلاطون فى محاوره « مينون » إلى ذهاب جورجياس إلى تساليا بقوله على لسان سقراط فى افتتاح المحاوره : « أى مينون ، لم يكن أهل تساليا مشهورين فيما مضى من الزمان بين الهلنيين إلا بأموالهم وخيولهم ؛ أما الآن - إذا لم أكن مخطئاً - فإنهم مشهورون كذلك بحكمتهم ، وبخاصة فى مدينة لاريسا ، وهى موطن صديقك أرسطيوس . ويرجع الفضل فى ذلك إلى جورجياس ، الذى لم يكد يصل حتى وقع زهرة الأليوديين Aleuadae ومن بينهم صديقك أرسطيوس وكذلك أشرف تساليا فى عشق حكمته . ولقد علمكم طريقة الجواب عن الأسئلة

(١) انظر محاوره جورجياس ٤٤٨ حيث يسأل شيرفون بولس تلميذ جورجياس هذا السؤال : « إذا كانت مهارة جورجياس مثل مهارة أخيه بروديقوس ، فإذا نسميه ؟ » فكان الجواب نسميه طبيباً .

بأسلوب عظيم يليق بأولئك الذين يعرفون ، وهو الأسلوب الذى يجيب به عن أسئلة كل سائل » [مينون ٧٠ - ٧١] . وكان ذلك ردا على سؤال مينون ^(١) الذى طلب من سقراط أن يخبره عن الفضيلة أى مكتسبة بالتعليم أم بالعمل ، وإذا لم تكن بالتعليم أو بالممارسة فهل هى موجودة فى الإنسان بالطبيعة أو بشىء آخر . وبدأ سقراط ينفى عن نفسه أنه يعرف شيئا ، أو أنه يستطيع الإجابة عن الأسئلة ، مثل جورجياس . وهذا ضرب من التهكم الذى اشتهر به سقراط ، فزعم أن جورجياس استطاع حقا أن يعلم أهل تساليا الحكمة .

وبعد بروكسينوس Proxenus الذى صحب جيش قورش مع مينون وزينوفون من تلامذة جورجياس أيضا . وهو من بويتيا ، وأخذ العلم على جورجياس ليشغل بالسياسة ويشتهر ، ولكنه قتل كما قتل مينون .

وأعظم تلامذة جورجياس هو إيسقراط ، ولو أن بعض المؤرخين يزعم أنه من مدرسة نيسياس . وكان إيسقراط صاحب مدرسة للخطابة فى أثينا فى زمان أفلاطون ، وعارضه أرسطوفى صباه وكان إيسقراط شيخا . ويقال إن صورة جورجياس وهو ينظر إلى كرة فلكية كانت منقوشة على قبر إيسقراط .

ومن تلامذته أيضا بولس Polus ، الذى يظهر فى محاوره جورجياس فى بيت كاليكليس مع سقراط وشيروفون . وهو من مدينة أكراجاس . وكذلك ألقيداماس Alkidamas الإيلى الذى ينتقده أرسطوفى كتاب الخطابة من أجل جفاف

(١) كان مينون قائدا من قواد الجيش اليونانى الذى استخدمه قورش ، وغزا به آسيا حتى بلغ بابل . وبعد أن قتل قورش ، قتل مينون كذلك . ثم تولى زينوفون - صاحب مذكرات سقراط وتلميذه وصديقه - قيادة الجيش وعاد به إلى بلاد اليونان - انظر Bury. A Hist. of Greece. الفصل الثانى عشر ص ٥٠١ - ٥١٦ .

الأسلوب ، أو باصطلاح أرسطو^(١) « برودة^(٢) الأسلوب » [psuchra أى بارد]
وكان بركليس ، وثوكيديدس المؤرخ ، وأسباسيا زوجة بركليس ، وكرتياس ،
من المعجبين بجورجياس ، وكلهم يدينون له بحسن الأسلوب .

ويقال إن جورجياس عند ذهابه إلى أثينا كان يعرض فنه في الملاعب ، ويدعو
المستمعين لإلقاء ما يشاءون من أسئلة ، فكانت شجاعته موضع الإعجاب الشديد .
ودعى إلى دافى لإلقاء خطبة قبلت بالاستحسان العظيم وأثارت حماسة الجمهور ،
حتى لقد نصبوا له تمثالا من الذهب الخالص في معبد دلفى عام ٤٢٠ ق . م . ويقال إنه
هو الذى دفع ثمن ذلك التمثال . ودعى كذلك إلى أولمبيا حيث خطب في ضرورة
الاتحاد بين اليونانيين . وأقام له حفيده إيمولبوس Eumolpus تمثالا في ذلك
المكان ، وقد اكتشفت قاعدة التمثال عام ١٨٧٦ ، وعليها عبارة مكتوبة دفاعاً عن
جورجياس ، جاء فيها نصب تمثاله في دافى جزاء عن الفضيلة لا مباهاة بالثروة .

ولم يتزوج جورجياس طول حياته ، ولم ينجب ، حتى يتجنب كما يقول إيسقراط
عبثاً ثقيلاً يقع على ثروته . وقد اشتهر جورجياس بتناول أجر عظيم ، فافتنى ثروة
كبيرة ، ولكنه لم يخلف منها إلا مقداراً يسيراً جداً لا يتناسب مع ما جمعه
في حياته .

(١) أرسطو - الخطابة - الكتاب الثالث الفصل الثالث .

(٢) يستعمل ابن سينا لفظة البرودة كذلك ، فيقول في كتاب الخطابة من الشفاء ص ٢٠٩
« والألفاظ الباردة على وجوه أربعة » ولكنه نقل الأمثلة اليونانية إلى أمثلة من كلام العرب -
ووصف أبو هلال العسكري المعانى بالبرودة ، انظر الصناعتين ص ١١٧ وغيرها .

كتبه ونصوبه :

[١٢٣] وتنقسم كتبه قسمين : قسم في الفلسفة والآخر في الخطابة . وكتابه في الفلسفة كان بعنوان « في الوجود » أو « في الطبيعة » ، وقد احتفظ سكستوس بمقتطفات منه . أما كتبه في الخطابة فمنها رسالة في فن الخطابة ، وضع فيها بعض قواعد هذا الفن . ومنها خطبه التي ألقاها في أولمبيا وأثينا وبعض خطب أخرى وضعها كنماذج للطلبة ، ولا تزال شذرات منها موجودة حتى الآن .

وهذه هي الأجزاء التي بقيت من كتابه « في الوجود » :

١ - لا يوجد شيء .

(١) لا يوجد اللاوجود .

(ب) لا يوجد الوجود (١) كشيء أزلي (٢) أو مخلوق (٣) أو أزلي ومخلوق (٤) ،
أو واحد (٥) أو كثير

(ح) لا يوجد مزيج من الوجود واللاوجود .

٢ - إذا وجد شيء فلا يمكن إدراكه .

٣ - إذا أمكن إدراكه فلا يمكن نقله إلى الغير .

١ - لا يوجد شيء

إذا وجد شيء ، فيجب أن يكون موجوداً ، أولاً موجوداً ، أو موجوداً
ولا موجوداً معاً .

(١) ولا يمكن أن يكون لا موجوداً ، لأن اللاوجود غير موجود . إذ لو وجد لكان
في نفس الوقت موجوداً ولا موجوداً ، وهذا مستحيل .

(ب) ولا يمكن أن يكون موجوداً ، لأن الوجود غير موجود ، إذ لو كان موجوداً
فيجب إما أن يكون أزلياً أو مخلوقاً ، أوهما معاً .

١ - ولا يمكن أن يكون أزليا ؛ إذ لو كان كذلك فلا أول له ، وما لا أول له فقير محدود .
وما لا حد له فليس له مكان ، إذ لو كان له مكان لوجب أن يحوى فى شىء آخر ،
فلا يصبح بذلك غير محدود ، لأن الذى يحوى أكبر مما يحوى ، ولا شىء
أكبر من اللامحدود . ولا يمكن أن يحوى نفسه ، وإلا كان المحوى والمحوى
شيئا واحداً ، ويصبح الوجود شيئين ، أى المكان والجرم ، وهذا باطل . فإذا
كان الوجود أزليا كان لا محدوداً ؛ وإذا كان لا محدوداً ، فلا مكان له ؛ وإذا لم
يكن له مكان ، فهو غير موجود .

٢ - كذلك لا يمكن أن يكون الوجود مخلوقا ، إذ لو كان كذلك فيجب أن ينشأ من شىء ،
إما من موجود أو من لا موجود ، وكلا الأمرين مستحيل .

٣ - كذلك لا يمكن أن يكون الوجود أزليا ومخلوقا فى وقت واحد ، لأن الأزلى والمخلوق
متضادان ، فلا يوجد الوجود .

٤ - ولا يمكن أن يكون الوجود واحداً ، وإلا كان له حجم وأمكن قسمته إلى مالا نهاية
له ؛ وطى أقل تقدير كان له ثلاثة أبعاد هى الطول والعرض والعمق .

٥ - ولا يمكن أن يكون كثيرا ، لأن الكثير حاصل الجمع بين عدد من الواحدات ،
وحيث كان الواحد غير موجود ، فكذلك الكثير .

(ح) ومن المستحيل أن يكون الشىء مزيجا من الوجود واللاوجود . ولما كان
الوجود غير موجود ، فلا شىء موجود .

٢ - إذا وجد شىء فلا يمكن إدراكه

إذا لم تكن المعانى العقلية حقائق ، فلا يمكن أن تعقل الحقيقة : ذلك أنه إذا
كان الشىء المدرك أبيض ، فالبياض هو موضوع الفكر . وإذا كان الشىء المدرك غير
موجود ، فاللاوجود موضوع الفكر . وهذا يساوى قولنا : « إن الوجود ، أو الحقيقة ،
ليس موضوع الفكر ، ولا يمكن أن يدرك » وكثير من الأشياء التى تكون موضوع الفكر
ليست حقيقية ، فنحن قد نتصور عربة تجرى على الماء ، أو رجلا له أجنحة . كذلك مادامت
البصرات هى موضوع البصر ، والمسموعات موضوع السمع ، ومادما نسلم بأن البصرات

حقيقية دون أن نسمعها ، والعكس بالعكس ؛ فعلى أن نسلم بأن المدركات حقيقية دون أن نبصرها أو نسمعها . ولكن هذا يعنى الاعتقاد فى أشياء كالعربة التى تجرى على ماء البحر .

بناء على ذلك ليست الحقيقة موضوع الفكر ، ولا يمكن للفكر أن يدركها . فالعقل الحالى ، فى مقابل إدراك الحواس ، أو حتى باعتباره معياراً صادقاً كالإدراك الحسى ، أسطورة .

٣ — إذا أمكن إدراك شىء ، فلا يمكن نقله إلى الغير .

الأشياء الموجودة هى المحسوسات ؛ فموضوعات البصر تدرك بالبصر ، وموضوعات السمع تدرك بالسمع ، ولاتبادل بينها ، فلا يمكن لهذه الإحساسات أن يتصل بعضها ببعضها الآخر . ثم إن الكلام هو طريق الاتصال بين الناس ، وليس الكلام من نوع الأشياء الموجودة أى المحسوسات ؛ فنحن نقل الكلام فقط للأشياء الموجودة . وكما أن المبصرات لا يمكن أن تصبح مسموعات ، فكذلك كلامنا لا يمكن أن يساوى الأشياء الموجودة مادام مختلفاً عنها . يضاف إلى ذلك أن الكلام يتركب من المدركات التى تلقاها من خارج أى من المحسوسات ، لذلك ليس الكلام هو الذى يخبر عن المحسوسات ، بل المحسوسات هى التى تخلق الكلام . هذا إلى أن الكلام لا يمكن أبداً أن يمثل المحسوسات تماماً ، مادام الكلام مختلفاً عنها ، وكان كل محسوس مدركاً بعضوا الحس الملائم له ، والكلام بعضو آخر . وبناء على ذلك ، مادامت موضوعات الإبصار لا يمكن أن تعرض على أى عضو سوى البصر ، وما دامت أعضاء الحس لا تتبادل إدراكها ، فكذلك الكلام لا يمكن أن يخبر شيئاً عن المحسوسات .

من أجل ذلك إذا وجد شىء وكان مدركاً ، فلا يمكن الإخبار عنه .

جدل جورجياس :

[١٣٤] ومن الواضح أنّ جورجياس يعارض الفلسفة الإيلية التي كانت تزعم أن الوجود موجود . ويذهب « جومبرز » إلى أن هدف جورجياس هو نقد بارمنيدس بأسلوب زينون في الاحتجاج ، دفاعاً عن مذهب أنبادقليس . ولكن جورجياس يهاجم أنبادقليس الذي تعتمد كذلك نظريته في المعرفة على شهادة الحواس ، فيذهب إلى عدم تبادل الإحساسات . وجملة ما يرمى إليه جورجياس هو إبطال مذاهب الفلاسفة السابقين وبيان تهافتها . ولسنا نعرف أكان جاداً في هذه النزعة القَدَمِيّة التي تلغى الوجود والمعرفة إلغاءً تاماً ، أم أنه على طريقة السفسطائيين كان يظهر براعةً في الاحتجاج ، ومقدرة على تأييد القضية الضعيفة بالأدلة العقلية . مهما يكن من شيء ، فلا بد أن تكون فلسفة بارمنيدس ماثلةً أمامنا حين نستعرض نظرية جورجياس . فقد كان بارمنيدس يصل بين الوجود والفكر واللغة ، ويثبت وجود الموجود لأننا نفكر فيه ، ونعبر عنه باللفظ . وعنده أن اللا وجود غير موجود لأننا لا يمكن أن نفكر فيه أو نعبر عنه . ولكن جورجياس يهدم هذه النظرية بقوله إننا نفكر في اللا موجود ونعبر عنه ، وذلك حين نتصور عربةً تجري على سطح الماء ، أو رجلاه أجنحة . وعلى هذا النحو يهدم جورجياس حجج المدرسة الإيلية في أنّ الوجود واحد . وهو في الوقت نفسه يهدم حجة القائلين بالكثرة .

والذي يستخلص من جملة هذه الحجج الجدلية التي يذكرها جورجياس أنه هدم الأساس الثلاثي الذي أقام عليه بارمنيدس فلسفته ، نعني هذه الدائرة التي تبدأ من الوجود وتنتهي باللغة مارة بالفكر . ونتيجة انقطاع هذه الدائرة ، وتفكك هذه الصلة ، هو هدم نظرية المعرفة ونظرية الوجود .

ولم تكن فلسفة جورجياس التي تنكر الوجود ، وتنكر معرفة الموجودات ، وتنكر صلة اللغة بالفكر وإمكان الحكم على الأشياء ، بغير صدى عند أفلاطون .
ولذلك كتب محاوره « السفسطائي » وجعل موضوعها يدور على المنطق ، وعلى الصلة بين الفكر واللغة ، والتميز بين الأحكام الصحيحة والأحكام الباطلة ، وبين الحق والظن ، وجعل محورها فلسفة بارمنيدس لأن صميم نظريته تقوم على المنطق ، وسمى عنوان المحاوره « السفسطائي » وفي ذهنه الرد على جورجياس بوجه خاص . حقا ليس في المحاوره إشارة إلى سفسطائي بعينه ، ولكننا نعلم أن أحداً من السفسطائيين لم يتعرض لفلسفة بارمنيدس في الوجود خلاف جورجياس . ومن الغريب أن تيلور وهو أعظم مَنْ حلل محاورات أفلاطون يرى أن موضوع هذه المحاوره هو المنطق وأنها لا صلة لها بالسفسطة ، وتبعه في هذا التفسير كثيرون ؛ فإذا كان الأمر كذلك فكيف يفسر عنوان المحاوره من جهة ، ومقدمتها التي يتحدث فيها عن معنى السفسطائي ، مما ذكرناه من قبل من جهة أخرى . ونحسب أن أفلاطون لم يكن عابثاً حين قدم للمحاوره هذه المقدمة واتخذ لها هذا العنوان ، وبخاصة أنه وقف طويلاً عند تعريف السفسطائي بأنه صائد المال ، وبأنه المجادل وهذا أهم معانيه . ونحن نعلم أن جورجياس كان أعظم من اكتسب من مهنة التعليم مالا حتى صنع لنفسه تمثالا من الذهب الخالص ، كما تعرض في فلسفته للجدل كما رأينا في نصوصه . لهذا كله نرى أن المحاوره ولو أنها تدور حول نظريات بارمنيدس إلا أن المقصود بها هو جورجياس ، لما بين فلسفتها من صلة وثيقة .

وقد تقول : ولكن أفلاطون كتب محاوره جعل عنوانها « جورجياس » صوره فيها مبتدع الخطابة ، فلماذا لم يقرن اسمه بالجدل كذلك ؟ الحق أن جورجياس كان خطيباً كما كان جدلياً ، ولكن صفته كخطيب كانت أشهر وبه ألصق ، ولذلك

آثره بها أفلاطون، كما آثر بروتاجوراس في المحاوراة المعروفة باسمه بصفة السياسى الذى يعتمد فى تعليمه على العرف والتقاليد لا على الطبيعة، وناقش فى محاوراة تيتياتوس نظريته فى المعرفة وأن الإنسان مقياس الأشياء جميعا .

فن الخطابة :

[١٣٥] وإذا كان جورجياس قد هدم الثالث البارمنيدى المكون من الوجود والفكر واللغة ، فقد صاغ ثلوثاً آخر هو محور فلسفته ، ويتعلق هذا الثالث « بالإنسان » ، ويتركب من السعادة وإرادة القوة والخطابة . فالخطابة أداة الإرادة المتطلعة إلى القوة لتحقيق سعادة المرء . ونستطيع أن نمر بهذا الثالث عكسا أى من السعادة إلى الإرادة إلى الخطابة ، باعتبار أن السعادة هى الغاية ، وإرادة القوة هى الموضوع ؛ والخطابة هى السبيل . وهذه الأمور الثلاثة تكون موضوع محاوراة «جورجياس» . وشخصيات المحاوراة هم كاليكلئس صاحب الدار الذى كان يستضيف جورجياس ، وبولس تلميذ جورجياس المعجب به ، وسقراط ، وشيروفون صاحب سقراط . ويدور الحوار بين جورجياس وسقراط حول فن الخطابة ما هو ، ثم بين سقراط وبولس حول سعادة الإنسان الحقيقية ، ثم بين جورجياس وكاليكلئس عن نظرية إرادة القوة . فنحن نرى أن المحاوراة مقسمة قسمة فنية إلى هذه الدائرة الثلاثية.

يسأل سقراط عن هذا الفن الجديد الذى يمارسه جورجياس ، فيقول له إنه: فن الكلام أو الخطاب peri logous . ويحتاج هذا التعريف العام إلى تحديد وتفصيل ، لأن الفنون على نوعين منها يدوية ، ومنها كلامية أى تمارس بالكلام Logoi ، وهذا التمييز هو الذى أصبح فيما بعد أساس التفرقة بين العلوم النظرية

والعملية . وهناك أنواع كثيرة من الفنون الكلامية مثل الحساب والطب ،
وليست الخطابة مثلها ، إذ للحساب موضوع معروف وكذلك الطب ، أمّا الخطابة
فهى كما يقول جورجياس أعظم شئون الإنسان ، أى الخير الذى يطلبه . وسبيل
ذلك الخير الحرية فى فرض إرادته على أهل مدينته ، ويكون ذلك بالخطابة ، وهى
الكلام البليغ المنفع الناس لتحقيق ذلك ، الخير . فالقوة هى الخير الأسمى ، والخطابة
هى أعظم الفنون لأنها سلاح رجال الحكم للظفر بالقوة التى يسيطرون بها على أعضاء
المجلس النيابية فى أثينا . ويرجع السر فى امتياز بركليس إلى مقدرته البلاغية فى
الإقناع . ويذهب جورجياس إلى أنه يستطيع تعليم هذه المقدرة الخطابية ، لأنها فن
يقوم على معرفة صناعة الكلام وسبل التأثير والإقناع ؛ ولأن الديمقراطية فى بلاد
اليونان كانت تقتضى نزول الناس إلى ميدان المعارك الكلامية .

والغرض من الخطابة إقناع السامعين برأى الخطيب . والسامعون هم الجمهور
أو العامة . وموضوع الخطبة الحق والباطل فى الأمور الأخلاقية . وحيث كان الخطيب
يواجه جمهوراً واسعاً لا فرداً ، فهو لا يحتاج إلى المنطق والمحاورة والجدل ، بل إلى حيل
بلاغية يحمل بها السامعين على الاقتناع .

ويذهب جومبرز إلى وجود نظريتين تختصان بالخطابة فى ذلك العصر ، الأولى
الخطابة التى تعنى بالفخامة والجرس والحسنات اللفظية واستعمال الاستعارات
والمجازات والتشبيهات حتى يلعب الخطيب بالخيال ؛ والثانية تعنى بالمعانى وتسلسل
الأفكار واستخلاص النتائج من المقدمات بكلام منطقي هادىء بارد رزين حتى
يؤثر الخطيب فى العقل . وهناك نظرية ثالثة وسط بينهما . أما زعيم المذهب الأول
فهو جورجياس ، وأما يمثل المذهب الثانى فهو بروتاجوراس .

وخلبت طريقة جورجياس الجديدة على أسماع الأثينيين الألباب ، وذلك

لجدها عليهم ، وتعودهم الخطابة الجدية التي تخلو من التزيق والسجع والتكرار والمقابلة والجناس والطباق ، وما إلى ذلك من أسرار الصناعة . لهذا افتتن الأثينيون أول الأمر عند سماع خطبه ، حتى إذا انكشفت هذه الحيل نظر الناس إلى هذا الأسلوب على أنه ممل سوق بشع ، ووصفه أرسطو بأنه لا يليق إلا بالعامية غير المثقفين .

وكانت طريقته في تعليم تلاميذه أن يعد لهم نماذج من الخطب يحفظونها عن ظهر قلب ، ويستعملون ما فيها من عبارات رنانة بحسب الأحوال . وانتقد أرسطو هذه الطريقة ساخرا بقوله : إنَّ مَثَلُ جورجياس في تعليم الخطابة مَثَلُ صانع الأحذية الذي يقدم لصبيانهِ عدداً كبيراً من الأحذية المصنوعة ، بدلاً من تعليمهم أسرار صناعتها . وكان جورجياس يعتمد في الإقناع على عنصر المفاجأة والغرابة وإثارة الدهشة وتحريك الانفعالات ، فيعمد إلى الهزل في مقام الجد ، وإلى الجد في مقام الهزل .

وينتقده أفلاطون في أثناء المحاورة بأن فنه لا يطلب الحقيقة بل يعنى بالظاهر ، كالطاهي الذي يعمد إلى تزويق الطعام ويعنى بمظهره حتى يفتح الشهية ، ولكنه لا يعرف قيمة الغذاء الحقيقية .

مهما يكن من شيء فقد كان أثر جورجياس في الأدب الأثيني وفي نشأة النثر الفني وتطوره في أوربا بعد ذلك على وجه العموم عظيماً ، ^(١) كما يقول تيلور ، الذي يضيف إلى ذلك أن عناية جورجياس بالسجع والوزن وهيئة الكلام مستمدة من نظرية الفيثاغوريين في الموسيقى ، نغني ترتيب الألفاظ في أساليب موزونة .

القوة فوق الحق :

[١٣٦] قلنا إن الخطابة هي الأداة التي يحقق بها المرء إرادته في بسط سلطانه وإبراز قوته ، ويكون ذلك بوجه خاص في المجالس النيابية ، وموضوع هذه الخطابة هو السياسة . ولا بصور لنا أفلاطون جورجياس على أنه الخطيب السياسي صاحب مذهب القوة ، ولكنه يجرى الكلام على لسان كاليكلس . والمذهب على كل حال يعبر عن رأى جورجياس لأنَّ كاليكلس تلميذه وصاحبه . فهو من رجال الحكم لم يكذب ينزل إلى معترك الحياة السياسية ، ويخطب في المجلس الأثيني ، بعد أن تعلم فن الخطابة على جورجياس .

والنظرية التي يعرضها عظيمة الخطر ، وقد ظهرت مرة أخرى في القرن التاسع عشر عند نيتشه في مذهب إرادة القوة ، وكارليل في عبادة الأبطال . ويقوم جوهر النظرية على أن الحياة الإنسانية مظهرٌ لتغلب الأقوى ، وهذه هي الحالة الطبيعية للإنسان . وهنا نجد التعارض البارز بين الطبيعة والعرف . وليس المقصود بالطبيعة تلك المادة الأولى التي كان الفلاسفة السابقون يبحثون عنها ويدونها أصل الأشياء ، بل طبيعة الإنسان . ولا شك أن حياة الناس حياةٌ اجتماعية يسودها عادات وتقاليد وقوانين تخضع لها الدولة . ولما كانت هذه التقاليد متغيرة ، فلا بد من التماس الطبيعة الثابتة الكامنة وراءها . وسادت في القرن الخامس نظريتان تختصان بهذه الطبيعة ، الأولى ^(١) أن الطبيعة هي قانون الحق والعدل المتأصلين في البشر وفي الكون ،

(١) من المناصرين لهذه النظرية بروديقوس الذي كان معارضا لجورجياس ومنافسا له ، ولم يكن على العكس منه يتناول أجراً باهظاً ، وسنشير إلى نظريته عند الكلام عنه فيما بعد .

وذلك لأنَّ نظام الكون حكيم ونافع ويرمى إلى الخير . والثانية ، وهى التى كان جورجياس يمثلها ، أن الطبيعة « كما تتجلى فى البشر أنانية ، واعتداد بالذات ، ورغبة فى المتعة والسلطان . وكان يمكن لمثل هذا النظر أن يتطور إلى نوع من النظرية النيتشية الخاصة بالتعبير عن الذات »^(١) .

فالرجل القوى هو الذى يعرف كيف تناس المدن ، ومن حقه أن يتولى حكمها . وليست القوة فى كبح جماح النفس والزهد فى رغباتها ، فهذا الزهد أو على الأقل هذا الاعتدال مظهر من مظاهر الضعف وخور العزيمة ، وهو بالعامّة أليق ، إذ ليس عندهم من الإقدام ما يجعلهم أرقى من بنى جنسهم وأعظم منهم امتيازاً . ويجب على الرجل القوى أن يكون شديد النزوع ، وأن يشبع رغباته إلى التمام . أما ذلك الذى لا يشتهى شيئاً وليست له رغبات فهو « كالحجر » . فهذه هى طبيعة الحياة : نزوع ، ورغبة ، وشهوة ، وقوة تدفع إلى تحقيقها لشعر المرء باللذة ويبلغ السعادة . ونحن نجد هنا نظرية أخلاقية عارضها أفلاطون وأرسطو فيما بعد ، فأفلاطون إلى الزهد أميل ، ويؤثر حياة التأمل والحكمة ، على حين يرى أرسطو أن الفضيلة وسط بين طرفين ، وأن السعادة فى التوازن والاعتدال . ومن الطبيعى أن يدافع سقراط فى المحاوراة عن الحياة النظرية الفلسفية ، وأن يصطنع كاليكليس الحياة العملية ، حياة الكفاح ، تلك الحياة التى تلائم الديمقراطية الأثينية .

ويترب على هاتين النظريتين مذهبان خطيران فى الحكم ، نعى هل يُعنى السياسى ، وهو الخطيب ، بتحقيق مصلحته ، وفرض إرادته ، وإبراز قوته ، وإشباع رغباته ، بمصانعة الجماهير وهم أصحاب السيادة فى الديمقراطية ، فيكون حاله حال

(١) تطور الفكر السياسى ، تأليف ساباين وترجمة العروسى ص ٣٧ - ٣٨ .

الموسيقى الذى يهيمه أن يرضى جمهور السامعين ؛ أو يعنى بالأخذ بيد الشعب سواء رضى أم سخط ، ليعحق الحق ويحكم بالعدل . أما كالكليس الناطق بلسان جورجياس والسفسطائيين فيرى أنه لا بأس أن يعمد السياسى إلى تحقيق مصلحته الخاصة لأن ذلك لا يتعارض مع مصلحة الشعب ؛ وكان كثير من الحكام مستبدين ومع ذلك نفخوا أهل مدينتهم ، وضرب لذلك مثلاً بىركليس الذى ازدهرت أثينا فى عهده ، وأنشأ كثيراً من المؤسسات النافعة للدولة ، وعاش الشعب فى ظل حكمه فى رغد ورفاهية . ويطعن سقراط فى هذه النظرية بقوله : إن بىركليس أفاض على الشعب المال ، فعلمهم الكسل والجبن والثرثرة والجشع ، وهذه كلها رذائل ؛ أما السياسى الحكيم الصالح فهو الذى يرفع الشعب نحو مثال الخير ، ويبث فيهم فضائل الحكمة والعدالة .

ولكن العدالة هى المشكلة التى حار فى حلها القدماء ، كما لا يزال الفلاسفة والحكام فى حيرة كيف يتصورونها ، وكيف يلتمسون لها الحل . وقد ألف أفلاطون «الجمهورية» فتساءل فى افتتاحها عن العدالة ما هى ، وعرض رأى ثراسيماخوس وهو من السفسطائيين ، من أنها « مصلحة الأقوى » . وهذه لعمرى نظرية جورجياس وكاليكليس ومعظم السفسطائيين ؛ ثم رفضها وانتهى إلى نظرية الحاكم الفيلسوف الذى يعلم الشعب منهجاً منظماً يقوم على اللغة والحساب والهندسة والموسيقى والرياضة البدنية والفلسفة ؛ ثم عدل عن نظريته فى «الجمهورية» وبسط مذهباً آخر فى «القوانين» .

فقضية العدالة ليس من اليسير حلها ، وليس من اليسير أن نتجنب وقوع الظلم . ويذهب كاليكليس إلى أن السبيل لتجنبه هو أن يكون المرء قوياً ، ولكى يكون

المرء قويا فلا بد أن يكون ذا سلطان ، فيترجع على عرش الحكم ، أو يصادق السلطان . وحيث كان السلطان في الديمقراطية هو الشعب ، فعليك أن تصانعه ، وأن تقترب إليه ، وأن تسابر رغباته . ولذلك يحتاج الإنسان إلى فن الخطابة يذود به عن نفسه ، ويدفع ما عساه أن يقع عليه من شر وظلم .

وبعد ، فقد كان في ذهن أفلاطون حين كتب محاوره « جورجياس » أن يهدم مذهبه في السياسة ، وأن يضع مذهبا جديدا يحق الحق ويقيم العدل . وقد أفلح في هدم فلسفة جورجياس في أن القوة فوق الحق ، ولكنه فشل في وضع مذهب آخر في الجمهورية ، ثم عدل عنها إلى النواميس ، ولعله إذا امتد به العمر لغير النواميس إلى شيء آخر .

حياته :

[١٣٧] آثرت الحديث عن أنطيفون عقب جورجياس لأنَّ آخر ما تكلمنا عنه في مذهبه هو تغليب قوة الإرادة الشخصية على العرف والتقاليد ، أو هذا النوع من التقابل بين الطبيعة والقوانين . ويعد أنطيفون من أبرز السفسطائيين الذين يمثلون هذا التعارض ، ولكنه لا يفهم الطبيعة على أنها إرادة القوة ، بل على أنها الحياة الطبيعية التي يخضع لها المرء في مولده ونموه والاستفادة من الغذاء وما إلى ذلك . وقد برزت أهمية أنطيفون في السنوات الأخيرة على أثر اكتشاف قطعة من كتابه « في الحقيقة » في أوراق بردى أو أكسيرنخوس Oxyrhynchus^(١) ترجمها باركر وعلق عليها في كتابه « نظرية الإغريق السياسية » ونقلها كذلك كاثلين فريمان في النصوص التي طبعتها على حدة وألحقها بكتابها « في صحبة فلاسفة الإغريق قبل سقراط » .

وقد دار جدل في الزمن القديم حول شخصية أنطيفون التي تختلط بشخصية غيره ممن يحملون الاسم نفسه . ودرس المحدثون هذا الموضوع كذلك ، وانتهوا إلى وجود أشخاص ثلاثة بهذا الاسم ، أحدهما خطيب ، والآخر روائي ، والثالث عراف :

(١) هي مكان بالقرب من الفيوم ، عثر فيه بعض علماء الآثار على أوراق بردية فيها نصوص من كتب يونانية تختص بالأدب والشعر والعلم والفلسفة . ومن المعروف أن جاليات يونانية كانت تعيش في مصر وتحفظ بلغتها وأدبها وحضارتها .

أما الروائي فأصله من سراقوسة ، ظهر في أوائل القرن الرابع ، وكتب تمثيلات تراجيدية ، بعضها وحده وبعضها الآخر بالاشتراك مع ديونيسيوس حاكم سراقوسة . أما الخطيب فهو من مدينة رامنوس في أتيكا ، وله خطب متطرة تحث على المدوان وسفك الدماء ، وكان سياسياً وزعيماً للحزب الأوليجاركي ، وحكم عليه بالإعدام في الثورة التي نشبت عام ٤١١ ق. م .

أما العراف ، فهو السفسطائي الذي كان يشتغل بتفسير الأحلام وله مؤلف فيه ، وصاحب كتاب « في الحقيقة » ، وهو الذي نتحدث عنه .

ونحن نعلم أن زينون في مذكراته تكلم عن أنطيفون وذكر حواراه مع سقراط ، وقد أشرنا إليه من قبل ونقلنا بعضه ، ذلك الحوار الذي كان يدور حول إقناع سقراط بعدم أخذ الأجر عن التعليم ؛ ترى أي أنطيفون هو ، الخطيب أو الروائي أو العراف ؟ الأرجح أنه العراف ، لأنَّ أرسطو في قطعة من كتابه عن الشعر احتفظ بها ديوجينس لايرتوس يتحدث عن منافس سقراط قائلاً إنه أنطيفون العراف ، وهو اللقب الذي اشتهر به .

ومن الغريب أنَّ كاثلين فريمان بعد عرضها هذا التمييز بين الثلاثة أخذت عند الكلام عن حياته تمزج بين العراف والخطيب ، قائلة : « كان أنطيفون الأثيني خطيباً ، عرافاً ، ومفسراً للأحلام ، ولسنا نعرف شيئاً عن حياته . ولعله في شبابه قد استقر في كورنثة طبيباً روحانياً . وقد أدنى اشتغاله بالخطابة إلى الاعتقاد بأن التحرر من الآلام النفسية يمكن أن يتم إذا أفضى المريض بعلته اضطرابه ، وخضع للعلاج القائم على سحر الكلام . وانتهى به الأمر إلى إعلاء شأن الخطابة على فن العلاج ، فاصطنع الخطابة » ^(١) .

وذكرت من مؤلفاته ما يدل على الخلط بينه وبين أنطيفون الخطيب ، منها
« الحقيقة » ، وخطبة « في الوفاق » ، وأخرى « في السياسى » . ويعزى إليه
كتاب « في تفسير الأحلام » و « فنون الخطابة » ، و « فن التحرر من الألم » .
كتاب الحقيقة :

[١٣٨] وهذه هى ترجمة النص من كتابه فى الحقيقة^(١) :

العدالة هى عدم اعتداء المواطن على شرائع المدينة التى يعيش فيها . فإذا كان الأمر
كذلك فأفضل سبيل يسلكه الرء موافقاً للعدالة أن يخضع لنواميس المدينة فى حضرة
الناس ، وأن يخضع لأوامر الطبيعة Tate physeon إذا كان بينه وبين نفسه لا
يشهده أحد . ذلك أن الشرائع مكتسبة طارئة ، وقوانين الطبيعة لا غنى عنها
[وموروثة] ، لأن الشرائع تفرض بالرضا [أى باتفاق الناس] لا بالنمو الطبيعى ،
والأمر فى القوانين الطبيعية بالعكس .

فإذا اعتدى إنسان على شرائع المدينة ، ولم يشهده أحد ممن فرض هذه الشرائع ،
نجا من الفضيحة والعقاب ، أما إذا انكشف أمره فإنه يقع تحت طائلتهما . وليس الأمر
كذلك فى القوانين الطبيعية ، لأنه إذا خالفها فلن يخف شرها حين يتخفى عن الناس ،
ولن يزيد إذا رآه جميع الناس . ذلك أن الضرر الذى يصيبه لا يرجع إلى آراء الناس
بل إلى حقيقة الحال .

والعلة فى هذه المسألة أن معظم أفعال العدل الموافقة للشرائع تناقض الطبيعة . فقد
فرضت الشرائع على العيون ما يجب أن تراه وما لا يجب ، وعلى الآذان ما يجب أن تسمعه
وما لا يجب ، وعلى الألسنة ما يجب أن تنطق به وما لا يجب ، وعلى الأيدي ما يجب أن
تعمله وما لا يجب ، وعلى الأرجل أين يجب أن تذهب وأين لا يجب [وعلى العقل ما يجب

(١) الترجمة عن باركر ص ٨٣ - ٨٥ ، وعن فريمان ، وبينهما بعض الاختلاف .

أن يطلبه وما لا يجب [(١)]. ولكن نواهى الشرائع ليست أوفق للطبيعة وأقرب إليها من الأوامر التى تحت الناس عليها . [والدليل على ذلك أن] الحياة والموت طبيعيان ، وتكتسب الحياة من الأمور النافعة للناس ، ويجب الموت من الأمور الضارة . ولكن الأمور النافعة بالطبيعة فى نظر الشرائع قيود على الطبيعة ، والأمور النافعة بالطبيعة حرة . فالأشياء التى تؤلم لا تفيد الطبيعة عند النظر الصائب أكثر من الأشياء التى تجلب اللذة ، وكذلك التى تؤدى إلى الفرح ليست أكثر نفعاً من التى تفضى إلى الحزن . ذلك أن الأشياء المفيدة حقاً لا يجب أن تجلب الضرر بل النفع .

خذ مثلاً أولئك الذين وقع بهم ضرر فيكتفون بدفع الأذى عن أنفسهم ولا يعتقدون أبداً ؛ أو أولئك الذين يحسنون معاملة آباءهم حتى لو أساء الآباء معاملتهم ؛ أو أولئك الذين يصدقون أيمان غيرهم ولكنهم لا يحلفون .

.
.

إننا نحترم أولئك الذين ولدوا من بيت عريق ونمجدهم ، أما الذين لم ينشأوا من أصل نبيل ، فلا نحترمهم ولا نمجدهم . وفى هذه الحالة لا يتصرف أحدنا بالنسبة لأحدنا الآخر تصرف المتحضرين بل المتبررين ، مادامت الطبيعة قد حبت الناس جميعاً بنفس المواهب من جميع الوجوه ، سواء أكانوا يونانيين أم متبررين . وفى مقدور جميع الناس ملاحظة قوانين الطبيعة الضرورية لسائر البشر ، فلا يختص أحدنا بأى مزية من هذه القوى الطبيعية إغريقياً كان أم بربرياً ، فنحن جميعاً نستنشق الهواء من الفم والحياشيم ، وكلنا يتناول الطعام باليد .

فهذه هى الآراء التى وصلت إلينا من كتاب أنطيفون « فى الحقيقة » . والكتاب من جزأين ، ويتناول بالبحث معظم علوم عمره ، من الميتافيزيقا ، والطبيعة ، والرياضة ، والأخلاق والسياسة . وترجع أهمية هذه القطعة إلى أنها تلتقى ضوءاً على آراء السفسطائيين ، وكيف أرادوا تطبيق النظريات الطبيعية على القوانين الإنسانية فى

الأخلاق والسياسة . وكان أنطيفون من أنصار المذهب الطبيعي . وقد انتقد أفلاطون هذا المذهب في « الجمهورية » وفي غيرها من المحاورات ، فكان نقده موجهاً إلى مثل هذه الآراء المدونة في كتاب أنطيفون ، والتي كان الناس يتداولونها ويطلعون عليها .

وجملة ما نستخلصه من هذا النص أمران : الأول معارضة قوانين المدينة باعتبارها قائمة على الظن لا على الحقيقة لأنها ثمرة اتفاق الناس ، والثاني معارضة الفكرة العنصرية التي كانت سائدة في بلاد اليونان ، والتي كانت تميز بين الإغريق وبين المتبربرين .

وعند ما يشير أنطيفون إلى نجاة المذنب من العقاب إذا لم يشهده أحد ، فهو إنما يشير إلى نوع من العرف الذي كان سائداً في أثينا حتى يبين سخريته من التقاليد . ونحن نذكر أن سقراط رفض الهرب من السجن ، وآثر أن يخضع لقوانين الدولة حتى لو كانت ظالمة على إثارة مصلحته الخاصة . فمذهب أنطيفون من المذاهب الفردية individualism التي تعني بمصلحة الفرد ولا تحفل بالجموع . وعلة ذلك أن شرائع المدينة تعارض مصلحة الفرد القائمة على القوانين الطبيعية التي تهدف إلى سعادة المرء . هذا إلى أن الشرائع تأمر بأشياء تحمّل الفرد وتفقّر الحياة ، فهي تأمر بعدم الاعتداء على الجار ، وأن يرفع المعتدى عليه الأمر إلى القضاء . وهناك قد يفوز المعتدى إذا أحسن عرض القضية ، ويخسر المعتدى عليه .

ويسود تفسيره الطبيعي نزعة مادية ، ففي كتابه « في الحقيقة » يبدأ بنظرية المدرسة الإيلية من أن جميع الأشياء واحد ، وأن الأشياء الكثيرة ليس لها وجود حقيقي . فهو يفصل بين عالم الحس وعالم الحقيقة . والحقيقة هي المادة لا الصورة . مثال ذلك السرير الخشبي يتركب من مادة هي الخشب ، ومن صورة هي الهيئة التي

يكون عليها ، ومن أجلها نقول عنه إنه سرير وليس منضدة . وقد كانت المدرسة الفيشاغورية تلمس الحقيقة في الصورة فقط . أما أنطيفون فيراها في المادة فقط ، ويقول : لو أنك غرست السرير في الأرض ، وتصورت أن ينمو كما تنمو الشجرة ، فلن يكون ما ينمو سريرا بل خشبا ، فالخشب هو الحقيقة أكثر من صورته العرضية ، مادامت الطبيعة الخشبية باقية ، والصورة فانية تزول وتختفي .

الوفاق :

[١٣٩] وكان كتاب أنطيفون « في الوفاق » معروفاً في القرنين الخامس والرابع ، ويمتاز بروعة الأسلوب وحسن العرض . وقد تناول فلاسفة القرن الخامس فكرة الوفاق بالبحث فذهب ديمقريطس إلى أن الوفاق وحده هو الذي ييسر جلائل الأعمال حتى الحرب . والمقصود بالوفاق اتحاد الأفراد بالمودة ، واتفاق كلمتهم بالوثام . وتتصل فكرة الوفاق أوثق الاتصال بمعنى الصداقة ، وعلى أي أساس تقوم . وفي مذكرات زينوفون^(١) ، يقول سقراط :

« الوفاق أعظم النعم في المدن ، وكثيرا ما بحث شيوخ المدينة وكبراؤها مواطنهم على إجماع الكلمة . وهناك قانون شائع في جميع بلاد اليونان يقضى على المرء بأن يحلف أن يحافظ على الوفاق . ولست أرى أن يكون معنى الوفاق أن يتفق أهل المدينة على مغنين بأعيانهم ، أو زامرين ، أو شعراء ، أو تمثيلات ، بل أن يخضوا للقوانين ، لأن خضوع المواطنين لها يقود المدينة إلى القوة والسعادة . ولن تحسن سياسة المدينة أو نظام البيت بغير هذا الوفاق » .

وقد نقلنا هذا النص كاملا لنبين معارضة سقراط لنظرية أنطيفون في الهرب من قوانين الدولة . وقد تحدث أفلاطون في محاوراته عن الصداقة ، وذهب أرسطو إلى أنها

(١) الكتاب الرابع ، الفصل الرابع ١٦ .

إذا سادت بين الناس فلا حاجة إلى العدل . ففي ضوء هذه الأفكار الشائعة في بلاد اليونان يمكن أن نفهم عبارات أنطيفون التي نقلها عن كتابه الذي احتفظ فيلوستراتوس ببعض أجزائه ، وهذه هي نقلا عن فريمان :

(٤٨) الإنسان كما يقولون أعظم الحيوانات ألوهية .

(٤٩) وآلآن فلتتقدم الحياة ، ولينزع الرجل إلى الزواج والاتصال بالمرأة . عندئذ يبدأ مع هذا اليوم وهذه الليلة مصير جديد ، لأن الزواج تنازع كبير بين الناس . فإذا اتضح أن المرأة سيئة العشرة فماذا يعمل الرجل في هذه الكارثة ؟ فالطلاق صعب : إنه يعنى انقلاب الأصدقاء أعداء ، أولئك الأصدقاء الذين كانت لهم نفس الأفكار ، وكانوا يستنشقون نفس الهواء ، وكانوا مُقدِّرين وكنا نزلهم حق قدرهم . وكَم يكون عسيرا حين يظن المرء أنه يسعى إلى السعادة بامتلاك المرأة فإذا به يجلب لنفسه الشقاء .

ومع ذلك فلا ينبغي أن نسيء الظن ، ولنفرض وجود غاية الوفاق . فما أبهى أن يتخذ الإنسان زوجة توافق قلبه ؟ وما أحلى ذلك وبخاصة إذا كان المرء شابا ؟ ولكن الألم يجثم في صميم اللذة ، لأن الأفراح لا تفد وحدها ، بل في صجة الأحزان والمتاعب . فالنصر في الألعاب الأولمبية وسائر المباهج تنال بالآلام النقال . وتتوقف الأعجاد والجوائز والمسرات التي وهبها الله الإنسان على العمل والسكد . وإذا كان في صحبتي بدنٌ آخر يسبب لي من المتاعب بمقدار ما أجلبه لنفسي ، فلن أستطيع الاستمرار في الحياة ، إذ ما أعظم الجهد الذي أبذله في العناية بنفسى من أجل الصحة وكسب العيش والحصول على الشهرة والاحترام والمجد والسمعة الحسنة . فماذا يحدث إذا ضمنتُ إلى بدنا آخر له مثل هذه المتاعب ؟ أليس من الواضح أن الزوجة حق إذا كانت موافقة لزوجها تجلب له من الحب والألم ما يفعله لنفسه فيرعى صحة بدنين ، ويكسب معاش شخصين ، ويظفر بالاحترام والشرف لاثنين ؟ فإذا أنجب أطفالا ازداد همه ، وولى شبابه ، وتغيرت هيئته .

يتضح من هذا النص نزعة أنطيفون نحو المذهب الفردى والذى أشرنا إليه عند بحث نظريته السياسية . فهو يرى أن الزواج متعة ، ولكنه مجلبة للمتعاب ، وإنجاب الأولاد أكثر حملا لهم . وقد رأينا أن جورجياس لم يتزوج كذلك . ولعل هذه النزعة كانت شائعة فى السفسطائيين لعدم استقرارهم ، واضطرارهم إلى التجول من مدينة إلى أخرى ، ولو أن أنطيفون يرجعها إلى حالة نفسانية هى طلب الشهرة والمجد والاحترام وحسن السمعة ، وهى صفات تدل على الأثرة وحب الذات .

وهناك علة أخرى يذكرها فى النص الموجود بين أيدينا فحواها أن الحياة مملوءة بالآلام ، وهى إلى ذلك قصيرة أشبه بيوم ما يكاد يطلع عليه النهار حتى يولى سريعا مقبلا نحو الظلام ، فيسلم المرء نفسه إلى الجيل الذى يخلفه . والسعيد من ينتهب اللذات فى هذه الحياة القصيرة الأمد . والشقى من يزهد فى حياته الحاضرة تمهيدا للحياة الأخرى ! والسبيل إلى الحياة السعيدة فى الدنيا أن يأخذ الإنسان نفسه بالتربية ، وأفضلها ما بدأ من الصغر حتى يحصل المرء ما زرعه . فالتربية الحسنة كالزراع الذى ينمو ويزهر ويقطف الإنسان ثماره فى شبابه ورجولته وشيخوخته . وجوهر التربية أن تزرع فى الطفل الوفاق ، بينه وبين نفسه ، وبينه وبين الناس . ويصدر الوفاق عن النظام ومعرفة أسرارته ومحبتة والسير على مقتضاه ، فليس أقبح أو أعظم ضررا وشرأ من الفوضى . ومن أجل ذلك يعلم الآباء أبناءهم الطاعة حتى يخضعوا للنظام . وأعظم سبيل إلى الوفاق هى الصداقة ، ولذلك ينبغى أن يحسن المرء اختيار الصديق ، ولا يغتر بمن يقبل عليه لما عنده من مال أو جاه . أما وفاق الإنسان بينه وبين نفسه فمصدره وحدة الغرض . وآفة هذا الوفاق الباطن التردد ، ويرجع التردد إلى الخوف ، ويفضى الخوف إلى الجبن ، ويؤدى الجبن إلى القعود والعجز .

الأحلام :

[١٤٠] ويذهب شيشرون إلى أن كتاب أنطيفون عن الأحلام كان الأساس الذى اعتمد عليه المتأخرون مثل خريسيبوس الرواقى . وكان أنطيفون يعنى بالأحلام وتفسير المنامات التنبوء بالمستقبل بمعرفة دلالتها ، فهى نبوءات صغيرة . ويقوم هذا التأويل على العلم ولا يستند إلى الإلهام ، فنزلة مفسر الأحلام من الحلم منزلة الشارح للقصيدة . وقد عارض أنطيفون رأى السابقين فى التأويل . مثال ذلك أن لاعبا أولمبيا يرى فى المنام أنه يقود عربة يجرها أربعة جياد . والتأويل البسيط الواضح يدل على الظفر ، ولكن أنطيفون يذهب إلى أنه يخسر السباق لأن « أربعة تجرى أمامه » . ويحلم لاعب آخر أنه انقلب نسيا ، وتفسيره عند القدماء أنه يكسب لأن النسر سريع الطيران ، ويؤوله أنطيفون على العكس ، لأن النسر يطارد الطيور الأخرى فهو فى مؤخرتها .

حياته :

[١٤١] نحن نعرف هيباس من المحاورتين المعروفتين باسمه مما دونه أفلاطون .
وتتعلق « هيباس الأكبر » بالجميل حيث يناقش فيها سقراط فكرة الجمال مع
هيباس . ومن المسلم به أن هذه المحاوره سقراطية ، وهى من أوائل ما كتب
أفلاطون .

وهيباس من مدينة إليس Elis عاش في أواخر القرن الخامس ، وقد ذكره
أفلاطون في محاوره « الدفاع » مما يدل على أنه كان حيا ولم عام ٣٩٩ ق . م ، وهى
السنة التى أعدم فيها سقراط . وقيل إنه أصغر من بروتاجوراس ، وإنه عمر طويلا .
واشتهر هيباس بأنه كان دائبا على الحضور فى الألعاب الأولمبية . وقد أوفدته مدينة
« إليس » فى سفارات كثيرة إلى أثينا وصقلية وبخاصة إلى إسبرطة كما رأينا فى سفارة
جورجياس . وكان ينزل فى أثينا فى بيت كالياس الذى كان يشبه ما نسميه اليوم
« بالصالون الأدبى » الذى يجتمع فيه الأدباء وأهل الفكر . ويذهب أفلاطون
إلى أن هيباس كان يقول إنه جمع من المال أكثر من أى اثنين من السفطانيين معاً ،
فقد تكسب فى صقلية أكثر من بروتاجوراس . ولكنه لم يأخذ من إسبرطة مالا
لأن أهلها لا يعطون أجراً على التعليم .

ومن المأثور أنه كان يذهب إلى الألعاب الأولمبية يحمل فنونا متنوعة
كالتراجيديات والقصائد الغنائية والخطب ليعرضها على السامعين . ويروى أن مواهبه
كانت متعددة وعظيمة . منها ذاكرته القوية العجيبة التى تحفظ خمسين اسما عند

سماعها مرة واحدة . وابتدع طريقة تعين على التذكر ، وكان يعلمها تلاميذه . أما العلوم التي اختص بها فكثيرة ، منها الرياضة والفلك والنحو واللغة ، والنظم والموسيقى ، والتصوير والنحت . وكان يعلم أهل إسبرطة الذين لا يحفلون بالخطابة والعلم الطبيعي ، التاريخ ، وهو تاريخ الأنساب والمدن .

وكان إلى جانب معارفه الواسعة كما نخبرنا سقراط في المحاورة ماهرا في كثير من الحرف والصناعات . ويقال إنه وفد ذات مرة على الألعاب الأولمبية يلبس ملابس من صنع يديه ، وكذلك سائر ما يحمل ، الخاتم ، وعصا من شجر الزيتون ، والحذاء ، والقميص ، والعباءة .

ويمتاز هيباس في خطبه بأنه وفق بين أقاويل القدماء مثل أورفيوس وموزايوس وهوميروس وهزiod ، وغيرهم ممن جاءوا بعدهم فصاغها في عبارات جديدة مؤلفا فيما بينها وكان يعتمد على الأساطير الشائعة وعلى قصائد هوميروس وهزiod في استخلاص تاريخ الإغريق .

ولم تقف دراسته عند حد نقد لغة هوميروس ونظمه ، بل بحث شخصيات الإلياذة ، فذهب إلى أن أخيل أشجعهم ، ونسطور أحكمهم ، وهكذا .

وكان إلى ذلك عالما بالرياضة ، وينسب إليه اكتشاف طريقة تقسيم الزاوية القائمة لثلاثة أقسام ، وتربيع الدائرة . وقد ذكرت فريمان هذه الطريقة مفصلة مع التوضيح بالرسم ^(١) .

وحين قدم أفلاطون صورة هيباس في محاورة « بروتاجوراس » عندما وصف الحاضرين قبل الدخول في صميم المحاورة ، صوّره يجلس في مقابل بروتاجوراس على

كرسى عال ، ويجلس حوله على مقاعد إريكسماخوس ، وفيدروس ، وأنديرون ، وبعض الأغراب الذين اصطحبهم معه من مدينته « إليس » ، « وكانوا يوجهون لهيباس بعض المسائل الطبيعية والفلكية ، وكان يحدد لهم هذه المسائل المتعددة ويحاضر لهم فيها » ^(١) .

ويعضى أفلاطون فيصوره بعد ذلك في دور الموفق بين بروتاجوراس وبين سقراط عند اختلافهما في وجهة النظر في تفسير الشعر أو غير ذلك من الأمور . ولكن هيباس يؤيد جانب الطبيعة في مقابل التقاليد والقوانين التي يذهب أنها « تستبد بالبشر وكثيرا ما ترغنا على فعل أمور كثيرة تضاد الطبيعة » ^(٢) .

ويعضى هيباس في حديثه مفاخرأ بنفسه ، وهي الصورة التي يعرضها لنا أفلاطون كذلك في مواضع أخرى ، فيقول : « فما أعظم فضيحتنا نحن الذين نعرف طبيعة الأشياء ، نحن أحكم اليونانيين الذين اجتمعنا في هذه المدينة التي هي مدينة الحكمة لما عندنا من حكمة ، وفي أعظم بيت بالمدينة وأكثره مجدا ، إذا لم نظهر بما هو جدير بهذا الشرف واقتصرنا على التنازع فيما بيننا كأحط الناس » . ويفخر هيباس بنفسه في استهلال محاوره « هيباس الأكبر » حيث يسأله سقراط أين كان هذه المدة الطويلة غائبا عن أثينا ، فأجابه : « لم يكن عندي فسحة من الوقت ، إذ كلما احتاجت مدينة إليس إلى المفاوضة مع مدينة أخرى آترتني على غيري لأكون سفيرها ، لأنني أقدر الناس على التحكيم أو الخطابة اللازمة في مثل هذه العلاقات بين المدن » ^(٣) .

(١) بروتاجوراس ٣١٥ . (٢) بروتاجوراس ٣٣٧ . ويعرض زينونون في مذكراته الكتاب الرابع الفصل الرابع حوارا بين سقراط وبين هيباس يؤيد فيه سقراط القوانين ويعدها إلهية ويدعو إلى احترامها ، ويعارضها هيباس . (٣) هيباس الأكبر ٢٨١ .

الجمال :

[١٤٢] وتعلق محاوره « هيباس الأكبر » بتحديد معنى الجمال ، حيث يقدم هيباس تعريفات أربعة لكنها جميعا مما يعترض عليها سقراط . الأول أن الجميل هو العذراء الجميلة ، ولا يصلح هذا التعريف لأن ثمة أشياء جميلة كالقيثارة وهى ليست فتاة . والثانى أن الجمال يكون فى الأشياء المذهبة ، هو : « الذهب ولا شئ غيره » لأن الذهب يحمل الأشياء . ولكن تمثال فيدياس عن الإلهة أثينا مع أنه باعتراف هيباس غاية فى الجمال ليس مصنوعاً من الذهب ، بل صنعُ التمثال العيينين والوجه وسائر الأعضاء من العاج . والتعريف الثالث أن الجميل هو « اللأثم » ، فالملعقة الخشبية أكثر ملاءمة لتناول الحساء الساخن من الملعقة الذهبية . وهذا التعريف الجديد جاء ردأ على اعتراض سقراط فى عدم ملاءمة الذهب لتمثال فيدياس . والرابع أن الجميل هو النافع . ويثير سقراط اعتراضات كثيرة على هذا التعريف أيضا ، ولا تنتهى المحاوره بنتيجة حاسمة . ومن الواضح أن هيباس يلتزم نظرية مادية فى الجمال . ولا غرابة فى ذلك ، فهو الذى كان يفخر بالكسب العظيم من مهنة التعليم .

جملة القول الصورة التى نستخلصها من محاورات أفلاطون عن هيباس هى أنه على خلاف بروتاجوراس وبروديقوس وجورجياس ، لم يكن بارعاً فى الحوار والجدل ، أو عميقاً فى البحث عن الحقائق .

حياته :

[١٤٣] هومن أفضل السفستائيين وأزكاهم سيرة ، وقد صورته أفلاطون في محاوراته في صورة حسنة ، على العكس من هيباس . ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان معلم سقراط الذى يعترف بهذه التلمذة في محاوره « بروتاجوراس »^(١) حيث يقول موجهها الحديث إلى بروتاجوراس :

« ما أحسن حظنا أن يكون برود يقوس موجوداً بيننا في الوقت المناسب ، فعنده أى بروتاجوراس ، من الحكمة فيما أظن أكثر مما يضاف إلى البشر ، وهو متصف بهذه الحكمة من زمن طويل ، وقد ترجع إلى زمان سيمونيدس أو أبعد . وأنت على وفرة علمك بكثير من الأمور يبدو أنك لاندري شيئاً عن ذلك . أما أنا لأنى تلميذه فأدري »
ولسنا نعرف شيئاً عن مولده ووفاته ، ولكن يبدو أنه لم يكن صغير السن عندما التقى بسقراط في بيت كالياس حيث دارت محاوره بروتاجوراس . ونحن نعلم أن هذه المحاوره كانت عام ٤٣٢ في الأغلب . وظل يزاوّل مهنته حتى موت سقراط عام ٣٩٩ ق . م .

وهو من قىوس Keos وهى جزيرة صغيرة واقعة في الجنوب الغربى من ساحل آسيا الصغرى ، وتشتهر بشاعرها العظيم سيمونيدس . ويذكر أفلاطون في محاوره « هيباس » أن بروديقوس جاء إلى أثينا سفيرا لقيوس ، وخطب أمام مجلس الخمسمائة ، وكان لخطابه وقع حسن « وأكسبه شهرة » ، كما كان يعلم الخطابة للشباب في دروس خاصة « وكانوا يدفعون مبالغ طائلة ثمنها لها »^(٢) . وكان كالياس راغباً في

(١) بروتاجوراس ٣٤٠ . (٢) محاوره هيباس ٢٨٢ .

طلب العلم عليه ودفع الأجر عن ذلك ، هذا إلى أن بروديقوس كان ينزل في بيته حين يكون في أثينا كغيره من السفسطائيين . وكان سقراط يبعث إليه من الشباب من يريد تعلم النحو وأسرار اللغة . والمأثور أنه لم يكن يغالى في طلب الأجر .

ومن تلامذته الذين كانوا يستمعون إليه في بيت كالياس أجاثون وبوزانياس . وقيل إن أوريبيدس ، وإسقراط ، وثراسيماخوس كانوا من جملة تلامذته أيضا .

اختيار هرقل :

[١٤٤] وكانت طريقته في تعليم الخطابة تعتمد على الحفظ ، بأن يدفع بنماذج إلى الطلبة يستظفرونها ، وقد احتفظ لنا زينوفون في مذكراته ^(١) بملخصة لقصة أخلاقية بعنوان « اختيار هرقل » ، وكان يقدمها لمعظم المتعلمين نموذجا لبراعته . وخلاصة هذه القصة أن هرقل حين أوشك على الشباب ، أى في المرحلة التى يخرج فيها المرء من الصبا ويصبح سيد نفسه ومسئولا عن طريقه في الحياة ، وقع في الحيرة بين طريق الخير والشر ؛ فانهزل هرقل وهام على وجهه في مكان بعيد ، وجلس وحيدا يفكر أى الطريقين يختار ، وإذا بامرأتين ترمزان إلى الفضيلة والرذيلة أقبلتا عليه ، وعرضت كل منهما نفسها عليه . وخاطبته المرأة « الرذيلة » قائلة له : إذا صاحبتنى أذقتك ألوان اللذة والنعيم ، فلا تنزل ميدان القتال ، أو تشتغل بالسياسة ، بل تستمتع بأطياب الطعام والشراب والسماع . ولن أحنك على العمل للحصول على

(١) مذكرات زينوفون ، الكتاب الثانى ، الفصل الأول ٢١ - ٣٤ .

هذه المباحج . أما المرأة « الفضيلة » فقالت له : إني لن أخدعك بل أبسط لك الحقيقة كما هي ؛ إن أتمن شيء وهبته الآلهة للإنسان هو العمل ، والاستقامة ، وخدمة الأصدقاء ، ونفع المدينة ، وزرع الأرض ، ورعى الأغنام ، وتعلم فنون الحرب ، حتى تكسب النبل والشرف والفضيلة . ومغزى القصة كما يسوقها زينوفون أن الحياة الفاضلة تقوم على العمل لا على طلب اللذات ، وفي ذلك خير الفرد ، وصالح المدن ، وأن المرء ينبغي أن يؤثر الخير على الشر .

ولكن أفلاطون في محاوراة المأدبة (١٧٧) يشير إلى القصة في معرض آخر ، إذ يروي كيف أن إلهة الحب لا تجدد من الشعراء من يمجدها ، على حين أن قصائدهم زائفة بمدح غيرها من الآلهة . والسفسطائيون أيضا انصرفوا عن تمجيد الحب ، مثل بروديقوس الذي امتدح فضائل هرقل . ولما كان هرقل عنواناً على القوة ، فقد اتخذ بروديقوس في قصته رمزاً لتغليب القوة على الحق ، كما رأينا في مذهب جورجياس . ولكن بروديقوس يقرن القوة بالفضيلة والعمل . فهو إنما يريد تعليم الفضائل المدنية التي عليها قوام المدينة .

اللغة :

[١٤٥] واشتهر بروديقوس بتبحره في اللغة ومعرفة دقائق معانيها . ويعزى إليه تحديد مدلول كثير من الألفاظ التي كانت تعد من المترادفات . وكان المتحاورون ومنهم سقراط يرجعون إليه إذا اختلفوا على معنى بعض المصطلحات . ففي محاوراة بروتاجوراس يقول سقراط بعد الموضع الذي نقلناه في أول هذا الكلام :

والآن ، إذا لم أكن مخطئاً فإنك لا تفهم معنى لفظة « شاق » Chalepon^(١) كما قصده سيمونيدس . ولا بد أن أصحح لك خطأك كما كان بروديقيوس يصحح لي استعمال لفظة « مخيف deinon » في موضع المدح . فإذا قلتُ عن بروتا جوراس أو أى شخص آخر إنه رجل حكيم حكمة مخيفة ، فإنه يسألنى ألا أخجل من تسمية الشيء الحسن مخيفاً ؟ وأخذ بروديقيوس يعلمنى أن « المخيف » يطلق دائماً في معنى القبح ، فلا يقول أحد عن صحة أو ثروة أو سلم إنها مخيفة بل عن المرض والفقر والحرب . إنى أظن أن سيمونيدس وأهل قيقس حين تكلموا عن « الشاق » كان يعنون « الشر » أو شيئاً لا يمكن أن تفهمه . فلنسأل بروديقيوس عن معنى « شاق » إذ لا بد أنه قادر على الإجابة عن الأسئلة الخاصة بلهجة سيمونيدس . ماذا كان يبروديقيوس يعنى بلفظة شاق ؟ . فأجاب بروديقيوس : « شر » . قال سقراط : وبناء على ذلك فإن سيمونيدس يلوم بيتاقوس على قوله : « بلوغ الخير شاق » كأن عبارته تفيد : « بلوغ الخير شر » .

الألوهية :

[١٤٦] وبحث بروديقيوس عن الأصل في نشأة فكرة الألوهية عند الإنسان ، وصلة ذلك بالمجتمع ، وكيف عرف العقل البشرى وجود الآلهة . وقد احتفظ لنا سكستوس برأيه في ذلك ، وهو أن الإنسان ألّه الأشياء الطبيعية التي يستفيد منها ، وبخاصة تلك التي يتناول منها غذاءه . فقد عبد الأسلاف الأقدمون الشمس والقمر والأنهار والينابيع وكل شيء نافع ، كما عبد قدماء المصريين النيل وعدوه إلهاً . لذلك سمى القدماء الخبز ديمتر ، والتمر ديونيسوس ، والماء بوزيدون ، والنار هفايستوس ، وكذلك كل ما هو نافع للإنسان . ثم إن سائر العبادات والأعرار

(١) يراجع ما سبق من هذا الكتاب ص ٤١ عند الكلام عن الحكماء السبعة ، حيث أوردنا الحكمة الجارية على لسان بيتاقوس ، وهى « بلوغ الخير شاق » .

تتصل بالزراعة ، وما فيها من منافع ، ولهذا نشأت الألوهية عند استقرار الإنسان في الأرض وتعلم الزراعة .

وهذا يدل على تعمق بروديقوس في بحث الإنسان ، والتماس « الطبيعة » الأولى التي تصدر عنها سائر مظاهره الاجتماعية ، مما يؤيد نزعة السفسطائيين في التقابل بين الطبيعة والقوانين .

فهرس

صفحة

مقدمة	(١)
الفلسفة والحضارة	١
١ - الفلسفة الحية ٢ - في ضوء الظروف السياسية ٣ - في ضوء الحضارة ٤ - امتياز الحضار اليونانية بالفلسفة ٥ - معنى الحضارة ٦ - الدين والعلم والفن والفلسفة .	
طلائع الفلسفة اليونانية .	١٠
٧ - البيئة الجغرافية ٨ - الفن اليوناني ٩ - رأى أرسطو - وفي التجربة والعلم والفن ١٠ - مصادر العلم اليوناني ١١ - نشأة العلم الإلهي ١٢ - أعياد اليونانيين ١٣ - هوميروس والإلياذة . ١٤ - هزيبود - ١٥ - أورفيوس والنحلة الأورفية .	
مصادر الفلسفة اليونانية .	٣١
١٦ - الكتب الفلسفية ١٧ - الكشف عن نصوص القدماء . ١٨ - أنواع المصادر : الدارس الفلسفية ١٩ - رواة الآراء ٢٠ - رواة الآراء والسير ٢١ - رواة السير ٢٢ - للمؤرخون	
الحكماء السبعة .	٤١
٢٣ رواة أفلاطون ٢٤ - رأى للتأخرين ٢٥ - رأى العرب	
المدرسة الأيونية .	٤٧
٢٦ - ملطية في القرن السادس ٢٧ - طاليس (ص ٤٨) حياته . ٢٨ - حكمته وسياسته ٢٩ - عالم فلنكى ورياضى ٣٠ - الماء أصل الأشياء ٣١ - كل شىء مملوء بالآلهة ٣٢ - قصة الاحتكار .	

- ٣٣ - أنكسمندريس (ص ٥٦) : حياته ٣٤ - نص أقواله ٣٥ -
 الأبيرون ٣٦ - خلق العالم ٣٧ - ظهور الأحياء ٣٨ - المعاد ٣٩ -
 مخترعات علمية ٤٠ - أنكسمانس (ص ٦٥) . حياته ٤١ - الهواء
 أصل الأشياء ٤٢ - أثر أنكسمانس .

فيثاغورس ٧٠

- ٤٣ نفوذ الفرس في أبونيا ٤٤ - مصادر حياة فيثاغورس ٤٥ -
 سيرته ٤٦ - مدرسة فيثاغورس ٤٧ - مذهبه الديني : التناسخ ٤٨ -
 تطهير النفس ٤٩ - الحساب والهندسة ٥٠ - الموسيقى ٥١ -
 الطب ٥٣ - الفلك ٥٤ - أثره .

زينوفان ٩٣

- ٥٥ حياته ٥٦ - شعره ٥٧ - الله .

هرقليطس ٩٨

- ٥٨ - اختلاف المفسرين ٥٩ - حياته ٦٠ - كتابه وأسلوبه ٦١ -
 النصوص ٦٢ - ترتيب النصوص ٦٣ - موقفه من السابقين ٦٤ -
 الكلمة : القانون ٦٥ - الائتلاف بين الأضداد ٦٦ - النار .
 ٦٧ - التغير المتصل ٦٨ - المعرفة .

بارمنيدس ١٢٧

- ٦٩ حياته وقصيدته ٧٠ - القصيدة ٧١ - الافتتاح ٧٢ - الطريق .
 ٧٣ - الحقيقة ٧٤ - الوجود .

زينون الإيلي ١٤٥

- ٧٥ - حياته ٧٦ - كتبه ٧٧ - منهجه : الجدل ٧٨ - إبطال الكثرة
 ٧٩ - إبطال الحركة ٨٠ - قيمة زينون .

مليسوس ١٥٥

- ٨١ - حياته ٨٢ - النصوص ٨٣ - فلسفته .

صفحة

أنبادقليس ١٦١

٨٤ - حياته ٨٥ - قصيدة في الطبيعة ٨٦ - المعرفة ٨٧ - العناصر
الأربعة ٨٨ - المحبة والغلبة ٨٩ - الضرورة والاتفاق ٩٠ -
الإنسان والنفس والمجتمع ٩١ - العلم والطب .

أنكسا جوراس ١٩١

٩٢ - حياته ٩٣ - النصوص ٩٤ - الفلسفة الطبيعية ٩٥ - البذور ٩٦ -
العقل ٩٧ - أهميته .

المدرسة الذرية - لوقيوس ٢٠٧

٩٨ - النظرية الذرية قديما وحديثا ٩٩ - حياة لوقيوس ١٠٠ -
أقوال القدماء عنه ١٠١ - الجمع بين الإيلية والفيثاغورية (ص ٢٠١)
١٠١ - الحلاء والملاء (ص ١١٣) ١٠٢ - صفات الذرة .

ديمقريطس ٢١٧

١٠٣ - حياته ١٠٤ - مذهبه ١٠٥ - نشأة العالم والحياة ١٠٦ -
المعرفة ١٠٧ الأخلاق ١٠٨ - أثره .

الفيثاغوريون المتأخرون ٢٢٩

١٠٩ - تطور المدرسة ١١٠ - فيلولائوس : حياته ١١١ - النفس .
١١٢ نظرية الأعداد ١١٣ - المحجمات الخمسة ١١٤ - الفلك .

السفسطائيون ٢٤٦

١١٥ - معنى السفسطائي ١١٦ - حول محاوره السفسطائي ١١٧ -
شخصية السفسطائي واسمه ١١٨ - مهاجمة السفسطائيين ١١٩ -
معارضة سقراط ١٢٠ - سياسة المدينة ١٢١ الطبيعة والتقاليد .
١٢٢ - انتصار أثينا على الفرس ١٢٣ - تشعب تعاليمهم ١٢٤ - رأى
زلزل ١٢٥ - تطور السفسطائية

صفحة

بروتلجوراس ٢٦١

١٢٦ - حياته ١٢٧ - كتيبه ونصوصه ١٢٨ - المعرفة ١٢٩ - فن
السياسة والتقابل بين الطبيعة والتقاليد . ١٣٠ - الأخلاق والتربية .
١٣١ - البحث في اللغة .

جورجياس ٢٧٥

١٣٢ - حياته ١٣٣ - كتيبه ونصوصه ١٣٤ - جدل جورجياس .
١٣٥ - فن الخطابة ١٣٦ - القوة فوق الحق .

أنطيفون ٢٩١

١٣٧ - حياته ١٣٨ - كتاب الحقيقة ١٣٩ - الوفاق ١٤٠ - الأحلام

هيباس ٣٠٠

١٤١ - حياته ١٤٢ - الجمل

بروديقوس ٣٠٤

١٤٣ - حياته ١٤٤ - اختيار هرقل ١٤٥ - اللغة ١٤٦ - الألوهية

مراجع مختارة

- 1 - Bréhier : Histoire de la Philosophie.
- 2 - Burgess : An Introduction to the Hist. of Philosophy.
- 3 - Radhakrishnan : Hist. of Phil. Eastern and Western.
- 4 - Rivaud : Hist. de la Phil.
- 5 - Russell : A Hist. of Western Phil.
- 6 - Windelband : Hist. of Phil
- . . .
- 7 - Burnet : Greek Phil. Thales to Plato.
- 8 - Charles Werner : La Phil. Grecque.
- 9 - Gomperz : The Greek Thinkers.
- 10 - Robin : La Pensée Grecque.
- 11 - Zeller : Outlines of the Hist. of Gr. Phil.
- . . .
- 12 - Sabine : A Hist. of Political Theory.(1)
- 13 - Barker : Gr. Political Theory.
- . . .
- 14 - Burnet : Early Gr. Phil.
- 15 - Cornford : Principium Sapientiae.
- 16 - Freeman (Kathleen) : Companion to Presocratic Philosophers.
- „ : Ancilla to the Presoc. Ph.
- 17 - Raven : Pythagoreans and Eleatics.
- 18 - Jaeger : The Theology of the Early Gr. Philosophers.
- 19 - Nietzsche : La Naissance de la Phil. Gr.
- . . .
- 20 - Farrington : Science in Antiquity.
- 21 - Rey : La Jeunesse de la Science Gr.
- 22 - Sarton : A History of Science.
- . . .
- 23 - Will Durant : The life of Greece(2).
- 24 - Bury : A History of Greece.
- 25 - Murray : Five Stages of Gr. Religion.

تصويبات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٣	٢٠	Monsike	Mousike
٤١	١٣	Cleolubus	Cleobulus
	١٤	Mysol	Myson
٥٢	٤	Philosaphos	Philosophos
٥٣	٢٠	yaeger	Jaeger
٧٠	٦	وخضعت في	وخضعت مصر في
٧١	٦	إيزاقراط	إيزقراط
٨٥	٩	الأوتار متساوية	الأوتار غير متساوية
٨٦	٧	تساوى ٣ : ٢	تساوى ٢ : ٣
١٢٩	١٢	الآلهة	الإلاهة
١٣٦	١٨	المتعرج	المنحنى
١٤٠	١٦	والهو	والهورابطة في القضية الحلية
١٤٢	١٦	الفرض	الفرض
١٥٥	١٥	الأبد وسيوجد إلى الأزل	الأزل وسيوجد إلى الأبد
٢٠١	١١	ممكناً	ممكناً
٢٠٤	٤	في الشمس	في أن الشمس
٢٤٨	١٢	نقداً	نقد
٢٥٠	١٤	الأوضح	الأرجح

كتب للمؤلف

١٨	ص	٢ - معاني الفلسفة
» » ١٥		٣ - كتاب الكندي إلى العتصم بالله في الفلسفة الأولى
» » ٢٥		٣ - كتاب النفس لأرسطو (ترجمة حديثة - راجعه
		الأب قنواتي)
» » ١٥		٤ - إيساغوجي وحياة فرغوريوس الصوري
» » ٣٠		٥ - أحوال النفس لابن سينا وأربع رسائل
لجنة التأليف ٢٠		٦ - خلاصة علم النفس
مكتبة الخانجي ٥٠		٧ - التعليم في رأي القابسي (نقد)
مكتبة النهضة ٢٥		٨ - في عالم الفلسفة
» » ٤٠		٩ - كتاب النفس لابن رشد وأربع رسائل
المعارف » ٥		١٠ - الحب والكرهية (سلسلة اقرأ)
» » ٥		» ١١ - الخوف
» » ٥		» ١٢ - النسيان
» الانجلو ١٥		١٣ - ميزان الحق (مقالات في النقد)
» الآداب ٢٠		١٤ - أسرار النفس
» مصطفى الحلبي ٣٣		١٥ - طريقة ديكرولي (ترجمة - راجعه يوسف مراد)
المعهد الفرنسي ٢٥		١٦ - نكت أحوال ابن سينا للكاشي
المطبعة الأميرية ٦٠		١٧ - الشفاء لابن سينا - المدخل (مع لجنة مكونة من
		الدكتور مدكور ، والأب قنواتي ، والحضيري) .